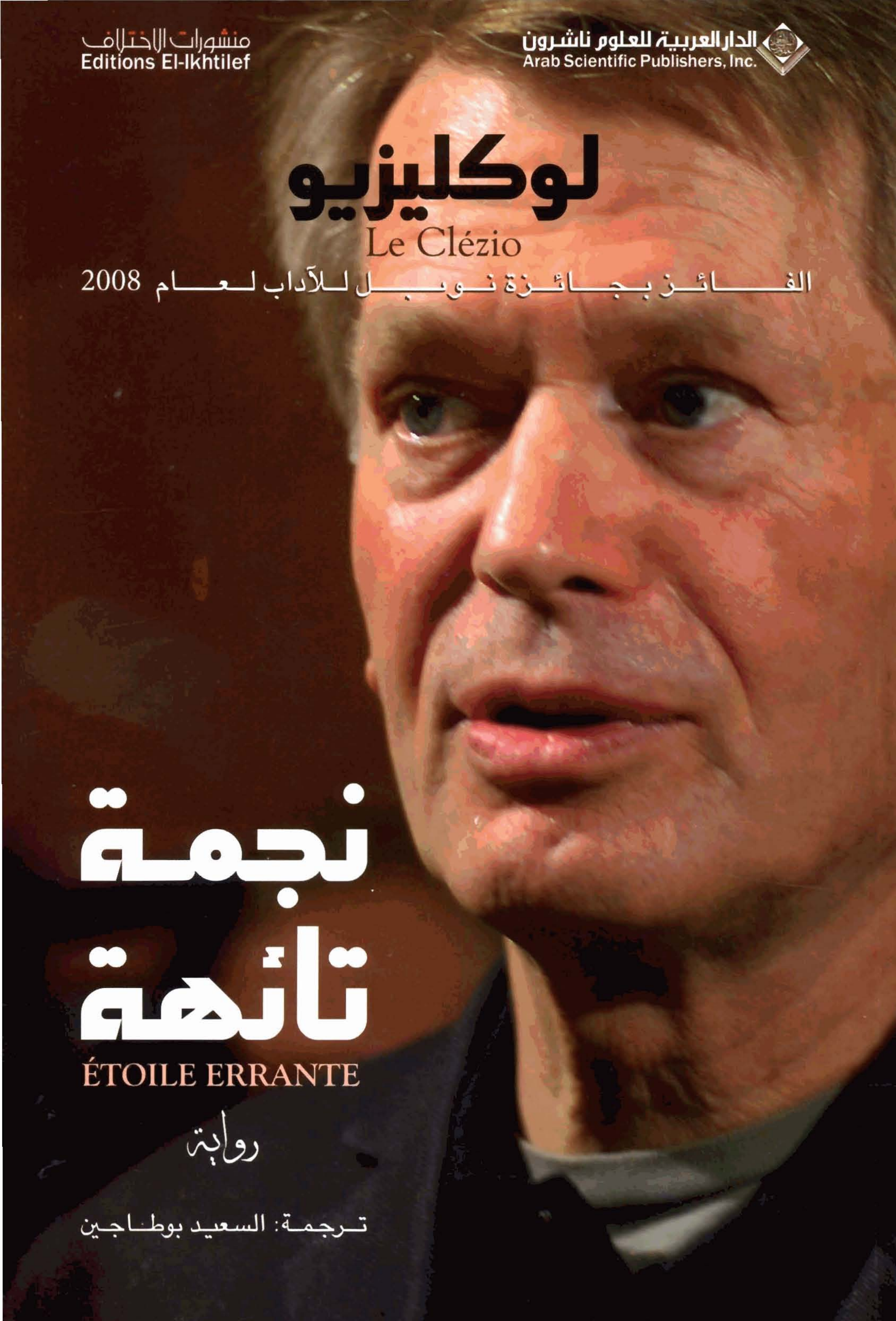
منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.



لوكليزيو
Le Clézio

الفائز بجائزة نوبل للآداب لعام 2008

نجمة تائهة
ÉTOILE ERRANTE

رواية

ترجمة: السعيد بوطاجين

نجمة تائهة

ÉTOILE ERRANTE

يتضمن هذا الكتاب "نجمة تائهة"
ترجمة الأصل الفرنسي
Étoile Errante
حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر
Gallimard

Cet ouvrage publié dans le cadre du Programme d'Aide à la Publication Georges Schehadé, bénéficie du soutien du Ministère des Affaires Etrangères et Européennes et du Service de Coopération et d'action Culturelle de l'Ambassade de France au Liban.

يـصدر هـذا الكتاب بدعم من وزارة الخارجية الفرنسية والأوروبية والسفارة الفرنـسية في لبنان، قسم التعاون والعمل الثقافي وذلك في إطار برنامج جورج شحاده للمساعدة على النشر.

نجمة تائهة

ÉTOILE ERRANTE

رواية

جان ماري غوستاف لوكلوزيو

J M G Le Clézio

الفائز بجائزة نوبل للآداب لعام 2008

ترجمة وتقديم

الدكتور السعيد بوطاجين

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الطبعة الأولى

1432 هـ - 2011 م

ردمك 978-614-01-0131-9

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم

هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)

ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان

فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: bachar@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (9611+)

الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (9611+)

تقديم

تلتقي نجمة اليهودية بنجمة العربية في لحظة عابرة شبيهة بحلم، ثمّ تأتي حياة المحتشدات والمعتقلات والترحّل والأسئلة، تأسيسا على تنويعات سردية واستبدال للساردين بشكل تداوليّ.

تعود إستير إلى الأرض الموعودة وتلتحق نجمة بمخيّمات اللاجئين الفلسطينيين خلال الحرب، وفي الطريق إلى المأساة والخسارة تبرز فكرة البحث عن الحقيقة الغائبة، تتخلّلها أوبئة وحالات من البؤس والفقدان والوحدة.

حكاية طفلتين يتيمتين من عقيدتين مختلفتين جمعتهما الصدفة في طريق من سحب الغبار، ثم افترقتا في الحال و لم تلتقيا إلاّ عبر الذاكرة البعيدة والاسمين المدوّنين في كرّاس مدرسي.

وإذ ننقل اليوم هذه الرواية المثيرة إلى العربية، فإنّ الفضل الأول يعود إلى الأستاذ بشار شابارو مدير دار العلوم ببيروت الذي اقترح عليّ ترجمتها قبل أربعة شهور.

لكنّ التعامل مع هذا النوع من النصوص فرض عليّ جهدا إضافيا لم أتوقعه قبل قراءة المؤلف، ولعلّ أهم عقبة واجهتني هي التقاطعات اللسانية الكثيرة وكثافة أسماء الأعلام والتناصات.

هناك عدّة لغات كتبت بها الرواية أو اعتمدت على أجزاء منها: الفرنسية، العربية، الإسبانية، الإنجليزية، الإيطالية، العبرية، إضافة إلى الدارجة المشرقية في بعض الحالات، ما فرض العودة إلى الدلالات الحقيقية للألفاظ والجمل في سياقات عينيّة مخصوصة.

بيد أنّ ذلك يعدّ أقلّ صعوبة مقارنة بتكديس أسماء أعلام خاصة بالقرى والمدن والأشخاص، من حيث أنّ الأحداث تجري في عدّة حدود جغرافية متباينة: فلسطين، إسرائيل، فرنسا، إيطاليا، زيادة على الأماكن التي يستعين بها الكاتب والساردون، تلك التي ترد على مستوى المخيلة لخدمة أحداث حالية، أو لتقويّة فكرة ما.

ثمة أكثر من ثلاث مئة اسم علم كان يجب التعامل معها بحذر، بالعودة إلى الخريطة الجغرافية أحيانا، أو باستعمال وسائل الاتصال أو بالسؤال تفاديا لكتابة أسماء خاطئة، وهو أمر حاصل في عدّة ترجمات لا تؤصل لأسباب متباينة تخصّ أصحابها.

كتب جان ماري غوستاف لولكلوزيو رواية نجمة تائهة بتفاصيل مكانية دقيقة اعتمادا على الخرائط أو الوثائق، أو عن معرفة ومعايشة، الشيء الذي لا يتوفر بالضرورة عند المتلقي، سواء كان قارئا أو مترجما.

أمّا الأمر الآخر فيخص المقابسات، من حيث أنّ النص مؤثّث بنصوص أخرى مستمدّة من الموروث الغيري بأنواعه وتفرّعاته، ما فرض العودة إلى النصوص الأصلية، كحال التوراة والإنجيل وبعض المقاطع المستمدّة من الموروث الديني أو الشعري، أو من استعمالات التي لها إحالات معيّنة، على المستويين المعجمي والدلالي تفاديا لمسخ المعاني أو التقليل من بعدها الوظيفي.

حافظنا في حالات كثيرة على الخصوصية السردية، خاصة ما تعلق بالتسريع والتبطئة السردية وعلاقاتهما بالترقيم (علامات الوقف)، وإذا كانت هناك بنى شبه مفككة أو مضطربة ظاهريا، فلأنّها كانت هدفا من أهداف الكاتب، وهي ميزة متواترة في الرواية الجديدة الميّالة إلى الهدم، على مستوى البنى الزمانية والجملية، لذا سعينا إلى نقلها بالطريقة اللائقة، دون المساس بخصوصية اللغة العربية وقواعدها.

كمـــا سعينا، في حالات معيّنة، إلى قلب المقاطع الطويلة، أو جزء مـــنها، لغايات بنائية وصوتية. أمّا ما تعلق ببعض الألفاظ والصيغ فقد عملنا على إيجاد تكافؤاتها في العربية، دون تحريف الأصل أو تغييبه.

يبقـــى أنّ كـــلّ ترجمة؟، مهما كانت عبقريتها، تظلّ مقاربة من المقاربـــات الممكـــنة التي لا يمكن اعتبارها مثالية، لأنّ تموقع المترجم له دوره في كيفية التعامل مع الحقول المعجمية والأبنية والأساليب والمسائل الصوتية والأشكال الجملية، لذا نعتبر هذه الترجمة أحد هذه الخيارات، ليس إلاّ.

هـــناك في هذه الترجمة آثار خيانات ضرورية، إذ أنّي اعتبر بعض الخـــيانات مـــن التقنيات الأساسية التي يجب على المترجم تبنّيها، ليس لتحـــريف الأصـــل، بل لخدمته وخدمة اللغة الهدف في آن واحد، ولا يمكننا أبدا الحديث عن الأمانة المطلقة إلاّ في إطار جانب النقل الإملائي الـــذي يسيء إلى النصّين معا. هذه الخيانة الجميلة هي التي تحافظ على القواعد والجماليات والبنيات الصوتية التي وجب الاهتمام بها.

أملي أن يجد القارئ العربـــي في هذه الترجمة شيئا من الجهد، مع أنّي مقتنع بما قاله القدامى: لكل شيء إذا ما تمّ نقصان.

نشير إلى أنّنا لم نعلّق على الرواية احتراما للقارئ ومواقفه، خاصة مـــا تعلق بالمضمون والمعاني والدلالات والأبعاد والمسائل التقنية المتعلّقة بكيفـــيات الـــسرد. الحكاية حمّالة أوجه والتقييمات مرتبطة بالأذواق والتموقعات.

السعيد بوطاجين

الجزائر 2010

ولـــد جـــان ماري غوستاف لوكلوزيو في نيس يوم 13 نيسان 1880، ســـليل عائلـــة من بروتون هاجرت إلى نيس في القرن الثامن عشر.

سافر كثيرا و لم يتوقف عن الكتابة من السابعة أو الثامنة: أشعار، حكايات، نصوص وقصص لم ينشر أي منها قبل **المحضر**، أولى رواياته التي نشرت في أيلول وحصلت على جائزة رونودو عام 1963.

بلغـــت مؤلفاته حوالي ثلاثين مجلدا، وقد نال عام 1980 الجائزة الكـــبرى بـــول-مـــوران، التي تمنحها الأكاديمية الفرنسية، عن روايته **صحراء**.

إلى الأطفال الأسرى

نجمة المتشـردة

يا حبا عابرا

اتّبعي طريقك

برا وبحرا

وفكّي قيودك

(أغنـية بيروفية)

هيلـــين

سان مارتان - فيزيبي، صيف 1943

كانت تعرف أنّ فصل الشتاء انقضى عندما سمعت خرير الماء، كان ثلج الشتاء قد غطى القرية، سقوف البيوت، وكانت المروج بيضاء. صنع الجليد هوابط في أطراف السطوح، ثم ابتدأ لهب الشمس، ذاب الجليد وبدأ الماء ينقّط من كل الحواف، من كل الروافد ومن أغصان الشجر، تجتمع القطرات مشكلة فلجانا تصب في الجداول، والماء يشلّ في كل شوارع القرية.

ربّما كان خرير الماء ذكراها القديمة. تتذكر شتاءها الأول في الجبل وموسيقى الماء في الربيع، متى حدث ذلك؟ كانت تمشي ما بين أبيها وأمها في شارع القرية مادة لهما يدها، وكان ساعدها ينجذب أكثر إلى جهة لأنّ والدها طويل.

ينزل الماء من كل الجهات مؤلفا هذه الموسيقى، هذه الهسهسة، هذا التصفير وهذه النقرات. كانت ترغب في الضحك كلما تذكرت ذلك، لأنّه كان صوتا لطيفا وغريبا مثل دعابة.

تضحك وهي تسير بين أبيها وأمها وماء المزارب يردّ عليها، ينزلق ويتسلسل. والآن مع قيظ الصيف، والسماء ذات اللون الأزرق الباهر، هناك سعادة تُترع الجسد كله، سعادة تكاد تكون مخيفة. كانت تحب أكثر المنحدر الكبير العاشب الذي يتصاعد نحو السماء في أعلى القرية. لا تذهب إلى القمة لأنّهم يقولون إنّ هناك أفاع. تمشي لحظة في طرف الحقل، ما يكفي لتشعر بنداوة الأرض والحيوية الحازمة على شفتيها.

الأعــشاب في بعض الجهات عالية جدا بحيث تغطيها. كانت في الثالثة عشرة، اسمها هيلين، لكنّ والدها يناديها: إستير.

أغلقــت المدرســة أبوابها في مطلع يونيو لأنّ المعلم سليغمان أصيب بمــرض. كان هناك الشيخ هينريش فان الذي يقدم دروسا في الصباح، بيد أنّــه لم يكــن يرغب في المجيء لوحده. ستكون العطلة التي ابتدأت عطلة طويلة بالنسبة إلى لأطفال، وأغلبهم لا يعرف أنّها ستنتهي في الموت.

كانــوا يخرجون يوميا مع طلوع النهار ولا يرجعون إلا في وقت الغــذاء علــى عجلة، ثم يعودون للجري في الحقول أو اللعب في أزقة القرية بكرة قديمة فزروها عدة مرات وتمّ ترقيعها بمطاط عجلة الدراجة.

أغلب الأطفال في مطلع الصيف شبه متوحشين، لفحت الشمس الوجــوه والسواعد، تشابك الشعر مع العشب، والثياب الرثة لطخها التــراب. كانت إستير تحب الذهاب مع الأطفال كل صباح، مع هذا الفــريق الــشاذ حيث تختلط البنات مع الذكور، والأطفال اليهود مع أطفــال القرية، كلهم صاخبون، ممزقو الثياب، كان ذلك قسم السيّد سليغمان.

تجــري معهم في الصباح الباكر في الأزقة التي لا تزال ندية، ثم في عرض الساحة، هناك يثيرون الكلاب فتنبح ويجعلون الشيوخ الجالسين تحــت الــشمس يتذمــرون. يــنحدرون مع طريق الجدول نحو النهر ويقطعون الحقول إلى غاية المقبرة.

يسبحون في ماء السيل البارد عندما تكون الشمس لافحة، يمكث الذكــور هــناك وتــرد الفتيات السيل للاختباء خلف كتل الصخرة الكبيرة. لكنّهن كن يعرفن أنّ الأولاد سيأتون من جهة العليق لمراقبتهن، كن يسمعن ضحكهم الضيق الأنفاس فيرمين الماء في وجوههم مصادفة وهنّ يطلقن صرخات حادة.

كانـــت إستير أكثرهن وحشية بشعرها الأسود المشبوك القصير ووجههـــا الملـــوّح، وإذ تـــشاهدها أمها وهي قادمة لتأكل تقول لها: "هيلين، ملامحك ملامح غجرية!" كان والدها يحب ذلك كثيرا فيناديها بالإسبانية: "إستيرليتا، أيتها النجمة الصغيرة".

هـــو الـــذي دلّها أول مرّة على حقول العشب الواسعة في أعلى القـــرية، فوق السيل، وبعيدا يبتدئ الطريق باتجاه الجبال، الطريق المعتّم للأرزية، بيد أنّها كانت عالما آخر.

يقول غاسباريني إنّ هناك ذئابا في الغابة في فصل الشتاء، وإن نحن أنـــصتنا ليلا لسمعناها تعوي بعيدا. لكنّ إستير أصغت عبثا في فراشها ليلا و لم تسمع عواءها أبدا، ربّما بسبب خرير الماء الذي يجري في النبع دون توقف، هناك في وسط الطريق،.

مرّة أخذها أبوها إلى غابة مدخل الوادي، هناك حيث يغدو النهر عصيبا أزرق يثب من صخرة إلى أخرى.

في كل جهة من جهات الوادي كانت الجبال منتصبة مثل أسوار مغطاة بالغابة، دلها أبوها على قعر الوادي، سديم الجبال المتراصة، وقال لهـــا: «من هنا إيطاليا.» حاولت إستير أن تخمّن في ما يمكن أن يوجد خلف الجبال «هل هي بعيدة إيطاليا؟»

قـــال أبـــوها: "إن اســـتطعت الطيران مثل العصفور ستصلين إلـــيها هذا المساء، لكن، وبالنسبة إليك، يجب أن تمشي كثيرا، ربّما يومين."

لم نكن نرى الإيطاليين سوى في القرى، كانوا يقطنون في فندق المحطـــة النهائـــية، بناية كبيرة بيضاء ذات مصابيح خضراء مشرفة على الـــساحة. يقـــضون أغلـــب وقتهم في الفندق، في قاعة الأكل الكبيرة بالطابق السفلي وهم يتحدثون ويلعبون الورق.

وعندما يكون الطقس جميلا يخرجون إلى الساحة ويذرعونها طولا وعرضا في أفواج من شخصين أو ثلاثة، شرطة وجنودا، وكان الأطفال يسخرون خفية من قبعاتهم المحلاة بريش الديكة.

كـــان الدركيون الإيطاليون يمزحون قليلا عندما تعبر أمام الفندق إســـتير وبعـــض الفتـــيات وهم يخلطون قليلا من الكلمات الفرنسية بالإيطالية.

وكـــان على اليهود الوقوف في الطابور أمام الفندق مرّة في اليوم لتسجيل حضورهم ومراقبة بطاقات الجراية. ترافق إستير أمها وأباها في كـــل مرّة ويدخلون إلى الغرفة الكبيرة المظلمة. وضع الدركيون إحدى طاولات المطعم بمحاذاة الباب، وعلى كل شخص يدخل أن يذكر اسمه ليسجله الشرطي في القائمة.

والحـــال أنّ والد إستير لا يحقد على الإيطاليين، يقول إنّهم ليسوا أشـــرارا مثل الألمان. مرّة، خلال اجتماع في المطبخ ببيت إستير، ذكر أحـــدهم الإيطاليين بسوء فاغتاظ أبوها: "اسكتوا، إنّهم هم من أنقذوا حياتـــنا لمّـــا أمر الحاكم بتسليمنا للألمان". لكنّه نادرا ما يتحدث عن الحـــرب، لم يحـــدّث عن اليهود إلا لماما: لأنّه لم يؤمن بالدين، وكان شيوعيا.

رفـــض الوالد عندما أراد السيّد سليغمان تسجيل ابنته في التعليم الـــديني، هناك إلى حيث يذهب الأطفال اليهود كلّ مساء، إلى الدارة بأعلى القرية. سخر منها وقتئذ بقية الأطفال، بل قالوا: غوييم، ومعناها "وثني"، وقالوا أيضا: "شيوعي".

تعاركـــت معهم إستير، إلا أنّ أباها لم يستسلم واكتفى بالقول: "اتركيهم، سيتعبون قبلك." فعلا، نسيّ أطفال قسم السيّد سليغمان ولم يذكـــروا ثانية كلمة "وثني"، ولا كلمة "شيوعي"، زد على ذلك فإنّ

هناك أطفالا لا يذهبون إلى التعليم الديني، مثل غاسباريني أو ترستان الذي كان نصف إنجليزي، وكانت أمه إيطالية، امرأة جميلة سمراء لها قبعات كبيرة.

تحب إستير السيّد هينريش فيرن بسبب البيانو، كان يقطن في الطبقة السفلى من دارة خربة نوعا ما، هناك في أسفل الساحة، في الشارع المنحدر باتجاه المقبرة. لم تكن دارة جميلة، كأنّها منكوبة بحديقتها المهملة التي غزتها نباتات الأقنثة، وبمصارع الطابق الموصدة باستمرار.

عندما لا يعلّم السيّد فيرن بالمدرسة يظلّ حبيس المطبخ يعزف على البيانو، البيانو الوحيد في القرية، وقد لا يوجد بيانو آخر في أية قرية من القرى الجبلية، إلى غاية نيس ومونت كارلو.

يشاع أنّ الإيطاليين عندما استقروا بالفندق، أراد نقيب الدركيين المسمّى موندوليني، الذي يحب الموسيقى كثيرا، أن يضع البيانو في غرفة الأكل، لكنّ السيّد فيرن قال: «بإمكانكم أن تأخذوا البيانو بطبيعة الحال لأنّكم أنتم المنتصرون، ولكن، يجب أن تتأكدوا بأنّي لن أعزف لكم أبدا هناك.»

لم يعزف لأحد. كان يعيش وحيدا في هذه الدارة الخربة، ويحدث في بعض الأحيان، وفي بعض الأماسي عندما تعبر إستير، أن تسمع الموسيقى التي تتعالى من باب المطبخ. كانت مثل خرير الجداول في الربيع، صوتا دافئا، خفيفا وهاربا، يبدو أنّه يخرج من كل الجهات دفعة واحدة.

تتوقف إستير في الشارع، قرب السياج وتصغي، وعندما ينتهي تذهب بسرعة كي لا يراها. حدّثت مرّة أمها عن البيانو، فقالت لها أمها إنّ السيّد فيرن كان عازفا مشهورا في فيينا قبل أعوام، كان ذلك قبل الحرب.

كان يحيي الحفلات ليلا في القاعات التي تردها نساء بفساتين بيضاء ورجال ببدلات سوداء، وعندما دخل الألمان النمسا سجنوا كل اليهود وأخذوا زوجة السيّد فيرن، أمّا هو فقد استطاع أن يفلت منهم، لكنّه، ومنذ ذلك الوقت، لم يعد يرغب في العزف على البيانو لأيّ كان.

لما استقر في القرية لم يكن هناك بيانو، استطاع أن يشتري واحدا من الشاطئ، أحضره في شاحنة صغيرة وقد أخفاه تحت غطاء، ثم وضعه في المطبخ.

الآن وقد عرفت هذا أصبحت إستير تجرؤ قليلا على الاقتراب من السياج، تستمع إلى العلامات الموسيقية، إلى الانزلاق العذب للعلامات، وكانت تشعر أنّ هناك أمرا حزينا يجعل الدموع تصعد إلى عينيها.

الحرارة شديدة بعد الظهر، بدا كل شيء نائما في القرية، في الوقت الذي ذهبت إستير إلى بيت السيّد فيرن. كانت هناك في الحديقة توتة كبيرة، صعدت إستير فوق الحائط وهي تتسلق السياج في ظلّ شجرة التوت، أبصرت من خلال النافذة شبح السيّد فيرن محنيا على البيانو، وكانت ملامس البيانو العاجية تسطع في الغبش.

تنزلق النوتات، تتردد وتنطلق من جديد، كأنّها لغة، كما لو أنّ السيّد فيرن لا يعرف بالضبط من أين يبدأ. تنظر إستير إلى المطبخ بكل ما ملكت، إلى أن تؤلمها عيناها. بدأت الموسيقى حينئذ، انبثقت دفعة واحدة من البيانو وملأت البيت بأكمله، الحديقة والشارع، ملأت كل شيء بقوتها، بنظامها، ثم غدت ليّنة وغريبة. إنّها الآن تبث، تتوزع كالماء في الجداول، تذهب مباشرة إلى كبد السماء، إلى غاية السحب لتختلط بالضوء. تذهب إلى كل الجبال، تذهب إلى منابع السيلين. كانت لها قوة الوادي.

كانت إستير تنصت إلى لغة السيّد فيرن ويداها متشبثتان بالسياج الـــصدئ. لم يعد حاليا يتحدث مثل معلم المدرسة، إنّه يقص حكايات عجيبة لا تستطيع أن تتذكرها، حكايات شبيهة بحكايات حلم.

نـــشعر في تلك الحكايات بأنّنا أحرار، لا مجال للحرب، لا مجال للألمـــان والإيطاليين، لا شيء يثير الخوف أو يوقف الحياة، مع أنّ هناك حزنا كذلك. تتوقف الموسيقى وتسأل، هناك لحظات يتمزق فيها كل شيء، يتشظى ثم يصمت.

تنطلق الموسيقى من جديد، تستمع بانتباه إلى كل لفظة هاربة، ما كـــان هناك شيء بهذه الأهمية، ما عدا أغاني أمها، أو عندما كان أبوها يقـــرأ لها مقاطع من كتب تفضلها، مثل دخول السيّد بيكويش سجن لندن، أو لقاء نيكولد ناكلييـــي بعمه.

دفعـــت إســـتير الـــسياج واجتازت الحديقة، دخلت إلى المطبخ ومـــشت إلى غاية البيانو دون أن تحدث صوتا. كانت ترى كل ملمس عاجـــي ينغرس بدقة تحت أصابع الشيخ القلقة، تستمع بانتباه إلى كل لفظة.

توقـــف السيّد فيرن فجأة وأصبح الصمت ثقيلا لا يحتمل، بدأت إستير تتراجع، لكنّ السيّد فيرن استدار نحوها، وكان الضوء ينير وجهه الأبيض وعثنونه الغريب الذي يشبه عثنون عنـــزة.

قال: «ما اسمك؟».

قالت إستير، «هيلين.»

«طيب، ادخلي.»

كان ذلك طبيعيا، كأنّه يعرف الفتاة.

ثم اســـتأنف العزف، دون أن يوليها اهتماما. كانت تستمع إليه واقفـــة بمحاذاة البيانو دون أن تجرؤ على التنفس. لم يحدث أن بدت لها

الموســيقى جميلة إلى هذا الحد. كان البيانو يمحو كل شيء في الغبش، وكانت يدا الشيخ الطويلتان تركضان على الملامس، تتوقفان وتنطلقان مجددا، وكان السيّد فيرن يبحث من حين إلى آخر عن أسماء عجيبة في كومة من الأوراق.

سوناتات مجانية

فولفغانغ أماديوس موتسارت

كارل تشيرني

الموسيقى بطريقة علمية، مرجع سابق.636

لودفيغ فان بيتهوفن

سوناتات، الجزء الثاني، موريتز موسكوفيتشي

فرانـــز ليزت

ورقة موسيقية، الشريط الرابع

يوهان سيباستيان باخ

أجنحة إنجليزية

استدار نحو إستير:

"هل ترغبين في العزف؟"

نظرت إليه إستير مندهشة.

«في الواقع أنا لا أعزف.»

هزّ كتفيه.

"هذا غير مهم، حاولي. انظري كيف تتحرك أصابعي."

أجلـــسها علـــى مقعـــد بجانبه، كانت له طريقة عجيبة في جعل أصابعه تجري على الملامس، مثل حيوان نحيل قلق.

حاولـــت إســـتير تقليده، ولشدّ ما كانت المفاجأة كبيرة عندما استطاعت محاكاته.

«هل رأيت؟ الأمر يسيط، اليد الأخرى الآن.»

تابعها، وكان يبدو متلهفا.

"طـيب، يجب أن أعطيك دروسا، ربّما استطعت العزف، ولكن هناك عمل، جرّبـي التساوقات."

وضـع أصـابع إستير وأبعد أصابعه، كان يمللك يدين طويلتين ورشيقتين، لم يكونا يدي شيخ، بل يدين فتيتين قويتين بأوردة ناتئة.

كانت أصوات التساوقات تنبعث بغرابة، ترتج تحت أصابع الفتاة وتلامس قلبها.

عندما انتهى الدرس شرع السيّد فيرن في البحث بتهيج في حزمة الأوراق المرتبة على البيانو، أخرج واحدة وأعطاها لإستير:

"عليك بتغلم قراءة النوتات، عودي عندما تتعلمينها."

أصـبحت إستير منذ ذلك الوقت ترجع عصرا كلما استطاعت، تدفع مصبّعة الدارة وتدخل المطبخ دون ضجيج، في الوقت الذي يعزف السيّد فيرن، يعرف في لحظة ودون أن يدير رأسه، أنّها هناك وفيقول: «ادخلي، اجلسي.»

تجلـس إسـتير قربه على المقعد وتنظر إلى يديه الطويلتين اللتين تركـضان علـى الملامس، كأنّهما هما اللتان تؤلفان العلامات. يدوّم طويلا بحيث تنسى كل شيء، تنسى حتى المكان. يوضح لها السيّد فيرن كـيف تجعل الأصابع تنـزلق على الملامس. كتب نوتات على ورق أبـيض، كان يرغب في أن تغنيها وتعزفها في الوقت نفسه. تلمع عيناه ويـضطرب عثنونه الذي كعثنون عنـزة، "لك صوت جميل، لكنّي لا أدري إن كنت قادرة فعلا على العزف على البيانو."

كان يغضب عندما تخطئ، "انتهى بالنسبة لنهار اليوم، اذهبـي، دعـيني وشأني!."لكنّه يشدها من يدها ويعزف لها سوناتة لموتسارت،

تلــك الــتي تروق له. وإذ تخرج إستير إلى الشارع تنبهر أمام الشمس والصمت، وكان عليها انتظار بعض الثواني لتهتدي سبيلها.

تــشاهد إستير السيّد فيرن في ساحة القرية في نهاية الظهيرة، يأتي الــناس للتــسليم عليه، بيد أنّه يتحدث في كل أمر، ما عدا الموسيقى. الناس الأثرياء هم الذين كانوا يقطنون الدارات، في الجهة الأخرى من السيل، في وسط الحدائق التي غرست فيها أشجار القسطل الكبيرة.

لم يكن والد إستير يحبهم كثيرا، لكنّه يرفض الحديث عنهم بسوء، لأنّهــم يساعدون الفقراء الذين يأتون من روسيا أو من بولونيا. يحيّ الــسيّد فيرن الجميع بأدب، يبادل كل واحد منهم أطراف الحديث ثم يعود إلى بيته الخرب.

تنتعش الساحة مساء، يصل الناس من كل شوارع سان مارتان، الــناس الأغنــياء الذين يسكنون الدارات والفقراء الذين يعيشون في غــرف الفــندق، المــزارعون العائدون من الحرب، القرويون الذين يــرتدون المــآزر، الفتــيات اللائي يتجولن ثلاثة ثلاثة تحت نظرات الدركيين والجنود الإيطاليين، الصائغون والخياطون القادمون من شمال أوربا.

يجــري الأطفــال خلــف الفتيات أو يلعبون لعبة التخبئة خلف الأشــجار، أمــا إستير فتبقى جالسة على الحائط الصغير الذي بجانب الساحة وهي تتأمل جميع الناس، تصغي لضجيج الأصوات والنداءات. ينفجر فجأة صراخ الأطفال كزقزقة العصافير.

ثم تختفي الشمس خلف الجبل، كان هناك ما يشبه سحابة حليبية تظلّــل القرية. غزا الظلّ الساحة وبدا كل شيء غريبا وبعيدا. فكرت إستير في والدها الذي يمشي في الأعشاب الطويلة، هناك في جهة ما من جهات الجبل، بعد عودته من مواعيده.

لا تــأتي إليزابيث إلى الساحة أبدا، تنتظر في بيتها وهي تنسج قطعا من الــصوف لــتجاوز قلقها. لم تستطع إستير فهم هذا، رجال ونسوة مختلفون كثيرا، يتكلمون كلّ اللغات ويفدون إلى هذه الساحة من كل جهات العالم.

تنظر إلى الشيوخ اليهود الذين يرتدون معاطفهم الطويلة السوداء، نــساء البلد اللائي أبلت ثياهن أشغال الحقول، والفتيات اللائي يدرن حول النبع بثياهن الفاتحة.

فــرغت الساحة تدريجيا عندما اختفى الضوء، عاد كل واحد إلى بيــته وخفتت الأصوات الواحد تلو الآخر. تسمع بقبقة النبع وصراخ الأطفال الذين يلاحقون بعضهم بعضا عبر الشوارع. وصلت إليزابيث إلى الــساحة، أخذت إستير من يدها ونــزلتا سويّا إلى الشقة الصغيرة المظلمة، سارتا بالإيقاع نفسه، وكانت خطاهما متناغمتين في الشارع. إســتير تحب هذا، ضغطت جيّدا على يد أمها، كأنّ الاثنتين في الثالثة عشرة والمستقبل أمامهما.

يتذكــر ترســتان دائما يدي أمه وهي تعزف على البيانو ظهرا، عندما يبدو كل شيء نائما في الأرباض. هناك أحيانا مدعوون في قاعة الاســتقبال، يسمع الأصوات، ضحكات صديقات أمه. لم يعد ترستان يعــرف أسمــاءهن، لم يكن يبصر سوى حركة الأيدي على ملامس البيانو. وتتسرب الموسيقى.

كــان ذلــك مــنذ زمــان، لا يعرف متى ذكرت له اسم هذه الموسيقى، الكاتدرائية المغمورة، مع صوت الأجراس الذي يقرع في قعر البحر. كان ذلك في كان، في وقت آخر، في عالم آخر، حاول عندئذ العودة إلى هذه الحياة، كما في الحلم.

تعلو موسيقى البيانو، تملأ غرفة الفندق الصغيرة، تهرب في الأروقة وتــبلغ كــل طابق، تصدي بقوة في صمت الليل. يشعر ترستان بقلبه

يخفــق على إيقاع الموسيقى، يستيقظ فجأة من حلمه، مرعوبا وظهره يقطــر عــرقا، يــستقيم في ســريره ليستمع، ليتأكد أن لا أحد سمع الموسيقى، يستمع إلى النفس الهادئ لأمه النائمة. وفي الجهة الأخرى من المصارع هناك خرير الماء في حوض الينبوع.

كانوا يسكنون في الطابق الأول من فندق فيكتوريا، غرفة صغيرة ذات شــرفة مطلة على الساحة، تحتل عائلات فقيرة الطوابق كلها التي خصــصها لها الإيطاليون. هناك ناس كثيرون نهارا بحيث كان الفندق يطنّ مثل خلية نحل.

عــندما وصــلت السيّدة أورورك إلى سان مارتان بالحافلة، كان ترســتان ولــدا في الثانية عشرة، وحيدا وخجولا. وكان شعره حليقا حــول رأسه عن آخره، وكان يرتدي ملابس إنجليزية غريبة، سروالا طــويلا جــدا من نسيج صوفي رمادي، جوارب من القطن وصدرية عجيبة، كان كل شيء فيه عجيبا.

عاشــوا في كــان مصطافين في دائرة الانجليز المغلقة التي ضيّقتها الحــرب أكثر فأكثر. اندلعت الحرب وتطوّع والد ترستان الذي كان تاجرا في إفريقيا الاستوائية، في القوات المسلحة الاستعمارية، ومنذ ذلك الوقت لم يعرف أيّ شيء عنه.

انقطــع ترســتان عــن الدراسة، وكانت أمه هي التي أعطت له دروســا، كمــا أنّ السيّدة أورورك لم ترغب في تسجيل ابنها بمدرسة السيّد سليغمان عندما قدم إلى الجبل.

أوّل ذكرى تحتفظ بها إستير هي طيفه في ثيابه الغريبة عندما كان يمكث أمام باب الفندق وهو ينظر إلى الأطفال الذاهبين إلى المدرسة.

كانت السيّدة أورورك جميلة، فساتينها الطويلة وقبعاتها الكبيرة مع وجههــا الوقور وتعابير نظرتها الكئيبة قليلا. كانت تتحدث الفرنسية

جـــيّدا، بلا نبرة، ويشاع أنّها إيطالية حقيقية، يشاع أنّها جاسوسة في خدمـــة الدركـــيين، أو أنّها مجرمة تتوارى، الفتيات بخاصة هنّ اللائي يروين حكايات بصوت خفيض، كما يتحدثن عن راشيل التي تذهب لزيارة نقيب الدركيين خفية.

والحال أنّ ترستان لم يكن يرغب في البداية في الاختلاط بالأطفال الآخـــرين. كان يتجوّل في القرية وحيدا، ويحدث أحيانا أن يذهب إلى الحقـــول وينـــزل مع المنحدر إلى النهر، وإذ كان هناك أطفال آخرون يـــصعد مجـــددا دون أن يعود. ربّما كان يخاف منهم، وكان يريد أن يقول إنّه ليس بحاجة إلى أحد.

تـــشاهده إســـتير يمـــشي في الساحة مساء وهو يمدّ يده إلى أمه بتكلف. كانا يسيران معا تحت شجر الدولب إلى طرف الساحة، هناك حيث الدركيون، ثم يعيدان السير في الاتجاه المعاكس.

الـــناس لا يكلمـــون كثيرا السيّدة أورورك، لكنّها تبادل السيّد هينريش فيرن بعض الكلمات لأنّه موسيقي. لا تذهب أبدا مع الآخرين لتسجيل اسمها في القائمة بفندق محطة النهاية. لم تكن يهودية.

مـــرّ الوقت وحل الصيف، كل الناس يعرفون أنّ السيّدة أورورك ليست غنية. يشاع كذلك أنّها لا تملك مالا لأنّها ذهبت إلى الصائغين لتـــستلف مالا مقابل حليّها، يقال إنّها لا تجد ما تبادله، ما عدا بعض الأوسمة، قلادات من العاج وحليّ لا قيمة لها.

ينظـــر ترســـتان إلى أمه وكأنّه لم يشاهدها أبدا، يريد أن يتذكر زمان الإقامة في كان، أشجار المستحية في ضوء العصر، زقزقة العصافير في الخارج، صوت أمه، اليدين اللتين تعزفان دائما الكاتدرائية المغمورة، الموســـيقى الحادة أحيانا والحزينة في بعض الأحيان. كان منظرا طبيعيا يتظلّل وينأى.

لم يعــد ترســتان قــادرا على المكوث في غرفة الفندق. لفحت الــشمس وجهه ويديه وبيّضت شعره الطويل. تمزقت ثيابه واتسخت جرّاء الجري في الأدغال.

تعــارك مرّة مع غاسباريني في الطريق، في مخرج القرية، لأنّ الولد كــان يسخر من إستير، كان غاسباريني أكبر منه سنا وأقوى، أوقف ضــربة ترستان بمفتاح، اجتاح البغض وجهه وقال: "أعد بأنّك أخرق! أعــد!" قــاوم ترســتان إلى حد الإغماء، وفي النهاية أطلق غاسباريني سراحه وأقنع الآخرين بأنّه اعترف.

تغيّــر كــل شيء منذ ذلك اليوم. الوقت صيفا حاليا، أصبحت الأيــام أطــول. يخرج ترستان من الفندق كل صباح عندما تكون أمه نائمــة في الغــرفة الضيقة، ولا يعود إلا في الظهيرة، جائعا وقد أدمى العليق رجليه.

أمّــه لا تقول شيئا، لكنّها تحدس جيّدا. قالت له بصوت غريب عــندما ذهــب مرّة: "ترستان، يجب أن تعلم بأنّ هذه الفتاة ليست لك". توقف: "ماذا، عمّ تتحدثين؟ عن أية فتاة؟". كررت فحسب: "ترســتان، إنّهــا ليــست لك؟". لكنّهما لم يتطرقا إلى المسألة مرّة أخرى.

كان ترستان في ساحة القرية صباحا، في الوقت الذي يقف اليهود في الطابــور أمام فندق محطة النهاية. الرجال والنساء ينتظرون الدخول بالتــناوب لتسجيل أسمائهم في الدفتر من أجل الحصول على بطاقات الجراية.

كــان ترستان نصف مختبئ خلف الأشجار وهو ينظر إلى إستير ووالديها اللذين ينتظران، كان خجلا نوعا ما لأنّه ووالدته لا يحتاجان إلى الوقوف في الطابور، إنّهما ليسا كالآخرين.

هنا، في الساحة، نظرت إليه إستير لأول مرّة، كان المطر ينـــزل مـــدرارا والنساء يتدثرن بأوشحتهن ويفتحن مظلاقمن الكبيرة السوداء. يبقى الأطفال في جوارهن دون ركض ودون جلبة.

في ظلّ شجر الدولب ينظر ترستان إلى إستير في طابور الانتظار، كانت عارية الرأس وقطرات المطر تلمع على شعرها الأسود، تمدّ يدها إلى أمهـــا، يبدو والدها طويلا جدا بجوارها. لا تتكلم، لا أحد يتكلم، ولا الدركيين الواقفين قدام باب المطعم.

كلّمـــا فتحت الباب أبصر ترستان قسما من القاعة الكبرى التي تـــضيئها الـــنوافذ المفتوحة على الحديقة. كان الدركيون واقفين أمام الـــنوافذ ويدخنون، وكان أحدهم جالسا إلى طاولة بدفتر مفتوح أمامه يسجل فيه الأسماء.

هناك شيء عجيب وغريب بالنسبة إلى ترستان، كأنّ الناس الذين يلجـــون القاعدة لن يخرجوا. كانت نوافذ الفندق المطلة على الساحة موصدة والستائر مشدودة.

عـــندما يجـــنّ اللـــيل يغلـــق الدركيون المصارع ويتمترسون في الفـــندق. تغـــدو الـــساحة سوداء، كأنّها قفر، لا أحد يستطيع الخروج.

الـــصمت هو الذي كان يجذب ترستان نحو باب الفندق. غادر الغرفة الدافئة حيث تتنفس أمه ببطء، حلم الموسيقى والحقول، لمشاهدة إستير وسط الأطياف السوداء التي تنتظر في الساحة. يكتب الدركيون اسمها. تدخل هي وأبوها ووالدقما ويدوّن الرجل، صاحب الدفتر، اسمها على الكراس، بعد الأسماء الأخرى.

تمنّـــى ترســـتان لـــو كان معها في الطابور، يتقدم معها إلى غاية الطاولـــة، لا يمكنه أن ينام في غرفة فندق فيكتوريا عندما يحدث هذا.

كان سكون الساحة رهيبا، وكنا لا نسمع سوى خرير الماء في حوض الجدول، ونباح كلب في جهة ما.

ثم خرجت إستير. سارت في الساحة منعزلة قليلا عن أبيها وأمها، وإذ مرتّ قرب الشجر أبصرت ترستان، وكانت هناك شعلة في عينيها السوداوين، كأنّها شعلة غضب أو ازدراء، شعلة قوية جعلت قلب الولد يخفق بقوة. تراجع. كان يودّ أن يقول لها إنّك جميلة، لا أفكر إلا فيك، أحبّك. بيد أنّ الأطياف تسارعت في الأزقة.

صعدت الشمس إلى السماء وكان الضوء يلهب بين الغيوم، العشب يجهز في الحقول والأدغال تجلد الأرجل. يركض ترستان للإفلات، ينزل إلى الجدول المثلج. كان الهواء مليئا بالروائح وغبار الطلع والذباب.

كأنّــه لم يكن هناك صيف آخر قبل هذا. الشمس تصمخ حقول العــشب، وكانــت حجارة السيل والجبال تبدو نائية في جهة السماء الزرقاء المظلمة. غالبا ما كانت إستير تذهب إلى النهر، هناك في أسفل الوادي حيث يتحد السيلان.

يصبح الوادي في هذه الجهة أوسع وتبدو دائرة الجبال أكثر نؤى. كان الهواء في الصباح ناعما وباردا، وكانت السماء زرقاء ناصعة. تبرز الغيوم في الظهيرة من جهة الشمال والشرق، في أعلى الأسنام التي تنفخ أشــكالها اللولبية الباهرة. يهتزّ الضوء في أعلى ماء الوادي. الاهتزاز في كل مكان، وإذ ندير الرأس يتّحد مع خرير الماء وأغاني الجراد.

جــاء غاســباريني مــع إستير ذات مرّة إلى الوادي. ولمّا كانت الــشمس في كــبد السماء، بدأت إستير في صعود المنحدر لتؤوب إلى بيــتها عندما أمسكها غاسباريني من يدها: "تعالي، سنذهب لرؤية ابن عمي في الأسفل، في روكبيليير".

تــرددت إستير، وقال غاسباريني: "ليس بعيدا، فقط في الأسفل، سنذهب في عربة الجد." لقد رأت إستير الحصاد سابقا مع أبيها، لكنّها ليست متأكدة من ذكرى لون القمح.

ركبت العربة أخيرا، كانت هناك نساء بأوشحة على رؤوسهن، وكــان هــناك أطفال. الأب غاسباريني هو الذي كان يقود الحصان. اتــبعت العربة الطريق ونــزلت مع الأشرطة إلى غاية الوادي. لم تعد هناك ديار، ما عدا النهر الذي يسطع تحت الشمس، وحقول القمح.

أُتلفت الطريق وكانت العربة ترتج، وذلك ما يضحك النساء. كان الوادي أوسع قبل روكبيليير بقليل. قبل أن ترى أي شيء، سمعت إستير أصوات نساء، ضحكات حادة تصل مع الرياح الحارة وضوضاء صماء متلاحمة كصوت المطر. قال غاسباريني: "وصلنا، هنا حقول القمح." اتّحد حينها السبيل بالطريق الكبير وأبصرت إستير فجأة كل أولئك الرجال في العمل. كان هناك ناس كثيرون، عربات متوقفة وأحصنة ترعى عشب المنحدر، أطفال يلعبون، وقرب العربات رجال مسنون منشغلون بحمل القمح بمذراة خشبية.

حُصدت أغلب الحقول. كانت النساء موشحات بخرق، منحنيات على الحزم التي يربطنها قبل دفعها إلى الطريق بمحاذاة العربات. هناك قربهن أطفال رضع، أطفال يلعبون بالسنابل التي تقع أرضا. وثمة أطفال آخرون أكبر سنا يلتقطون السنابل من الحقول ويضعونها في أكياس نبات الجوتة.

الشباب يشتغلون في عمق الحقل. على خطوات من بعضهم البعض، يشكلون صفا مثل العساكر. وكانوا يتقدمون ببطء وهم يهزون مناجلهم الكبيرة. هم الذين سمعتهم إستير من بعيد عندما وصلت. ترتفع المناجل نحو الخلف في حركة آلية، تسطع شفراتها الطويلة تحت الشمس، تظلّ لحظات جامدة ثم تقع مجددا وهي تصر في القمح. كان الرجال يحدثون صوتا أجشا بحلوقهم وصدورهم، سعالا خافتا يرنّ في الوادي.

اختبأت إستير خلف العربات لأنّها لم تكن ترغب في أن يراها أحد، لكنّ غاسباريني جذبها من يدها وأرغمها على السير في وسط الحقل. كانت السيقان قاسية وشائكة، تخترق نعال الخيط وتحزّ أكعبهم. وكانت هناك رائحة، رائحة حريفة من الغبار والعرق، رائحة ممزوجة بالإنسان والنبات.

الشمس ساطعة تحرق الأجفان، الوجوه والأيادي. وكان هناك من حولهم في الحقل نساء وأطفال بأسمال لم يحدث أن رأهم من قبل إستير. يلتقطون السنابل التي سقطت من حزم الحبوب، بنوع من السرعة المحمومة، ويضعونها في أكياسهم القماشية. قال غاسباريني بصوت متعال: «إنّهم إيطاليون. لا يوجد قمح عندهم، لذا يأتون إلى هنا لالتقاط السنابل المتبقية.»

كانت إستير تنظر بفضول إلى الفتيات ذوات الثياب الرثة والوجوه التي لا تختلف كثيرا عن خرق متآكلة. «من أين أتوا؟» أشار غاسباريني إلى الجبال، في عمق الوادي. «جاءوا من فالديري، من سانتا أنا (ينطقها سانتانا)، جاءوا مشيا عبر الجبل لأنّهم يجوعون في بلدهم.»

تفاجأت إستير، لم تتصور البتة أن يكون الإيطاليون مثل هؤلاء الأطفال والنسوة، بيد أنّ غاسباريني أخذها إلى صفّ الحصادين. "انظري، هذا ابن عمي." شاب يرتدي قميصا داخليا وقد لفحت الشمس وجهه ويديه. توقف عن هزّ منجله الكبير. «إذا؟ هل تقدم لي خطيبتك.» انفجر ضاحكا، وتوقف الرجال الآخرون ليتفحصوا وجوههم.

هزّ غاسباريني كتفيه ومشى مع إستير إلى طرف الحقل ليجلسا على منحدر. لا يُسمع من هنا سوى صفير المنجل في القمح والصوت المبحوح للرجال: ران! ران! قال غاسباريني: "قال أبي سيخسر الإيطاليون الحرب لأنّهم لا يجدون عندهم ما يسدّ الرمق." وتسأل إستير: "ربّما سيستقرون هنا." فيجيب غاسباريني دون تردد: «لن يتركوهم، سيطردونهم. والحال أنّ الألمان والايطاليين سيهزمون قريبا"، مع ذلك فقد خفض صوته: «والدي في الجبل. ووالدك أنت؟.»

فكـــرت إستير، لم تكن متأكدة من إجابتها. قالت مثله: «والدي أيـــضا في الجـــبل». وسأل غاسباريني: «ماذا يفعل؟» فأجابت إستير: «يساعد اليهود الذين يعبرون الجبال، يساعدهم في الاختباء.»

بـــدا غاسباريني غاضبا: «الأمر مختلف. مساعدة المقاومين شيء آخـــر.» ندمت إستير على كلامها. أوصاها والدها بعدم الحديث عن الحـــرب أبدا، ولا عن الناس الذين يأتون إلى بيتهم، مع أيّ كان. قالوا إنّ الجنود الإيطاليين يهبون مالا لكل من كشف عن الآخرين.

ربّما أعاد غاسباريني هذا الكلام على مسامع الرقيب موندوليني؟ بقـــيّ الاثنان صامتين لفترة طويلة وهما يلوكان حبات القمح التي كانا يخرجانها واحدة فواحدة من جرابيهما الشفافين.

قـــال أخـــيرا: «مـــاذا يفعـــل أبوك؟ أقصد ماذا كان يفعل قبل الحرب؟» أجابت إستير: «كان أستاذا.» بدا غاسباريني منتبها: «أستاذ ماذا؟» أجابت إستير: "أستاذ التاريخ في الثانوية. التاريخ والجغرافيا." لم يقـــل غاســـباريني شيئا آخر. كان ينظر أمامه ووجهه مقطب. فكرت إســـتير في طـــريقة حديـــثه قبل لحظات وهو ينظر إلى الأطفال الذين يلتقطون السنابل: «إنّهم يجوعون في بلدهم.»

قال غاسباريني لاحقا: «والدي يملك بندقية، لا زالت عنده، إنّها مخـــبأة عـــندنا في الكوخ، سأريك إياها في يوم ما إن كنت ترغبين في ذلك».

مكث هو وإستير برهة دون أن ينبسا ببنت شفة، كانا يستمعان إلى صـــوت المـــناجل وأنفـــاس الرجال. كانت الشمس ثابتة في كبد السماء، ولا أثر للظلال في الأرض.

هـــناك بـــين سيقان الحبوب نمل كبير يتقدم، يتوقف ويقلع من جديد، كان النمل بدوره يبحث عن الحبوب التي تسقط من السنابل.

سأل غاسباريني: «هل صحيح أنّك يهودية؟.» نظرت إليه وكأنّها لا تفهم. كرّر الشاب: «قولي، صحيح؟ أنت يهودية؟»، ظهر على وجهه فجأة نوع من التخوف جعل إستير تردّ بسرعة: «أنا؟ لا، لا!.»

بقيّ وجه غاسباريني مشدودا وقال: "يقول أبي لو جاء الألمان إلى هنا لقتلوا كل اليهود."

أحست إستير فجأة بقلبها ينبض بقوة، بألم، والدم ينفخ شرايين عنقها، ينبض في الصدغ والأذنين، وامتلأت عيناها بالدموع دون معرفة السبب. ربّما بسبب الكذب. سمعت صوت الولد البطيء، الملحّ، وصوتها الذي يرنّ ويردد: «أنا؟ لا، لا!»، والخوف أو الألم الذي يفيض من عينيها.

كانت السماء زرقاء في أعلى الحقول، سوداء تقريبا، والضوء يسطع على المناجل وحجارة الجبال. تحرق الشمس ظهرها وكتفيها تحت الفستان، وبعيدا، في وسط الحقل، تسمرت النساء والأطفال، مثل نمل لا يتعب، وهم يحثون بنهم في سيقان الحبوب والدم يسيل من أيديهم الجريحة.

وقفت إستير فجأة وغادرت المكان دون كلمة، كانت تمشي وسط سهام سيقان الحبوب التي تنفذ إلى حذائها القماشي، وخلفها كان الصوت المضطرب للولد الذي ينادي: «هيلين! هيلين! انتظريني! إلى أين أنت ذاهبة؟».

عندما وصلت إلى الطريق حيث تنتظر العربات حمولة الحبوب المجزوزة راحت تعدو بكل قواها باتجاه القرية. كانت تركض دون أن تلوي، دون تضييع دقيقة واحدة، وهي تفكر في أنّ كلبا شرسا وراءها حتى تستطيع الجري أكثر فأكثر. كان نسيم الوادي البارد ينزلق عليها بعد حرارة حقول القمح. كان مثل الماء.

ركضت إلى أن أحسّت بألم ولم تعد قادرة على التنفس، ثم جلست على قارعة الطريق وكان الصمت مخيفا. وصلت شاحنة وسط غيمة من الدخان الأزرق. كان يقودها دركيون، وضعها الإيطاليون في الخلف، وبعد لحظات نزلت إستير في ساحة القرية. لم تخبر أمها بما جرى لها هناك في الأسفل حيث يحصد الناس. لقد حافظت طويلا على مذاق القمح المرّ في فمها.

مع ذلك فقد أخذ الإيطاليون بيانو السيّد فيرن تحت المطر باكرا جدا. انتشر الخبر دون معرفة كيف حصل ذلك. كان أطفال القرية حاضرين، وبعض العجائز بمآزرهن ويهود يرتدون القفاطين الشتوية بسبب الأمطار.

في ذلك الوقت بدأ الأثاث العجيب، الأسود البراق، بشمعداناته البرونزية التي في هيئة شياطين، يصعد الطريق محمولا من أربعة جنود إيطاليين ببدلاتهم العسكرية.

رأت إستير هذه القافلة العجيبة تعبر أمامها، هذا البيانو الذي يتأرجح ويتمايل مثل تابوت كبير، وريش القبعات الأسود يهتزّ في كل رجة.

توقف الجنود عدة مرات لاسترجاع النفس، وكلما وضعوا البيانو على ألواح الرصيف رنّت الأوتار في اهتزاز كبير شبيه بأنين.

في ذلك اليوم تحدثت إستير لأوّل مرّة عن راشيل، تابعت الموكب من بعيد، ثم أبصرت شبح السيّد فيرن الذي كان يصعد الشارع بدوره، تحت المطر. اختبأت إستير في كوة أحد الأبواب للانتظار، وتوقفت راشيل قربها. كانت قطرات الماء تبلّل شعر راشيل الجميل الأحمر وتنزل على خديها كالدموع. ربّما رغبت إستير في أن تكون صديقتها لأجل هذا.

بيد أنّ البيانو كان قد اختفى في الجهة العليا من الشارع باتجاه فندق محطة النهاية. مرّ السيّد فيرن قربهما دون أن يراهما. كان وجهه أبيض عابسا بسبب القنوط أو المطر، وكان عثنونه الأبيض مضطربا، كأنّه يتكلم لوحده، وربّما كان يلعن الجنود الإيطاليين بلغته. كان الأمر مضحكا وحزينا في الوقت نفسه.

أحست إستير بانقباض الحلق لأنّها فهمت معنى الحرب فجأة. عندما تكون هناك حرب، يمكن أن يجرؤ رجال الشرطة وجنود بقبعات غريبة مزخرفة بريش على أخذ بيانو السيّد فيرن من بيته ووضعه في قاعة الطعام بفندق محطة النهاية، مع أنّ السيّد فيرن يتمسك به أكثر من تمسكه بأيّ شيء في العالم، ذاك ما بقيّ له في حياته.

صعدت حينها راشيل الشارع باتجاه الساحة، وكانت إستير تمشي قربها، وعندما وصلتا اختبأتا خلف شجرة الدلب وبقيتا تتأملان سقوط المطر.

عندما كانت راشيل تتحدث كانت هناك سحابة من البخار تتشكل حول شفتيها، وكانت إستير سعيدة لأنّها هناك، رغم بيانو السيّد فيرن، لأنّها كانت ترغب منذ مدة في الحديث إلى راشيل دون أن تجرؤ. إستير تحب شعرها الأشقر الطويل الذي يتدلى على كتفيها بحرية. إنّه يضايق كثيرا سكان القرية، نساء البلد والرهبان اليهود كذلك، لأنّ راشيل لم تعد تذهب إلى القداس، كما أنّها تحدّث أحيانا الدركيين الإيطاليين أمام الفندق.

ولكنّها كانت من الجمال بحيث فكرت إستير بأنّه ليس مهمّا أن تفعل ما يفعله الآخرون. لقد حدث أن تعقبتها إستير دون أن تنتبه، سواء في شوارع القرية عندما تشتري بعض الأغراض، أو عندما تتجول مع أبيها وأمها عصرا.

الـــناس يروون أمورا عنها، الشباب يقولون إنّها تخرج ليلا رغم حضر التجول، يقولون إنّها تذهب للسباحة في الوادي عارية. الفتيات يقصـــصن أشـــياء أقل غرابة، لكنّها أكثر سمّا، يقلن إنّ راشيل تعاشر النقيب موندوليني، تذهب لزيارته في فندق محطة النهاية وتتجول معه في الشوارع في المدرّعة، وعندما تنتهي الحرب ويهزم الإيطاليون سيقصّون شـــعرها الجميل، مثل عملاء الغستابو والجيش الإيطالي. إستير تعرف جيّدا أنهن يردّدن ذلك بفعل الغيرة.

في ذلـــك الـــيوم بقيت إستير وراشيل معا لفترة طويلة تتحدثان وتتأملان المطر الذي ينقر برك الماء، وعندما توقف المطر جاء الناس إلى الـــساحة ككل صباح، نساء البلد بمآزرهن وأحذيتهن الجلدية، واليهود بمعـــاطفهم وثيابهم المضحكة، والشيوخ بالقفاطين السوداء والقبعات. الأطفال أيضا يبدأون في الجري، أغلبهم بثياب رثة وأقدام حافية.

أشـــارت بعـــد ذلك راشيل إلى السيّد فيرن، كان هو الآخر في الـــساحة، مختبـــئا في الجهة الأخرى من الجدول. كان ينظر إلى جهة الفندق، كأنّ بمقدوره رؤية البيانو.

كان طيفه النحيل الذي يتسلل من شجرة إلى أخرى، مادّا عنقه، محـــاولا رؤية ما بداخل الفندق والدركيون يدخنون أمام الباب، شيئا مثيرا للضحك والشفقة في آن واحد، ما جعل إستير تشعر بالخجل.

انـــزعجت فجأة، أخذت بيد راشيل وذهبتا نحو طريق الجدول، ذهبـــتا إلى الطريق الواقع في أعلى الوادي، سارتا سويا في الدرب الذي ما زال يسطع جراء المطر، إلى غاية الجسر، دون أن تتكلما.

يلتقـــي الـــسيلان مع التيارات في الأعلى، يقود الدرب إلى غاية المجـــريين حـــيث يوجد شاطئ ضيق من الحصى. كان صوت السيول مصمّا، لكنّ إستير وجدته رائقا. لا يوجد شيء آخر في العالم من هذه

الجهة، ولا يمكن أن نتكلم. كانت الغيوم قد انفصلت والشمس تسطع على الحجارة وتجعل الماء السريع برّاقا.

مكـــثت إستير وراشيل فترة طويلة جالستين على الحجارة المبللة وهمـــا تنظـــران إلى الماء الذي كان يشكل دوامات. أخرجت راشيل ســـجائر، علبة غريبة مكتوبة بالانجليزية، وبدأت تدخن. كان الدخان المرّ اللين يدور حولها ويجذب الزنابر.

في لحظـــة مـــا قدّمت السيجارة لإستير لتجرّب، بيد أنّ الدخان جعلها تعطس، ما أضحك راشيل.

صـــعدتا المـــنحدر بعد ذلك لأنّهما شعرتا بالبرد، ثم جلستا على الحـــائط الصغير، هناك تحت الشمس. شرعت راشيل في الحديث عن والديها بصوت غريب، كانت متشددة وقاسية نوعا ما. إنّها لا تحبهما لأنّهمـــا يخافـــان دوما، ولذلك هربا من بولونيا واختبآ في فرنسا. لم تـــتحدث لا عن الإيطاليين ولا عن موندوليني، ولكنّها فتشت فجأة في جـــيب فـــستانها وكشفت عن خاتم في يدها المفتوحة. "انظري، لقد منحوني هذا."

كـــان خاتمـــا قديما وجميلا بحجر كريم أزرق باهت يلمع وسط أحجار أخرى ناصعة البياض.

قالـــت راشيل "إنّه صغير، الأحجار المحيطة ألماس." لم تبصر إستير ما يشبهه من قبل.

"هل هو جميل؟"

قالت إستير "نعم". لكنّها لم تحب هذا الحجر المعتم. كان له بريق عجـــيب، مخـــيف قليلا. رأت أنّه مثل الحرب، مثل البيانو الذي أخذه الدركـــيون مـــن بيت السيّد فيرن. لم تقل شيئا، بيد أنّ راشيل فهمت وأعادت الخاتم إلى الجيب بسرعة.

سألت راشيل: «ماذا ستفعلين عندما تنتهي الحرب؟»، وأردفت قبل أن تجد إستير متسعا من الوقت للتفكير:

"أنا أعرف ما سأفعله، أريد أن أعزف مثل السيّد فيرن، أعزف على البيانو، أغني. أذهب إلى المدن الكبرى، إلى فيينا، إلى باريس، إلى برلين، إلى أمريكا، إلى كل مكان."

أشعلت سيجارة أخرى، وإذ كانت تتحدث نظرت إستير إلى جانبيّتها الموشاة بشعرها الأحمر المضيء، نظرت إلى ذراعيها ويديها اللتين بأظافر طويلة. أحست إستير بالدوران، ربّما بسبب دخان السيجارة أو بسبب الشمس.

تحدثت راشيل عن السهرات في باريس، في فارسوفيا، في روما، كأنّها عرفت كل ذلك فعلا، وإذ تحدثت إستير عن موسيقى السيّد فيرن غضبت راشيل فجأة. قالت إنّه عجوز أحمق، متشرد ببيانو في المطبخ.

لم تعترض إستير حتى لا تشوّه صورة راشيل، جانبيّتها الدقيقة وهالة شعرها الأشقر. حتى تبقى بمحاذاتها مطولا وتستنشق رائحة سيجارتها. لكنّ سماعها تتحدث بتلك الطريقة أمر محزن، مثل التفكير في بيانو السيّد فيرن في وحدته بقاعة الفندق الكبرى في محطة النهاية المليئة بالدخان، مع الدركيين وهم يشربون الخمر ويلعبون الورق. يذكّر هذا بالحرب، بالموت، بالصورة التي تعود باستمرار إلى ذهن إستير، بوالدها الذي يسير في الحقول الكبرى، بعيدا عن القرية، يختفي وكأنّه لن يرجع ثانية.

عندما أنهت راشيل سيجارتها الانجليزية ألقت بالعقب في عمق الوادي ونهضت وهي تمسح مؤخرتها بيدها، ورجعتا معا دون أن تتكلما، عادتا إلى القرية حيث ينبعث الدخان من المداخن إيذانا بالغداء.

وصل أغسطس. تمتلئ السماء حاليا، وكل مساء، بسحب بيضاء أو رمادية وتصعد راسمة أشكالا مثيرة. منذ وقت طويل أصبح والد إستير يذهب في الصباح الباكر مرتديا كنزته المخملية الرمادية وفي يده محفظة تلميذ، المحفظة نفسها التي كان يحملها سابقا عندما يذهب لتدريس التاريخ والجغرافيا في الثانوية بمدينة نيس.

كانت إستير تنظر بقلق إلى وجهه المتوتر المعتم، يفتح باب الشقة، إلى أسفل الزقاق الذي لا يزال مظلما، ثم يستدير ليقبّل ابنته. سألته إستير ذات يوم: «إلى أين تذهب؟» فأجابها ببرودة: «أذهب لرؤية الناس." ثم أردف: "لا تطرحي علي أسئلة يا إستيرليتا، لا يجب الحديث عن هذا أبدا، هل فهمت؟».

كانت إستير تعلم أنّه يذهب لمساعدة اليهود في عبور الجبال، لكنّها لم تطلب أي شيء، لهذا كان الصيف مرعبا رغم جمال السماء الزرقاء، رغم حقول العشب الكبيرة، رغم غناء الجراد وصوت الماء على حجارة السيول.

لا تستطيع إستير البقاء في مكانها بالشقة ولو دقيقة واحدة، تقرأ على وجه أمها قلقها الشخصي، الصمت، ثقل الانتظار، وبمجرد أن تشرب طاسة الحليب الساخن لفطور الصباح، تفتح باب الشقة وتصعد الأدراج باتجاه الشارع.

تكون خارج البيت عندما تسمع صوت أمها ينادي: «هيلين؟هل خرجت؟»، لا تناديها أمها إستير أبدا عندما يمكن سماعها من الخارج. في أحد الأماسي سمعت إستير والدها في السرير بغرفتها المظلمة متذمرة من قضاء إستير كل وقتها في التسكع، فأجاب والدها ببساطة: "اتركيها: قد تكون الأيام الأخيرة."

من وقتها بقيت تلك الكلمات في بالها: الأيام الأخيرة... إنّها هي التي تجذبها نحو الخارج، دون مقاومة، هي التي تجعل السماء بهذه الزرقة،

والـــشمس بهـــذا الألـــق، والجبال وحقول العشب بهذا السحر، بهذه الجاذبية.

تتحـــيّن إستير الضوء منذ الفجر من خلال فراغات الورق المقوّى الـــذي يسدّ نافذة المنفذ، تسمع الزقزقة القصيرة للعصافير التي تناديها، سقسقة طيور الدوري: الأصوات الحادة لطيور السمّام التي تدعوها إلى الخارج.

عـــندما تستطيع في النهاية فتح الباب والخروج إلى هواء الشارع الـــبارد مـــع الجدول المثلج الذي يجري وسط الألواح، تشعر بانطباع غـــريب تجـــاه الحرية، بسعادة لا حدّ لها. بمقدورها الذهاب إلى أواخر بيوت القرية ورؤية الوادي المديد، الأوسع في ضباب الصباح. وتنمحي كلمات أبيها.

تـــبدأ وقتـــئذ في الجري في أعلى الوادي، دون أن تحذر الأفاعي، تـــصل إلى حيث يقود الدرب إلى أعلى الجبل، إلى هناك يذهب أبوها باتجاه المجهول كلّ صباح.

كانـــت عيناها مأخوذتين بضوء الصباح وهي تريد رؤية الأسنام، جـــبل أشـــجار الأرزيـــة، الأجراف، المنحدرات الخطيرة. تسمع في الأسفل، في عمق الوادي، أصوات الأطفال في الجدول، كانوا يتسلّون بصيد القشريات في ماء السيل البارد وسيقانهم نصف مغروسة في حفرة السيل الرملية.

سمعـــت إســـتير بوضـــوح ضحكات البنات ونداءاتهن الصرارة: «ماريـــز! ماريز!...»، استمرت في التقدم نحو حقل الأعشاب إلى أن خفتت الأصوات والضحكات ثم اختفت وتلاشت.

هـــناك في الجهة الأخرى من الوادي منحدر الجبل المعتم وكرات الحجـــارة الحمراء المزروعة بالأدغال الشائكة. بدأت الشمس تلهب في

حقل العشب، وكانت إستير تشعر بالعرق يتصبب على وجهها وتحت ذراعيه. وبعيدا، في مأمن بعض الكتل الصخرية، لا ريح ولا نفس ولا حركة، إنّه ذلك الصمت الذي جاءت تبحث عنه.

تشعر إستير بالراحة عندما لا تجد أي أثر للإنسان، ما عدا صرير الحــشرات الحــاد، ومن حين إلى آخر الصوت الخاطف لقبّرة واهتزاز العــشب. تــستمع إلى نبضات قلبها السريعة، تستمع أيضا إلى صوت الهواء الخارج من منخريها. إنّها لا تعرف لماذا تحب هذا الصمت. كان رائعا، لا غير، وكان ضروريا.

وشــيئا فــشيئا يزول الخوف، ضوء الشمس، السماء حيث تبدأ الغــيوم في النفخ، وحقول العشب الكبيرة حيث يبقى الذباب والنحل معلقــا في الضوء، أسوار الجبال المعتمة والغابات. بمقدور كل هذا أن يبقى، أن يستمر، لن يوقفه أحد.

أرادت إستير ذات مرّة أن تدّل أحدهم على هذا المكان، على هذا السر. أخذت غاسباريني عبر الأعشاب، إلى الكتل الصخرية، من حسن الحظ أنّ غاسباريني لم يتحدث عن الأفاعي، ربّما فعل ذلك ليثبت أنّه لم يخــف، ولكنّ، عندما اقتربا من الكتل، قال غاسباريني بخفة: «الأمر ليس جيّدا ها هنا، سأنــزل.» ثم عاد مسرعا، بيد أنّ إستير لم تغضب، تفاجــأت فقط عندما فهمت لِمَ هرب الولد بسرعة. هو لم يكن بحاجة إلى أن يعــرف بأنّ كل هذا سيدوم، بأنّ كل هذا يجب أن يستمر يوما بعد يوم، لمدة سنوات وقرون، وأنّه ليس بمقدور أحد إيقافه.

ليــست حقــول الأعشاب ذات الأفاعي هي التي تخيف إستير، الحــصاد هو الذي كان يرعبها. كانت سنابل القمح مثل الأشجار التي تفقــد أوراقها. لقد عادت إستير مرّة إلى الحصاد، إلى الجهة التي ذهبت إليها مع غاسباريني، في أسفل الوادي، قرب روكبيليير.

تكـــاد الحقول اليوم أن تكون محصودة عن آخرها. تفرق صف الـــرجال المسلحين بمناجلهم الكبيرة البرّاقة. لم تبق سوى بعض الفرق المعـــزولة. كانـــوا يحـــصدون في أعلـــى الحقول، بجانب الربوة، على المرتفعات الضيقة.

الأطفال يربطون الحزم الأخيرة، النساء والأطفال الفقراء يهيمون بين سيقان الحبوب، لكنّ أكياسهم بقيّت فارغة.

مكثت إستير جالسة على المنحدر تتأمل الحقول المنتوفة، لم تفهم لماذا تشعر بذلك الحزن، بذلك الغضب، مع أنّ السماء زرقاء والشمس تسطع فوق سيقان الحبوب.

جـــاء غاســـباريني لـــيجلس قربها. لم يتكلما، كانا ينظران إلى الحاصـــدين وهم يتقدمون على طول المرتفعات. كان غاسباريني يحمل قبـــضة مـــن السنابل، وكانا يقضمان حبوب القمح ويتذوقان طويلا السائغ الحامز.

لم يعد غاسباريني يتحدث عن الحرب واليهود، كان يبدو منقبضا وقلقا، كان ولدا في الخامسة أو السادسة عشرة، بيد أنّه عريض وقوي مثل رجل، تحمر خداه بسهولة مثل خدود الفتيات.

تـــشعر إســـتير أنّهـــا مختلفة عنه، ومع ذلك فإنّها تحبه، وإذ يمر أصدقاؤها في الطريق، على طول الحقول، يسخرون منه، أمّا هو فينظر إليهم حانقا ويهّم بالنهوض، كأنّه يريد ضربهم.

قـــدم غاســـباريني مرّة إلى بيت إستير باكرا جدا ليلتقي بها. نـــزل السلم الصغير في أسفل الشارع وطرق الباب. والدة إستير هي التي فتحت الـــباب. تأملـــت لحظة دون أن تفهم، ثم تعرفت إليه وأدخلته إلى المطبخ. كانت تلك أوّل مرّة يدخل إلى بيت إستير. تأمّل من حوله، الغرفة الضيقة المعتمة، الطاولة الخشبية والمقاعد، المدفأة المعدنية، القدور المرتبة على اللوح.

وعـــندما قدمت إستير كادت أن تنفجر ضحكا وهي تراه خجلا أمام الطاولة ونظراته مثبتة على غطائها، وكان يطرد الذباب بظهر يده من حين إلى حين.

أحضرت إليزابيث زجاجة عصير الكرز الذي أعدته في الربيع، شرب غاسباريني كأس العصير وأخرج من جيبه منديلا لمسح فمه. دام الـــصمت في المطـــبخ طويلا، وفي الأخير صمّم على الكلام بصوت أجـــش: "أريـــد أن أطلب الإذن لأخذ هيلين هذا الجمعة إلى حفلة بالكنيسة".

كـــان ينظـــر إلى إســـتير وهـــي واقفة أمامه، كأنّها قادرة على مساعدته. سألت إليزابيث، "أية حفلة؟"، ، "إنّها حفلة السيّدة العذراء، يـــوم الجمعـــة"، وشرح غاسباريني: "ستعاد السيّدة العذراء إلى الجبل، ستترك الكنيسة".

التفتت إليزابيث نحو ابنتها: "طيّب، أعتقد أنّك أنت التي تقررين". فقالـــت إســـتير بجّـــد: "سأذهب إن كان والداي موافقين"، وقالت إليزابيث: "سأسمح لك، لكن، عليك أن تستشيري أباك."

أقـــيم الحفـــل يـــوم الجمعة كما كان منتظرا، أعطى الدركيون المـــوافقة، وفي الـــصباح بدأ الناس يفدون إلى الساحة الصغيرة المقابلة للكنيسة. أشعل الأولاد الشموع في الكنيسة وعلقوا باقات الورد. كان هـــناك بخاصة نساء ورجال مسنون لأنّ أغلب الرجال كانوا مسجونين ولم يعـــودوا مـــن الحرب. لكنّ الفتيات جئن بفساتين الصيف، ثياب مقوّرة وسيقان عارية وأحذية من القماش ووشاح على الشعر.

جـــاء غاسباريني للبحث عن إستير، كان يرتدي طقما، سروال غولـــف رماديا فاتحا ملكا لأخيه الأكبر، ولم يحصل أن لبسه إلا في يوم القربان العلني.

كانـــت تلك أول مرّة يرتدي ربطة عنق حمراء. ابتسمت والدة إســـتير ابتسامة ساخرة من الفلاح الصغير الذي يرتدي أجمل الثياب، لكنّ إستير نظرت إليه مؤنبة.

صـــافح والـــد إســـتير غاسباريني وقال له كلمات لطيفة. كان غاسباريني مأخوذا بالقامة الطويلة لوالد إستير، إضافة إلى أنّه أستاذ، وإذ طلبت إستير الإذن من والدها قال دون تردد: "نعم، من المهمّ الذهاب إلى الحفل". قال ذلك بنبرة جادة أدهشت إستير.

لقد فهمت الآن وهي ترى الكنيسة مكتظة لماذا كان ذلك مهمّا. جاء الناس من كل الجهات، قدموا حتى من جهات الجبال المعزولة، من حظائـــر بوريون وحظائر موليير، وكان الدركيون في الساحة الكبيرة، يتأملون مرور الحشد قدام فندق محطة النهاية حيث رفع العلم.

بـــدأ الحفل حوالي العاشرة، دخل الحاخام المعبد متبوعا بجزء من الحشد، وكان هناك في الوسط ثلاثة رجال ببدلات زرقاء داكنة، همس غاســـباريني في أذن إستير: "أنظري، هذا ابن عمي." تعرفت إستير إلى الـــشاب الذي كان يحصد القمح في الحقل، قرب روكبيليير. «عندما تنتهي الحرب سيأخذ العذراء إلى الأعلى، إلى الجبل.»

كانـــت الكنيسة طافحة و لم يستطع الأطفال الدخول، وإذ ابتدأ الجرس في الرنين ظهرت حركة الحشد وبرز الأشخاص الثلاثة حاملين التمـــثال، لأول مرّة ترى إستير تمثال العذراء. كانت امرأة صغيرة ذات وجه بلون الشمع، وكانت تحمل بين يديها رضيعا له نظرة غريبة شبيهة بنظرة رجل.

كان التمثال يرتدي معطفا كبيرا من الساتان الأزرق، وكان يلمع تحت الشمس. وكانت العينان تلمعان أيضا، عينان سوداوان وسميكتان مثل جلد الحصان.

ابتعد الحشد ليعبر التمثال الذي كان يتمايل على الرؤوس، وعاد الرجال الثلاثة إلى الكنيسة، وسمعت في الجلبة لازمة سلام ملائكي، "عندما تنتهي الحرب، سيذهب ابن عمي مع الآخرين، سيأخذون التمثال إلى المحراب في الجبل."

كان غاسباريني يردد ذلك بنوع من نفاد الصبر، ومع انتهاء الحفل ذهب الجميع إلى الساحة على أطراف البنان. حاولت إستير رؤية الدركيين الإيطاليين. كان زيّهم العسكري يكوّن بقبعة عجيبة في ظلّ الزيزفون، والحال أنّ إستير كانت ترغب في مشاهدة راشيل.

كان اليهود المنعزلون قليلا ينظرون بدورهم، يمكن مشاهدتهم من بعيد بسبب ثيابهم السوداء وقبعاتهم وثياب النساء الرثة والوجوه الشاحبة، ورغم حرارة الشمس المتقطعة فقد حافظ الشيوخ على القفاطين. كانوا ينظرون وهم يداعبون لحاهم دون أن ينبسوا. وكان الأطفال اليهود لا يندمجون مع الحشد المحتفل، يظلّون قرب آبائهم دون حراك.

أبصرت إستير فجأة ترستان، كان في طرف الساحة مع الأطفال اليهود. لم يكن يتحرك، كان ينظر، وكانت تعابير وجهه غريبة، تكشيرة جمّدتها الشمس.

أحست إستير بالدم يتدفق تحت جلدها، تخلصت من يد غاسباريني ومشت طولا باتجاه ترستان. كان قلبها يدق بقوة، اعتقدت أنّ ذلك من القلق، "لماذا تنظر إليّ دائما؟ لماذا تحرسني؟ ابتعد قليلا." ولمعت عيناه الزرقوان الداكنتان، لكنّه لم يجب، "اتركني وشأني!ارح تلعب، اتركني، لست أخي!".

سمعت إستير غاسباريني يناديها: "هيلين! تعالي، إلى أين أنت ذاهبة؟" كانت نظرة ترستان تعبّر عن قلق كبير، ما جعلها تتوقف

لحظـــة، لان صـــوتها وقالت: "سأعود، معذرة، لا أدري لم قلت لك هذا؟"

اخترقت الجمع مطأطئة الرأس دون أن ترد على غاسباريني. ابتعدت الفتـــيات للسماح لها بالعبور، بدأت تنـــزل شارع الجدول الخالي حاليا، لكنّها لا تريد العودة إلى بيتها، لا ترغب في الإجابة على أسئلة أمها.

وبعـــيدا عن الساحة سمعت الأصوات البشرية تكبر، الضحكات، الـــنداءات، وفوق الجميع كان هناك ما يشبه الطنين، إنّه صوت القس يردد: سلام، سلام، سلام، ملائـــ.ئـــ.ئكي.

عـــادت إســـتير إلى الساحة مع نهاية الظهيرة، لقد ذهب أغلب الناس، وكان هناك في جهة أشجار الزيزفون فتيان وفتيات، ولما اقتربت إستير سمعت صوت موسيقى الأكورديون. كانتَ هناك وسط الساحة، قريبا من الجدول، نساء يرقصن مع بعضهن، أو مع فتيان صغار يصلون إلى أكـــتافهن، وكـــان الجنود الإيطاليون واقفين أمام الفندق يدخنون ويستمعون إلى الموسيقى.

كانت إستير تبحث عن راشيل، سارت الآن ببطء باتجاه الفندق، وكـــان قلبها ينبض، نظرت إلى ناحية القاعة الكبيرة ورأت من خلال الباب المفتوح الجنود والدركيين. وكان على بيانو السيّد فيرن أسطوانة تدور ترسل موسيقى مازوركية بطيئة وخنّة.

النـــساء في الخارج يدرن حول أنفسهن، وكانت وجوههن تلمع تحـــت الـــشمس. عبرت إستير أمامهن، أمام الأولاد، أمام الدركيين واقتربت من باب الفندق.

الشمس في أسفل السماء تضيء الغرفة الكبيرة من خلال النوافذ المفـــتوحة على الحديقة. كانت الشمس تؤلم إستير، تصيبها بالدوران، ربّما بسبب ما قاله أبوها. يجب أن ينتهي كل شيء.

عندما دخلت إستير إلى القاعة أحست بارتياح، بيد أنّ قلبها استمر في الخفقان في صدرها بقوة. وأبصرت راشيل. كانت مع الجنود المزينين بالريش وسط القاعة التي وضعت طاولاتها وكراسيها لصق الجدار، وكانت ترقص مع موندوليني. كانت هناك نساء أخريات، غير أنّ راشيل هي الوحيدة التي كانت ترقص والأخريات يتأملنها وهي تقوم بحركات نصف دائرية بفستانها الفاتح الذي يرتفع كاشفا عن ساقيها الرشيقتين. وكان زندها العاري يستند قليلا إلى كتف الجندي.

كان الدركيون والجنود يتوقفون أمامها من حين إلى حين، وكان على إستير أن تقف على البنان كي تراها. لم تسمع إستير صوتها بسبب الموسيقى، لكنّها تخيّلت أنّها تسمع أحيانا تعجبا، قهقهة. لم يحدث أن رأت راشيل بذلك الجمال، ربّما شربت بشكل مقبول، لكنّها كانت من ذلك النوع من الناس الذين يتحكمون في سكرهم.

كانت تقف مستقيمة فحسب، تدور وتدور على إيقاع موسيقى المازوركا، وكان شعرها الأحمر القاتم يكنس ظهرها. عبثا حاولت إستير التقاط صورتها، كان وجهها الباهت مائلا إلى الخلف، لقد ذهبت بعيدا، إلى عالم آخر، أخذها صخب الموسيقى والرقص.

كان الجنود والدركيون ملتفتين نحوها، ينظرون إليها وهم يدخنون ويشربون، وكانت إستير تتوهم أنّها تسمع ضحكهم. توقف الأطفال أمام الباب محاولين الاستطلاع وانحنت النساء لرؤية الطيف الواضح الذي يرقص في القاعة الكبرى. التفت الدركيون وقتئذ إلى الخارج، كانوا يقومون بحركات جعلت الجميع يبتعدون. بقي الشباب في الخارج حياديين في الساحة، في الجهة الأخرى من الجدول. لا أحد يهتم بالأمر، وذاك ما جعل قلب إستير يخفق، كانت تشعر بأنّ الأمر غير طبيعي، وبأنّ هناك في جهة ما، ما يشبه الوهم. الناس يتظاهرون

بعـــدم رؤية شيء، ولكنّهم كانوا يفكرون في راشيل، إنّهم يمقتونها في أعماقهم، أكثر من كراهيتهم الجنود الإيطاليين.

لم تـــتوقف الموسيقى بصوتها الأغن، البولكا، تحت إيقاع السيّد فيرن، الصوت المخنوق للشبّابة الذي يضيع في الهواء.

عـــندما غـــادرت إستير الفندق توقف غاسباريني أمامها. كانت عيناه تلمعان غضبا، «تعالي نتجول»، هزت إستير رأسها، نـــزلت مع الـــزقاق إلى الجهـــة الـــتي يمكن منها رؤية الوادي، كانت تريد البقاء وحدها، ألاّ تسمع الموسيقى والأصوات.

في لحظة ما أمسك غاسباريني بمعصمها وجذبها نحوه بشكل أخرق وكأنّـــه يـــريد أن يرقص، كان وجهه أحمر من الحرارة، وكانت ربطة العنق تضايقه، مال على إستير وأراد تقبيلها. شمّت إستير رائحته، رائحة ثقيلة أشعرتها بخوف وجذبتها في الوقت ذاته، رائحة رجل.

بـــدأت في إبعاده أوّلا وهي تردّد: «اتركني وشأني، اتركني!» ثم قاومت بهوس، خدشته ومكث في وسط الطريق لا يريم، وكان الأولاد يضحكون من حوله. قفز ترستان حينئذ إلى رقبة غاسباريني، كان يريد أن يـــتمكن منه، بيد أنّه كان خفيفا وبقيّ معلقا ورجلاه تتأرجحان في الفـــراغ. ألقـــى به غاسباريني أرضا بضربة بسيطة فراح يصرخ: "أيها الحقير الصغير، سأكسر لك رأسك إن أنت كررت هذا!".

شـــرعت إســـتير في الركض عبر الشارع، بأسرع ما يمكن، ثم نـــــزلت مـــع الحقول إلى السيل. توقفت عن الجري واستمعت إلى نبـــضات قلبها في الصدر وفي الحلق. حتى هنا، على مقربة من الوادي، كانـــت تسمع موسيقى الحفل الحزينة النائحة، الشبّابة التي تعيد، دون توقـــف، الجملـــة نفسها على الأسطوانة، في حين كانت راشيل تدوّر موندوليني، وكان وجهها الأبيض الجامد البعيد كوجه أعمى.

كانـــت اللـــيالي سوداء بسبب حظر التجول، وجب إذن جذب ســتائر الــنوافذ وسدّ المنافذ بالخرق والورق المقوّى. يصل المقاومون أحــيانا في الظهــيرة، يجلــسون في المطبخ الضيّق، على المقاعد، حول الطاولات المغطاة بنسيج كتان.

تعــرفهم إستير جيّدا، لكنّها لا تعرف أسماء أغلبهم، بعضهم من القرية وآخرون من الأماكن المجاورة، يذهبون قبل حلول الليل. وهناك مـــن يجيــئون من بعيد، من تيس وكان، موفدو إنياس فينك، غوتمان، وإستير، أبيل، وهناك من يأتون من الأدغال الإيطالية.

وكان من هؤلاء أحدهم تحبه إستير كثيرا، كان ولدا بشعر أكثر شــقرة مـــن شعر راشيل، كانوا يسمونه ماريو. كان يجيء من الجهة الأخــرى مـــن الجــبال حيث الفلاحون والرعاة الإيطاليون يقاتلون الفاشيين. عندما يأتي يكون متعبا جدا فيمكث هنا للنوم على الوسائد أرضا، هنا بالمطبخ. كان يتلهى أكثر مع إستير.

يقــصّ علــيها حكايات عجيبة، نصف كلامه بالفرنسية ونصفه بالإيطالية. كانت له عينان صغيرتان ذات زرقة مثيرة، عينا ثعبان، هكذا كانـــت إســتير تقول في سرها. يحدث أحيانا، عندما يقضي ليلته في المطــبخ، أن يأخذ إستير في الفجر لتتجول حول القرية، دون أن يولي اهتماما لجنود فندق محطة النهاية.

تذهب معه إلى حقول العشب في أعلى الوادي. يدخلان معا إلى الأعــشاب الطــويلة، هو في الأمام وهي تتعقبه من خلال الأثر الذي

يتـــركه في الأعشاب، هو الذي حدثها عن الأفاعي لأول مرّة، لكنّه لم يكن يخافها. كان يقول إنّه يستطيع ترويضها، وحتى القبض عليها، أو مناداتها بالصفير كالكلاب.

أخـــذ إستير في أحد الصباحات بعيدا إلى حقول العشب، إلى ما بعـــد ملتقى السيلين. كانت إستير تسير خلفه، يخفق قلبها وهي تسمع ماريـــو يصفر صفيرا عجيبا، ناعما وحادا، موسيقى لم تسمعها من قبل أبدا.

تكّـــون حرارة الشمس دوامات في الأعشاب، والجبال التي حول الـــوادي تـــشبه أســـوارا عملاقـــة تولد منها الغيوم. سارا طويلا عبر الأعـــشاب مـــع تصفيرات ماريو الناعمة التي تبدو أنّها قادمة من كل الجهات دفعة واحدة وتحدث بعض الدوار.

توقف ماريو فجأة ويده إلى الأعلى، وصلت إستير إلى غاية ظهره دون أن تحـــدث صـــوتا. التفت ماريو نحوها. كانت عيناه الخضروان تلمعان. قال لها مندهشا: «انظري!» عبر الأعشاب على شاطئ الرمل والحـــصبة، وعلى حافة النهر أبصرت إستير أمرا ما لم تتبيّنه، كان من الغـــرابة بحـــيث لم تستطع نظرتها التخلص منه. كان ذلك يشبه حبلا سمـــيكا مـــصنوعا من ساقين قصيرتين مزخرفتين بشكل لولبـــي: لون ورقـــة ميـــتة تسطع تحت الشمس، كأنّنا أخرجناها من الماء في الحين. اقشعرت إستير فجأة: كان الحبل يتحرك وإستير تنظر عبر الأعشاب إلى الأفعى المتشابكة مع الأخرى وهما تنـــزلقان وتلتويان على الشاطئ.

انفصل رأساهما في لحظة ما، خطم قصير، لعينيهما حدقة عمودية، فماهمـــا مفـــتوحان قليلا، ظلّت الأفعيان ملتحمتين تنظران بثبات كما يحـــدث في حالـــة نشوة، ثم راح جسداهما يلتويان على الشاطئ وهما تنـــــزلقان بـــين الحجارة مشكلتين ببطء حلقات جانبية، تتحدان مع

بعـــضهما بعقد تنـــزلقان من الأعلى إلى الأسفل وتنفكان بهزّ ذيلهما مثل سياط.

اســـتمرتا في الانـــزلاق والتدحرج، ورغم ضجة النهر فقد ظنت إســـتير أنّها تسمع صرير القشور على بعضها بعض، سألت إستير باذلة جهدا لتتحدث بصوت خفيض: «هل تتقاتلان؟».

كان ماريو ينظر إلى الحيّتين، وكان وجهه الغليظ كلّه في نظرته، في عينيه الضيقتين المفلوقتين كعيون الثعابين. استدار وقال: «بلى. إنّهما تتزاوجان.» نظرت إستير حينها إلى الحيّتين بانتباه أكبر وهما تنـــزلقان على الشاطئ بين الحجارة، دون أن تنتبها لوجودهما.

استغرق ذلك طويلا، كانت الحيتان ثابتتين أحيانا وباردتين كقطع مـــن الأغـــصان، تضطربان فجأة وتضربان على الأرض بقوة، وكانتا معقـــودتين بدقة بحيث يتعذر رؤية رأسيهما، وفي النهاية هدأ جسداهما وسقط رأساهما كلّ في جهة.

أبـــصرت إستير الحدقة الجامدة الشبيهة بمغتالة والنفس الذي ينفخ جـــسديهما جاعلا القشرة مشعّة. فكّت إحدى الأفعيين العقدة ببطء شـــديد، انـــــزلقت بعيدا بين الأعشاب على طول النهر، وإذ بدأت الأخرى في الزحف شرع روميو يصفر بين أسنانه بطريقته العجيبة وهو لا يكاد يفتح فمه، كان صفيرا دقيقا، خفيفا، وبالكاد يسمع.

عدّل الثعبان رأسه ونظر بثبات إلى ماريو وإستير الواقفين أمامه في وسط الأعشاب. أحست إستير أن قلبها يرتجف تحت نظرتها. ترددت الأفعـــى لحظة. كان رأسها الواسع يكوّن زاوية مستقيمة مع جسدها المستقيم، ثم اختفت في طرفة عين على طول سهل الأعشاب.

عـــاد ماريـــو وإســـتير إلى القرية بمحاذاة الطريق، عبر الأعشاب الطويلة، ولم يقولا شيئا، كانا منتبهين إلى كل ما يوجد تحت قدميهما،

لــــيس إلاّ. وإذ أدركا الطريق سألته إستير: «ألا تقتلها أبدا؟»، ضحك ماريـــو: "نعـــم، نعم، أعرف أيضا كيف أقتلها. أخذ قضيبا صغيرا من حافـــة الطريق، وشرح كيف يجب أن تفعل بضرب الثعبان ضربة قوية علـــى العـــنق، قـــرب الرأس، وسألت إستير مرّة أخرى: «وهل كان بمقـــدورك أن تقـــتلهما هنا؟» تملّك ماريو شعور غريب وأدار رأسه: «هنا، لا، لا أستطيع، كان قتلهما أمرا مؤلما.»

لأجل هذا تحب إستير ماريو، بدل أن يقصّ عليها مرّة حكايات، قصّ عليها نتفا من حياته. كان راعيا قبل الحرب في جهة فالديبري. لم يـــرغب في الـــذهاب إلى الحرب فاختبأ في الجبل، لكنّ الفاشيين قتلوا خرافه وكلبه، وهكذا التحق ماريو بالمقاومة.

تملك اليوم إستير وثائق مزيّفة. جاء رجال إلى المطبخ مع ماريو في أحـــد الأماسي ووضعوا على الطاولة بطاقات هوية للجميع، لإستير، لأبـــيها وأمها ولماريو كذلك. نظرت إستير مطوّلا إلى البطاقة الصفراء التي تحمل صورة أبيها وقرأت الكلمات المكتوبة:

الاسم: جوفري، اللقب: بيار، ميشال

المولود بتاريخ: 10 نيسان، المكان: مرسيليا (بوش-دو-رون)

المهنة: تاجر

الأوصاف:

الأنف: الظهر: مستقيم

القاعدة: متوسطة

الطول: متوسط

الشكل العام للوجه: طويل

اللون: فاتح

العينان: خضراوان

الشعر: كستنائي

ثم بطاقة أمها باسم: لورا زوجة جوفري، اللقب: مادلين، المولودة بتاريخ 3 شباط 1912 في بونتيفي (موربيون)، بلا عمل، وبطاقتها الخاصة، جوفري هيلين، المولودة بتاريخ 22 شباط 1931 في نيس (ألب ماريتيم)، بلا عمل، الأوصاف: الأنف: الظهر: مستقيم، القاعدة متوسطة، الطول: متوسط، الشكل العام للوجه: دائري، اللون: فاتح، العينان: خضروان، الشعر: أسود.

تحدّث الرجال مطولا حول الطاولة، وكان السراج ينير وجوههم بشكل عجيب. حاولت إستير سماع ما يقولونه دون أن تفهم، كأنّهم لصوص بصدد التحضير لعمل شرير.

نظرت إلى وجه ماريو العريض، إلى شعره الأحمر وعينيه الضيقتين المائلتين، وقالت في سرها لعله يحلم بالأفاعي في سهول العشب، وبالأرانب التي يصطادها بالمصيدة في الليالي القمراء.

عندما كان الرجال يحدثون أباها كان هناك اسم يتردد، اسم لا تستطيع نسيانه لأنّه يرّن جيّدا، مثل اسم بطل في كتب التاريخ التي لدى والدها: أنجيلو دوناتي. أعدّ أنجيلو دوناتي قاربا إلى ليفورن، قاربا كبيرا بشراع ومحرّك يأخذ كل الهاربين وينقذهم، سيعبر القارب البحر ويأخذ اليهود إلى أورشليم، بعيدا عن الألمان.

كانت إستير تنصت إلى هذا وهي ممددة على الأرض، على الوسائد التي يتخذها ماريو سريرا له. غفت وهي تحلم بقارب أنجيلو دوناتي، بالرحلة الطويلة في عرض البحر إلى أورشليم. نهضت إليزابيث حينئذ وأحاطت إستير بذراعيها. سارتا معا إلى الغرفة الصغيرة المقببة حيث يوجد سرير إستير. سألت إستير قبل النوم: «قولي، متى نذهب في قارب أنجيلو دوناتي؟ متى نذهب إلى أورشليم؟»

قبّلتها أمها وقالت لها مازحة بصوت خفيض، وبقلق في الحلق: "هيا نامي، لا تكلمي أيّ أحد عن أنجيلو دوناتي، هل فهمت؟ هذا سرّ"، وقالت إستير: «أصحيح أنّ القارب سيأخذ الجميع إلى أورشليم؟» فأجابت إليزابيث: "صحيح، وسنذهب نحن كذلك، قد نذهب إلى أورشليم."

أبقت إستير على عينيها مفتوحتين في الظلام، كانت تستمع إلى الأصوات التي ترنّ في المطبخ الصغير خفية، وإلى ضحك ماريو، ثم ابتعدت الخطى إلى الخارج وأوصدت الباب. لقد نامت عندما نام أبوها وأمها في السرير الكبير بجوارها وسمعت صوت تنفسهما.

إنّهـــا نهاية الصيف، المطر ينـــزل كل ظهيرة، وهناك خرير الماء الذي يتدفق على السقوف وفي كل القنوات. الشمس تسطع صباحا في أعلى الجبال وإستير تشرب قدح الحليب بسرعة لتخرج. تنتظر ترستان في الساحة قبالة الجدول وينـــزلان مع الأطفال الآخرين وهم يركضون نحو الوادي سالكين طريق الجدول.

عكـــرت الأمطار قليلا ماء بوريون الغزير البارد. يبقى الأولاد في الأســـفل وتصعد إستير مع الفتيات الأخريات إلى غاية الموضع الذي يسيل فيه الشلال بين كتل الحجارة تنـــزعن ملابسهن في الأدغال. تسبح إستير بالسروال التحتي كأغلب الفتيات، بيد أنّ هناك فتيات، مثل جوديت، لا يجـــرؤن على نـــزع لباسهن. ما هو جميل، هو الدخول إلى الماء حيث التـــيار أقوى، والتشبث بالصخور وترك الماء يسيل على كامل الجسد، يضغط على الأكتاف والصدر وينـــزلق على الأرداف والسيقان محدثا صـــوتا مـــستمرا. ننـــسى حينئذ كل شيء. يغسل الماء البارد أعماق الأعماق ويخلّصك من كل ما يزعجك، من كل ما يحرقك.

تحـــدثت جـــوديت، صديقة إستير، (إنّها ليست صديقتها بالمعنى الحقيقـــي، ليست مثل راشيل، لكنّهما كانتا تجلسان معا في قسم السيّد سليغمان) عن التعميد الذي يمحو كل الذنوب، تصورت إستير أنّ ماء الوادي الأملس البارد الذي يتدفق عليك ويغسلك شبيه بذلك.

عـــندما خرجت إستير من الشلال، وبقيت تحت الشمس واقفة على الصخرة المسطحة، أحست بأنّها جديدة، وبأنّ الألم والغضب قد

زالا. ثم نـــــزلن حيث الأولاد. فتشوا عبثا في كلّ ثقوب الشلال بحثا عن السرطانات، وحتى ينتقموا ألقوا بالماء على الفتيات.

جلس الجميع آنذاك على صخرة كبيرة مسطحة في أعلى الشلال، وانتظـــروا وهـــم يـــتأملون الماء. صعدت الشمس إلى السماء الصافية واستضاءت غابة البتولا والكستناء. كانت هناك زنابير هائجة جذبتها قطرات الماء الملتصقة بالشعر والبشرة العارية.

كانـــت إستير منتبهة إلى كل تفصيل، إلى كل ظلّ. تنظر بحيطة تكـــاد تكـــون مؤلمة إلى كل ما هو قريب أو بعيد، خطّ الذرى في السماء، أشجار الصنوبر الكثة في قمم الرّوابـــي، الأعشاب الشائكة، الحجـــارة، الذباب الصغير المعلق في الضوء. صراخ الأولاد، ضحك الفتيات، كل كلمة ترنّ بداخلها بغرابة، مرتين أو ثلاث مرات، مثل نباح الكلاب.

كانوا غرباء، غامضين، غاسباريني بوجهه الأحمر وشعره القصير، كـــتفاه العريـــضتان مثل كتفي رجل، والآخرون، ماريز، آن، برنارد، جـــوديت، هزيلون في ثيابهم المبللة بنظرتهم التي يخبئها ظلّ المحاجر، أو بأشباحهم الهشة النائية في آن واحد.

ترســـتان ليس كالآخرين، كان قليل النباهة، وكانت نظرته دافئة جـــدا، أصبحت إستير اليوم تشده من يده عندما يذهبان للتجول حول القرية، يتظاهران بالحب، ينـــزلان إلى الشلال، تقوده نحو المضيق وهما يثـــبان من صخرة إلى صخرة. ذاك ما كانت تتقنه في الحياة. قالت في سرها: الجري عبر الصخور والقفز بخفة، مع حساب الاندفاع، اختيار المعبر في ربع ثانية.

كـــان ترستان يريد أن يتعقبها، لكنّ إستير كانت سريعة بالنسبة إلـــيه. كانـــت تثب بسرعة بحيث لن يستطيع أحد تعقبها. تقفز دون

تفكــير، القدمان حافيتان والأحذية القماشية في يدها، ثم تقف لتنصت إلى النفس المتسارع للولد الذي لا يقدر على اللحاق بها.

تــتوقف على شاطئ الماء عندما تبلغ أعلى الشلال، تختبئ خلف كــتلة من كتل الصخرة وترصد كل الأصوات، الطقطقات، اهتزازات الحشرات التي تختلط بضجة التيار، تسمع الكلاب تنبح بعيدا، ثم صوت ترستان الذي يناديها: «هيلين! هي- لي- ن...!»

كانت معجبة بعدم الرد، بالبقاء مختبئة خلف الصخرة، لأنّها تشعر وكأنّها مسؤولة عن حياتها وقادرة على تقرير مصيرها. إنّها مجرد لعبة، لكنّها لن تخبر أحدا. من سيفهم هذا؟

وإذ يبحّ ترستان من كثرة الصياح ينــزل مع التيار المائي، ووقتها تتــرك إستير مخبأها، تصعد المنحدر إلى غاية الممر، إلى أن تبلغ المقبرة، هناك تقوم بحركات كثيرة وتصرخ ليبصرها ترستان.

لكــنّها تعــود أحيانا وحدها إلى القرية، تدخل إلى البيت وتلقي بجسدها على سريرها، الوجه لصق الوسادة، وهي تبكي. لم تعد تعرف لماذا.

إنّها نهاية الصيف، الفترة الأكثر التهابا عندما تصبح حقول القمح صــفراء وتختمر الحبوب في أطراف الحقول، مع حرارة لادغة. ذهبت إستير بعيدا، وحيدة، عبرت المنطقة التي يحبس فيها الرعاة بهائمهم شتاء، أكواخ بدائية بلا نوافذ، أقبية شبيهة بمغارات.

ظهــرت الــسحب فجــأة وأطفأت الأضواء، كأنّ يدا عملاقة انفــتحت في السماء. ذهبت إستير بعيدا بحيث اعتقدت أنّها ضاعت، كما في الأحلام عندما يضيع أبوها في تلال الأعشاب الطويلة. لم يكن الإحساس بالضياع في مدخل المضيق، في عمق الجبل المظلم، أمرا مرعبا حقا، لكنّ ذلك يثير قشعريرة بسبب حكايات الذئاب.

حكـــى ماريو عن الذئاب التي تمشي في الثلج شتاء قطعانا خلف قطعـــان، هناك في إيطاليا. كانت تنـــزل إلى الوديان لتختطف الخرفان وصـــغار الماعـــز، والحـــال أنّ ريح المطر هي التي جعلت إستير تحس بقشعريرة.

كانـــت ترى وهي واقفة على صخرة، في أعلى الأدغال، غيوما رماديـــة تلـــبّد منحدرات الجبال وتصعد الوادي ثانية، الحجاب يبتلع الحواجز الحجرية والغابات والكتل الصخرية.

بـــدأت الرياح في الهبوب بقوة، برد قارس بعد حرارة الأعشاب المختمـــرة. شرعت إستير في الركض محاولة اللحاق بأكواخ الرعاة قبل هطول المطر، بيد أنّ القطرات المثلجة السميكة بدأت تضرب الأرض. الحـــياة هـــي التي كانت تنتقم، تستدرك الوقت الذي سرقته إستير في المخابئ، كانت تجري وقلبها يخفق في صدرها بقوة.

الحظـــيرة كـــبيرة مثل كهف، تشكل نفقا طويلا في الجبل، وفي الـــسقف المظلم خفافيش. اختبأت إستير في المدخل نصف المغلق بكتلة من العليق الشوكي وشعرت بالهدوء مع بداية نـــزول المطر.

الـــبرق يـــسطع في الغيوم. بدا الماء يسيل على طول الربوة مؤلفا جـــداول كـــبيرة حمراء. سيذهب السيّد سليغمان قريبا لفتح المدرسة، ســـتكون النهارات أقصر فأقصر، وسيسقط الثلج على الجبال. كانت إســـتير تفكر في هذا وهي تنظر إلى سقوط المطر والجداول الجارية في الأسفل. فكرت بأنّهم ذاهبون إلى شيء آخر لا يعرفونه.

في هذه الأيام، الأيام الأخيرة، لم يعد الناس كما كانوا، أصبحوا يـــسرعون لما يتكلمون ويتحركون. الأطفال بخاصة هم الذين تغيروا. غـــدوا فاقدي الصبر وهائجين لما يلعبون أو يذهبون لصيد السمك في السيل، أو يجرون في الساحة. قال غاسباريني مرّة أخرى: «سيأتي الألمان

قـــريبا ويأخذون اليهود»، قال ذلك كمسلّمة. أحست إستير بانقباض الحلق مجددا، لأنّ ذلك ما سيأتي به الوقت، وذاك ما تريد منعه.

قالت "سيأخذونني أنا بدوري." نظر إليها غاسباريني بانتباه: «إذا كانـــت لـــك وثائـــق مزيفة فلن يأخذوك.» وقال: «هيلين ليس اسما يهـــوديا"، وقالـــت هيلين للتوّ، دون أن تصرخ، وببرودة: "اسمي ليس هيلين، اسمي إستير، اسم يهودي.»

قال غاسباريني: "عليك أن تختبئي إن وصل اليهود." لأولّ مرّة كان مزاجه عكرا، وقال أيضا: "إذا جاء اليهود سأخبئك في مستودع الحصاد."

كان الأطفال في الساحة يتحدثون عن راشيل، وإذ اقتربت إستير أبعدوها بمقابض أياديهم: "اذهبـــي! أنت صغيرة جدا!" غير أنّها كانت تعرف عما يتكلمون لأنّ أخاها البكر كان مع المجموعة.

سمعـــتهم يقولـــون إنّهـــم رأوا المكان الذي يذهب إليه النقيب موندولـــيني مـــع راشيل، إلى هري قديم من جهة الجسر، قرب النهر. الـــساعة منتصف النهار، وبدل أن تذهب إستير لتناول الغداء جرت في الـــشارع إلى غايـــة الجسر، ثم عبر الحقول إلى الكوخ. سمعت إستير لما وصلت نحيب الغربان في السكون وظنت أنّ الأولاد لفّقوا حكاية، وإذ اقتربت من الكوخ القديم رأهم كامنين خلف الأدغال. كان هناك عدة فتيان كبار وفتيات أيضا.

بـــني الكوخ بجهد كبير على سطحين في أسفل الشارع. نـــزلت إســـتير عبر المنحدر دون جلبة، إلى غاية الكوخ، كان هناك ثلاثة شبان ممـــددين علـــى العشب وينظرون إلى وسط الكوخ من خلال ثقب في أعلى الجدار، تحت السقف تماما.

وإذ وصـــلت إســـتير نهـــضوا وبدأوا في ضربها دون أن يقولوا كلمة واحدة. ركلوها ولكموها في الوقت الذي كان أحدهم يشدها من ذراعها.

تتخبط إستير وعيناها ممتلئتان بالدموع، دون أن تصرخ. حاولت أن تشدّ من الرقبة ذاك الذي كان يشدها، لكنّه تراجع وهو يترنح. كان الولد يتراجع وإستير متعلقة برقبته بكل قواها، في الوقت الذي كان الآخرون ينهالون عليها ضربا من جهة الظهر لتطلق سراحه.

سقطت في الأخير على الأرض وعيناها ملبدتان بسحابة دم. صعد الأولاد المنحدر وهربوا مع الطريق. ثم انفتح باب الكوخ ورأت إستير من خلال السحاب الأحمر راشيل تنظر إليها. كانت ترتدي فستانها الجميل الفاتح والشمس تلمّع شعرها كالنحاس. خرج بعدها النقيب وهو يعدّل ثيابه ومسدسه في يده.

انفجر ضحكا إذ أبصر إستير في المنحدر والأولاد هاربين، وقال شيئا بالإيطالية. لحظتها بدأت راشيل في الصراخ بدورها، بصوت غريب حاد فظّ لم تتعرف إليه إستير. صعدت إلى أعلى المنحدر وشعرها يلمع، التقطت حجارة وألقت بها على الأولاد الفارين برعونة، دون أن تتمكن منهم.

كان الألم يمنع إستير النهوض. بدأت صعود المنحدر زاحفة، باحثة عبثا عن ثقب لتختبئ فيه، لإيقاف الخجل والخوف، بيد أنّ راشيل قدمت وجلست قربها، ربتت على شعرها ووجهها وقالت بصوت أجش من فرط الصراخ: «لا شيء يا حبيبتي، انتهى...» بقيتا وقتئذ وحدهما تحت الشمس على منحدر العشب. كانت إستير ترتعد من البرد والتعب، نظرت إلى الضوء في شعر راشيل وشمّت رائحة الجسد، ثم نزلتا إلى السيل وساعدتها راشيل بعناية على غسل وجهها للتخلص من الدم الجاف.

كانت إستير من التعب بحيث اتكأت على راشيل لصعود المنحدر إلى القرية. تمنّت الآن أن تمطر السماء، ألا يتوقف المطر عن السقوط إلى أن يأتي الشتاء.

سمعت إستير بموت ماريو مساء، كانت هناك دقات على الباب ليلا، أدخل والد إستير مجموعة من الرجال، يهوديا اسمه غوتمان ورجلين قدما من لونتوسك. انسحبت إستير من سريرها، واربت باب الغرفة وعيناها مغضنتان بسبب ضوء المطبخ.

بقيت في إطار الباب وهي تتطلع إلى الرجال الذين يتمتمون حول الطاولة، كأنّهم يحدّثون السراج. كانت إليزابيث جالسة معهم، وكانت تنظر هي الأخرى إلى شعلة السراج دون أن تنبس.

فهمت إستير للتوّ أنّ أمرا خطيرا حصل، وإذ خرج الرجال الثلاثة في العتمة أبصرها والدها واقفة بلباس النوم في إطار الباب، قال لها في البداية بنوع من القسوة: «ماذا تفعلين هنا؟ عودي إلى فراشك!» ثم اقترب منها واحتضنها بين ذراعيه، كأنّه ندم على صراخه.

اقتربت إليزابيث والدموع تنزل من عينيها وقالت: «ماريو هو الذي مات.» روى والدها ما جرى، لم تكن سوى كلمات، مع أنّها لم تنته بالنسبة إلى إستير، إنّها حكاية تبتدئ دون توقف، كما في الأحلام.

عندما كانت إستير تنزل الشارع في الظهيرة قاصدة الكوخ المهجور حيث كان لراشيل موعد مع النقيب موندوليني، كان ماريو يمشي في الجبل وحقيبة الظهر مليئة بالقنابل البلاستيكية والمتفجرات الموقوتة والخراطيش للالتحاق بالفريق الذي سيخرب الخط الكهربائي لبورتمون، حيث نصّب الألمان مركز القيادة.

كانت الشمس تسطع على الأعشاب، هناك حيث سارت إستير باتجاه الكوخ المهجور، وفي اللحظة ذاتها كان ماريو يمشي في الحقول وحيدا، في سفح الجبل، ولابدّ أنّه كان يمشي ويصفر للأفاعي كعادته، ينظر إلى نفس السماء مثلها، يسمع أصوات الغربان نفسها. لماريو شعر

أكثر حمرة من شعر راشيل، راشيل الواقفة تحت الشمس بفستانها الفاتح ذي الأزرار المفكوكة من جهة الظهر وكتفاها تسطعان تحت الشمس، كتفان منتعشتان وجذّابتان.

ماريـــو يحب راشيل كثيرا، هو الذي قال ذلك لإستير ذات يوم، وإذ فـــتح قلبه لها علت وجهه حمرة، أي أنّه غدا قرمزيا، ما جعل إستير تنفجـــر ضـــحكا بسبب لون خديه. قال لإستير عندما تنتهي الحرب ســـيأخذ راشيل للرقص يوم السبت، و لم تكن لراشيل الشجاعة الكافية لتصارحه بالحقيقة، لتقول له إنّ راشيل لا تحب الأشخاص الذين مثله، وأنّها تحب الضباط الإيطاليين، وأنّها ترقص مع النقيب موندوليني، وأنّ الـــناس يقولون إنّها مومس، وأنّهم سوف يقصّون شعرها عندما تضع الحرب أوزارها.

كان ماريو بصدد نقل حقيبة المتفجرات إلى الرجال في الدغل، في جهـــة بورتمون. كان يمشي مسرعا عبر التلال للوصول قبل المساء لأنّه كان يريد العودة لينام في سان مارتان هذه الليلة. لهذا استيقظت إستير عندما طرق الباب الرجال الثلاثة، كانت تظن أنّه ماريو.

انـــزلقت إستير بين العشب اليابس باتجاه الكوخ الخرب. كانت راشيل نائمة لصق النقيب في الكوخ الحار الرطب، أما هو فكان يقبلها مـــن فمها وعنقها ومن كل الجهات. الفتيات هن اللائي سردن هذا، لكـــنّهن لم يشاهدن أيّ شيء لأنّ الكوخ كان مظلما جدا. سمعن فقط أصواتا، تأوهات، حفيف الملابس، وإذ انتهى الأولاد من ضرب إستير ركضوا إلى غاية الطريق واختفوا.

بقـــيت تجرّ نفسها على العشب في المنحدر والغيمة الحمراء قدّام عينـــيها، في ذلـــك الوقت بالذات سمعت دويّ الانفجار، بعيدا، بعيدا جدا، في أسفل الوادي. لهذا خرج النقيب من الكوخ ومسدسه في يده،

لأنّه سمع الدويّ. لكنّ إستير لم تنتبه إلى ذلك لأنّ راشيل كانت واقفة في اللحظة نفسها أمام الكوخ، بشعرها الأحمر اللامع مثل قبّة، وكانت تشتم الأطفال وتجلس قرب إستير.

شـــرع النقـــيب في الضحك وذهب في سبيله، في حين جلست راشـــيل علـــى العشب لتداعب شعر إستير. كان هناك دويّ انفجار واحد، وكان من الرعب بحيث أحست إستير بطبلتي أذنيها تنغمسان.

عـــندما وصـــل رجال المقاومة لم يلاحظوا سوى ثقب كبير في العشب، ثقب فاغر بحواف محترقة تفوح بارودا، وإذ بحثوا في الأعشاب المجاورة وجدوا أيضا خصلة شعر أحمر، وهكذا أدركوا أنّ ماريو قضى نحبه، ذاك ما بقي منه. مجرّد خصلة شعر أحمر.

بكت إستير بين ذراعي والدها. شعرت بالدموع تنهمر من عينيها وتسيل على خديها، على أنفها ومعطفها، تنحدر على شكل خيط على قميص أبيها.

أمّـــا هـــو فكـــان يـــتحدث عن ماريو، عن كل ما قام به، عن شـــجاعته، لكـــنّ إستير لم تكن تبكي بسبب هذا. لم تكن تدري لماذا كانـــت تبكـــي، ربّمـــا بسبب تلك الأيام التي قضتها في الجري بين الأعشاب، بسبب تلك الأتعاب، وبسبب موسيقى السيّد فيرن كذلك. ربّمـــا بسبب الصيف الذي كفّ عن اللهب، الحصاد، سيقان الحبوب الـــتي تتعفن، السحب السوداء التي تتراكم كل مساء، وقطرات المطر الباردة التي تولّد الينابيع الحمراء وتحفر الجبل.

كانـــت منهكة جدا، وكانت تريد أن تنام، أن تنسى كلّ شيء، أن تكـــون بعـــيدا، إنسانا آخر، باسم آخر، اسم حقيقي، وليس باسم مختـــرع في بطاقة الهوية. أمها هي التي أخذتها بين ذراعيها وجرّتها ببطء إلى المخدع المعتّم حيث سريرها.

كـــان جبينها ملتهبا وهي ترتعد كأنّ بها حمّى، وسألت بصوت أجش مثير للضحك: "متى يذهب قارب أنجيلو دوناتي؟ متى يأخذنا إلى أورشـــليم؟" غمغمت إليزابيث ما يشبه أغنية: «لا أدري يا حبيبتي، يا حياتي، نامي الآن.»

جلـــست علـــى السرير قرب إستير وداعبت شعرها كما كانت صـــغيرة. "حدثيني عن أورشليم من فضلك." تمتم صوت إليزابيث في هـــدوء الليل، أعاد الحكاية نفسها، الحكاية التي سمعتها إستير مذ بدأت تفهـــم الكلمات، الكلمة السحرية التي حفظتها دون أن تفهمها، مدينة الـــنور، الجـــداول، الـــساحة التي تلتقي فيها كلّ طرق العالم. أرض إسرائيل، أرض إسرائيل.

كان كل شيء عجيبا في أسفل المضيق، جديدا ومقلقا. لم يحدث لترستان أن شعر بذلك من قبل. كلّما صعد السيل تدريجيا غدت الصخور أكبر فأكبر، أكثر فأكثر سوادا، في حالة سديمية، كأنّ عملاقا قذفها من قمم الجبال. الغابة بدورها مظلمة، توشك أن تنحدر إلى حدّ الماء، وفي تجاويف الحجارة يعيش السرخس والعليق متلاحمين، مانعين العبور مثل حيوانات.

تعقب ترستان في هذا الصباح إستير بعيدا أيضا. بقيّ فريق الفتيان والفتيات في مدخل المضيق، في لحظة ما سمع ترستان نداءاتهم، ثم لُفّت أصواتهم بخرير الماء الذي يشلّ بين الصخور.

كانت السماء في أعلى الوادي زرقاء بالكامل، لون مزعج ومتوتر يؤلم العيون. تعقب ترستان إستير داخل المضيق دون أن يناديها، ودون أن يقول شيئا. كانت تلك لعبة، مع أنّه كان يشعر بقلبه ينبض بسرعة، كما لو أنّ ذلك صحيح، كما لو أنّها كانت تلك مغامرة.

يحسّ بضغط الدم في شرايين العنق وفي أذنيه، يحدث اهتزازا غريبا يرنّ في الأرض كذلك، يتّحد مع ذبذبات ماء الشلال، وكان الظلّ في المضيق باردا، وإذ يتنفس ترستان يمزق الهواء أعماقه، يصفر من فتحة في الجبل كما من نافذة.

لهذا كان كل شيء جديدا هاهنا، سحريا ومقلقا. كان مكانا لم يتخيله أبدا، حتى عندما كانت تقرأ له والدته الكتب، **الرحلة الخامسة للسندباد البحري** وقت بلوغه الجزيرة المهجورة أين تعيش الصخور.

ثمّة ألم في أعماقه، دوار، و لم يفهم لماذا. ربّما مردّ ذلك السماء الزرقاء فوق الحدّ، قرقعة الشلال حيث تختبئ كل الأصوات الأخرى، أو بسبب الأشجار السوداء المعلقة في أعلى الوادي.

كان الظلّ باردا في أسفل المنحدر، وكان ترستان يشتمّ رائحة الأرض الغريبة. الأوراق الميتة تتعفن بين الصخور، وتحت قدميه كانت هناك آثار غليان ماء أسود.

كان الفتاة تنسحب أحيانا من أمامه، تثب من صخرة إلى أخرى، تختفي في التجاويف ثم تظهر في النؤى. رغب ترستان في مناداتها، في مناداتها باسمها: «هيلين!» كمّا يسميها الأولاد الآخرون، لكنّه لم يستطع. كانت لعبة. يجب القفز بين الصخور بقلب نابض ونظرة يقظة، البحث عن كل زاوية فيء والكشف عن الآثار.

كلما تمّ صعود الشلال غدت المضيقات أكثر انحسارا. كانت الكتل الصخرية كبيرة، معتمة وقد أبلاها الماء. كأنّ ضوء الشمس بقي حبيسا هناك. بدت في هيئة حيوانات عملاقة، متحجرة وماء السيل يشلّ من حولها.

الحواجز الحجرية للمضيق فوقهما مغطاة بغابة سميكة، سوداء. كان كل شيء متوحشا. زال كل شيء، جرف، غسله ماء الشلال، و لم تبق سوى هذه الحجارة، خرير الماء والسماء القاسية.

التحق بإستير في وسط دائرة من الصخور الداكنة حيث يكوّن ماء الشلال حوضا. كانت مقرفصة على حافة الماء تغسل ساعديها، ثم ما لبثت أن نزعت ثيابها بحركات سريعة وغطست في الحوض، ليس بالرجلين كما تفعل الفتيات عادة، بل بالرأس أوّلا، بعد أن سدّت أنفها.

هزّ ترستان بريق الضوء على جسدها الناصع البياض. بقيّ في أعلى الصخور دون حراك. كان يراقب إستير وهي تعوم، كانت لها

طريقة خاصة في السباحة، ترسل ذراعا فوق الرأس وتختفي في الماء، وإذ وصــــلت إلى الطرف الآخر من الحوض هزت رأسها وأومأت لترستان للّحاق بها.

بعـــد تـــردد نـــزع ترستان ثيابه خلف الصخور برعونة ودخل بـــدوره في المـــاء المثلج. كان السيل ينـــزل ببطء إلى الحوض بإيقاع شلال. سبح ترستان بكل قواه نحو الطرف الآخر وقد ابتلع ماء كثيرا.

هـــناك صـــخرة كبيرة تشرف على المضيق في الطرف الآخر من الحـــوض. خرجت إستير من الماء ونظر ترستان مجددا إلى بريق الضوء على بشرتها البيضاء، على ظهرها وعلى ساقيها الرشيقتين.

هزت شعرها الأسود ناثرة خلفها قطرات الماء. صعدت الصخرة بخفـــة واستقرت تحت الشمس في القمة. استحى ترستان من جسدها العاري وبشرتها البيضاء. صعد ببطء إلى أعلى الصخرة ليجلس بمحاذاة إستير. شعر بجلده يحترق بعد السباحة.

كانت إستير قاعدة في الأعلى ورجلاها تتدليان في الفراغ. نظرت إلـــيه كما لو أنّ الأمر طبيعي. كان جسدها طويلا وعاضلا مثل جسد فتى، وكانت هناك نعومة النهدين والظلّ الخفيف والنبض.

خريـــر الماء السائل يملأ الوادي الضيق إلى حدّ السماء، وما من أحد ســـواهما في هـــذا المضيق، كأنّهما وحيدان في العالم. لأول مرّة في حياته أحسّ ترستان بالحرية، ما جعل كل جسده يهتز، كأنّما اختفت بقية العالم دفعة واحدة و لم تبق سوى هذه الصخرة الدكناء، ما يشبه الجزيرة الصغيرة في أعلى الشلال الموحش. لم يعد ترستان يفكر في السباحة حيث الأطياف الـــسوداء تنتظر تحت المطر قبل دخول فندق نهاية المحطة. لم يعد يفكر في أمه، في وجهها المتوتر الحزين عندما تذهب لتحاول بيع قلاداتها الزهيدة إلى الصائغين لشراء الحليب واللحم والبطاطس.

كانت إستير مائلة إلى الخلف على الصخرة الملساء مغمضة العينين، وكان ترستان ينظر إليها دون أن يجرؤ على الدنوّ منها، دون أن يجرؤ على وضع شفتيه على كتفيها البراقتين ليتذوق قطرات الماء التي لا تزال عالقة ببشرتها.

يمكنه نسيان نظرة الأولاد اللاذعة، كلمات الفتيات التشهيرية في الساحة عندما يتحدثن عن راشيل. أحس ترستان بقلبه ينبض في صدره بقوة. شعر بإشعاع الحرارة في دمه، بكل ضياء الشمس الذي دخل الصخور السوداء وسرى في جسديهما.

جذب ترستان يد إستير، وفجأة، ودون أن يفهم جرأته، وضع شفتيه على شفتي الفتاة. أشاحت إستير بوجهها في البداية، ثم قبّلته، كما لو أنّها تلتقط أنفاسه وتطفئ كلماته، كما لو أنّ عليها التخلص من الخوف الذي تشعر به في هذا العناق، كما لو أنّه لا يوجد شيء، لا من قبل ولا من بعد، ماعدا هذا الإحساس العذب المحرق، ما عدا مذاق ريقها وصوت أسنانهما التي تتصادم، ماعدا النفس المتقطع ونبضات قلبيهما.

كانت هناك دوامة ضوء، ثمل الماء البارد والضوء حدّ الغثيان. أبعدت إستير وجه ترستان بيدها، تمددت على الصخرة مغمضة العينين وقالت: «ألن تتخلى عني أبدا؟» كان صوتها أجشا ومليئا ألما، «أنا الآن مثل أختك، ألن تقول هذا لحد؟» لم يفهم ترستان. «لن أتخلى عنك أبدا.» قال ذلك بوقار أضحك إستير.

وضعت يدها في شعره وجذبت رأسه نحو صدرها. «اسمع يا حبيبي.» بقيت جامدة، ظهرها مسند إلى الصخرة الملساء وعيناها مغمضتان تحت الشمس.

كانت بشرة إستير حارقة لصق أذن ترستان، حارقة كالحمّى، وكان يسمع صوت القلب الأصمّ ويرى السماء الشديدة الزرقة ويسمع قرقعة الماء الذي يشلّ حول جزيرتهما.

كـــان الألمان الآن قريبين جدا. روى غاسباريني أنّه شاهد ذات مساء الرصاصات الخطاطة في جهة بورتمون، قال إنّ الإيطاليين خسروا الحـــرب وأنّهم سيسلّمون أنفسهم. سيحتل حينئذ الألمان كل القرى، كل الجبل. أبوه هو من قال ذلك.

اجـــتمع كـــل الناس هذا المساء في الساحة قبالة الفندق. كانوا يتحدثون فيما بينهم، رجال القرية ونساؤها، وكذلك اليهود، الشيوخ الـــذين يـــرتدون القفاطين والقبعات الكبيرة، ويهود الدارات الأثرياء، والـــسيّد هينـــريتش فيرن، وهناك أيضا والدة ترستان بفستالها الطويل وقبعتها العجيبة.

حين كان الناس يتحدثون عن هذه الأمور المأساوية كان الأطفال يركـــضون كعادهم في الساحة، وربّما قصدوا الركض بسرعة لنسيان قلقهـــم. جـــاءت إســـتير إلى الساحة مع أمها وانتظرتا جامدتين وهما يـــستمعان إلى حـــديث الناس. ليس ذلك ما كان يهمّ إستير. كانت ترقب فندق محطة النهاية بثبات علّها تبصر راشيل.

يقول الفتيان والفتيات إنّ راشيل تنازعت مع أهلها وأنّها تسكن اليوم في الفندق مع النقيب موندوليني، لكن لا أحد شاهدها داخلة أو خارجة. كانت كل مصارع الفندق الخضراء موصدة هذا المساء، ماعدا تلك المطلة على الساحة من الجهة الأخرى.

بقـــي الجنود في الداخل، في القاعة الكبرى يدخنون ويتحدثون. اقتـــربت إستير وسمعت صخب أصواهم. وصل عسكريون آخرون إلى

أسفل الوادي بالحافلات صباحا. قال غاسباريني إنّ الايطاليين أصبحوا يخافـــون منذ ما حصل لماريو، لذا لم يعودوا يجرؤون على الخروج إلى القرية.

مكـــثت إستير جالسة على الحائط بلا حراك وهي ترقب واجهة الفـــندق لأنّها ترغب في رؤية راشيل، وعندما نـــزلت أمها ثانية بقيت جالـــسة في الظلّ. منذ أيام وهي تبحث عن راشيل. ذهبت إلى الكوخ المهجور ودخلت الهري الخرب وقلبها يخفق ورجلاها ترتعشان، كأنّها تقوم بعمل محظور.

انتظـــرت تـــأقلم عينيها مع العتمة. بيد أنّه لم يكن هناك شيء، ماعـــدا كومة الأعشاب التي استعملت مهادا للماشية، وهناك الرائحة الحامزة للبول والعفونة.

أرادت أن ترى راشيل لحظة واحدة. جهزت في رأسها ما ستقوله لها، إنّها أخطأت. لم تأت إلى الكوخ للتجسس عليها، وأنّ كل هذا لا شـــأن له وأنّها تعاركت دفاعا عنها. ستقول بكل ما أوتيت من قوة: «هـــذا غـــير صحيح! هذا غير صحيح!» لتعرف أنّها تصدقها، وأنّها ظلّـــت صـــديقتها، وأنّها تصدقها ولا تصدق ما يقوله الآخرون ولا تـــضحك معهـــم. ستدلها على الآثار الزرقاء التي على أضلاعها، على ظهرها، لذا لم تعد قادرة لا على الكلام ولا على المشي في ذلك اليوم، لأنّها كانت تتألم كثيرا و لم تكن قادرة على الوقوف.

أيـــن كانت راشيل؟ ربّما أخذوها بالسيارة آنفا، في الليل عندما لم يكن بمقدور أحد رؤية شيء، أخذوها بعيدا، إلى إيطاليا، إلى الجهة الأخرى من الجبال، أو أسوأ من ذلك، إلى الشمال حيث يسجن الألمان اليهود.

كـــان الـــناس هذا المساء في الساحة يذهبون ويجيئون ويتحدثون بكل اللغات، ولا أحد يهتم براشيل. يتظاهرون بأنّهم لم يلاحظوا شيئا.

ذهبت إستير إليهم لتسألهم الواحد تلو الآخر: «هل شاهدتم راشيل؟ ألا تعرفون أين راشيل؟»، لكنّهم أداروا رؤوسهم منزعجين، تظاهروا بأنّهم لم يعلموا و لم يفهموا. حتى السيّد فيرن لم يقل شيئا، لوّى رأسه دون أن ينبس، كان هناك خبث كبير وغيرة، لهذا خافت إستير وتألمت.

بقيت مصارع الفندق مغلقة، و لم تستطع إستير أن تتخيل ما هو موجود في الغرف الحزينة المظلمة كالمغارات، ربّما كانت راشيل محتجزة في إحداها، وأنّها تنظر من خلال الشقوق إلى الناس وهم يذهبون ويجيئون في الساحة، ربّما تراها الآن ولا تريد الخروج لأنّها تعتقد أنّها مثل الأخريات، تختبئ في الأعشاب للتجسس عليها وتضحك مع الآخرين. التفكير في هذا يشعرها بالدوار.

نزلت إستير في الضوء الخافت إلى أسفل القرية، هناك حيث يُبصر الوادي المضاء بنوع من الضباب الخفيف وظلال الجبال العالية.

في اليوم التالي كان هناك صوت موسيقى في أسفل الساحة، من جهة دارة التوتة، جرت إستير بكل قواها. في الطريق المنحدر، قدام السياح، توقفت مجموعة من النساء، وأطفال كذلك.

صعدت إستير الجدار متشبثة بالسياج، ومن مكانها، من تحت ظلّ الشجرة، شاهدت السيّد فيرن جالسا في المطبخ أمام البيانو الأسود. «لقد جلبوه! أعادوا البيانو إلى السيّد فيرن!» أرادت إستير إذاعة الخبر وهي تلتفت نحو الناس. كان التعبير ذاته على كافة الوجوه. وشيئا فشيئا تجمعوا في الساحة لسماع السيّد فيرن يعزف على البيانو، صحيح أنّه لم يعزف أبدا مثل هذا. كانت النوتات تحلّق من خلال باب المطبخ المعتم وتصعد إلى الفضاء الساكن، تملأ كل الشارع وكلّ القرية. يبدو أنّ البيانو الذي مكث وحيدا لفترة طويلة أصبح يعزف وحده. تنساب الموسيقى، تطير وتلمع.

تستمع إستير المتشبثة بالسياج في ظلّ التوتة، وبالكاد تتنفس بسبب سرعة النوتات التي تخرج وتملأ جسدها وصدرها. فكرت بأنّه يمكن أن يتجدد كل شيء الآن كما، كان عليه من قبل. يمكنها أن تجلس مجددا بمحاذاة السيّد فيرن وتتعلم كيف تجعل أصابعها تنزلق على الملامس، تقرأ الموسيقى على الصفحات التي يعدّها. فكرت بأن لا شيء ينقضي بعودة بيانو السيّد فيرن.

سيكون كل شيء بسيطا، لن يخاف الناس مرّة أخرى، لن يسعوا إلى الانتقام، ستمشي راشيل في الشوارع مجددا لتتبضع لوالديها، ستذهب إلى الساحة، وسيلمع شعرها الذي كالنحاس الأحمر تحت الشمس، وفي الصباح ستنتظر إستير قرب النافورة وستذهبان معا لتجلسا تحت ظلّ شجر الدلب وتتحدثان. ستقص ما ستفعله لاحقا، عندما تنتهي الحرب. ستصبح مغنية في فيينا وروما وبرلين. كانت موسيقى السيّد فيرن هكذا: تُوقف الزمن، كما أنّها تجعلك تمشي بشكل معكوس. وإذ انتهى السيّد فيرن من العزف ظهر على عتبة المطبخ، تطلّع إلى الجميع بعينيه اللتين ترفان بسبب ضوء الشمس، وبعثنونه الذي كان يضطرب.

كانت سحنته غريبة، كما لو أنّه ينوي البكاء. خطا خطوة أو خطوتين في الحديقة باتجاه الناس الذين توقفوا ليقول لهم: شكرا أصدقائي، وشرع الناس في التصفيق، بعض الرجال والنساء الذين كانوا في الشارع في بداية الأمر، ثم الجميع، حتى الأطفال. وكانوا يصرخون أيضا مهللين به. صفقت إستير بدورها، فكرت بأنّ ذلك شبيه بما مضى في فيينا، لما كان السيّد فيرن يعزف أمام سادة بالفراك وسيّدات بلباس السهرة، يوم كان شابا.

كان يوم جمعة عندما دخلت إستير لأوّل مرّة إلى الكنيسة في أعلى القرية، هناك حيث أقيم حفل السبت. الشيء نفسه في كل جمعة: كان

الـــسيّد يعقوب، مساعد الحاخام الشيخ إيزياك سالنتر يذهب من بيت إلى بـــيت ويطرق على الباب عندما يعرف أنّ اليهود يسكنون هناك. يدق على باب إستير دائما، لكن لا أحد يذهب إلى الكنيسة، لأنّ أمها وأباها لا يؤمنان بالعقيدة.

وإذ ســـألت مرّة لم لا يذهبون إلى المنـــزل الخشبـــي للكنيسة، أجابها أبوها ببساطة: «إن كنت ترغبين في الذهاب فأنت حرّة.»، كان يعتقد دائما أنّ الدين مسألة حرية.

ذهبت عدة مرات أمام الكوخ الخشبـــي في الوقت الذي كانت النـــساء والفتيات يدخلن لتحضير الكنيسة، أبصرت الأضواء تشعّ من خـــلال الباب المفتوح وسمعت هدير الصلوات. إنّها تشعر اليوم، أمام الباب المفتوح بالقلق نفسه.

النـــساء اللائي يرتدين الأسود يعبرن أمامها ويدخلن القاعة دون النظـــر إلـــيها. تعـــرفت إلى جودير، تلك التي كانت تجلس معها في المدرســـة، كانـــت تلـــف رأسها بخمار، وإذ ولجت الكوخ مع أمها استدارت نحو إستير وأشّرت لها.

رابطـــت إســـتير فترة طويلة واقفة في الجهة الأخرى من الشارع وهـــي تنظر إلى الباب المفتوح، وفجأة، ودون أن تفهم لماذا، مشت إلى غايـــة الـــباب ودخلت الكوخ. كان الجو معتما في الداخل مثل مغارة بسبب قدوم الليل. سارت إستير إلى أقرب حائط كما لو أنّها تريد أن تختبئ. كانت النساء واقفات أمامها، ملتحفات بخماراتهن السوداء دون أن يعرنها اهتماما، ماعدا فتاة أو اثنتان استدارتا.

كانـــت عيون الأطفال السوداء تلمع بعناد في العتمة، ثم جاءت إحـــدى الفتاتين نحوها، اسمها سيسيل، كانت هي الأخرى في مدرسة الـــسيّد سليغمان، أمسكتها من يدها وأخذتها إلى وسط الغرفة. ذهبت

إســتير إلى الأمام، هناك حيث تجتمع الفتيات الأخريات، أحست أنّها على أحسن ما يرام مذ اختبأت وسطهن.

النــساء ينشطن كثيرا حول السيد يعقوب، يحضرن المنضدة، يحضرن الماء وينصبن الشموع المذهبة. بدأ النور يلمع فجأة في جهة ما من جهات الغرفة فاستدارت نحوه كل الأنظار. برزت نجوم من الأنوار المتعاقبة، مرتجفة في الــبداية، موشكة على الانطفاء، ثم استقرت مرسلة أشعة طويلة. كانت هناك نسوة يذهبن من مشكاة إلى أخرى وشمعة في اليد، وكان النور يكبر.

وكانــت هناك، في الوقت نفسه، ضوضاء أصوات شبيهة بأغنية غامــضة. أبــصرت إســتير الناس الذين دخلوا الكوخ، رجال ونساء يتوســطهم الحاخام الشيخ إيزيك سالنتر. ذهبوا إلى وسط القاعة، أمام الأضواء وهم يتكلمون بلغتهم الغريبة.

كانت إستير تتأمل مندهشة خماراتهم البيضاء النازلة على جوانب الوجه، وكلمّا دخلوا كبر الضوء وغدت الأصوات أكثر قوة. إنّها الآن تغني وترد عليها النسوة المرتديات الأسود بأصوات أكثر عذوبة. كانت الأصوات المتناوبة داخل القاعة تحدث صوتا مثل صرير الريح أو المطر، يخفــت تدريجــيا ثم يــرنّ بقوة ما بين الحيطان الضيقة، جاعلا أضواء الشموع تترنح.

كانــت الفتــيات والبنات الصغيرات من حولها يرددن الكلمات الغامــضة، وجوههن باتجاه الأضواء وهن يرنّحن أجسادهن إلى الأمام وإلى الخلف.

اخــتلطت رائحة مصّالة الشموع برائحة العرق والأغنية الموقعة، وكــان ذلك شبيها بدوران. لم تجرؤ على الحركة، مع أنّها، ودون أن تنتــبه، بدأت تهزّ نصفها الأعلى إلى الأمام وإلى الوراء متبعة حركات النساء من حولها.

أرادت أن تقـــرأ على شفاههن الكلمات الغريبة بهذه اللغة الغريبة الـــتي تتكلم بداخلها، كأنّ المقاطع اللفظية توقظ الذكريات. بدأ التيه يسكنها في هذه المغارة الآهلة بالغرابة وهي تنظر إلى لمعان القناديل التي تؤلف نجوما في الضوء الخافت.

لم يحدث أن رأت نورا مثله، ولا سمعت أغنية مشابهة. الأصوات تتـــصاعد، ترنّ، تنـــزل، ثم تنبثق بعيدا. يحدث أحيانا أن يتكلم صوت لوحده، صوت واضح لامرأة تغني جملة طويلة. تنظر إستير إلى جسدها المحجـــوب الذي يترنح بقوة أكبر، وإلى يديها المبتعدتين قليلا ووجهها ممدد نحو الشعلة.

عـــندما تـــتوقف عن الكلام تسمع تمتمة الحاضرين وهم يرددون ســـرّا، آمـــين، آمين، ثم يجيب صوت رجل من بعيد، صوت يعكس الكلمات الغريبة، الكلمات التي تشبه الموسيقى.

لأوّل مرّة تعرف إستير معنى الصلاة. لم تفهم كيف دخل هذا إلى أعماقها، بيد أنّه كان يقينا: إنّه ضجيج الأصوات الأخرس حيث ينفجر فجـــأة تمثّل اللغة، الترنّح المنتظم للأجساد، نجوم الشموع، الظلّ الحار المليء بالروائح. إنّه زوبعة الكلمة.

هنا، في هذه الغرفة، لاشيء آخر يكسب قيمة، لاشيء يهدّد، لا موت ماريو ولا الألمان الذين كانوا بصدد صعود الوادي في مدرّعاتهم، ولا طـــيف والـــدها الطويل الذي يسير باتجاه الجبل فجرا، ذاك الذي يختفي في الأعشاب كمن يغوص في الموت.

كانـــت إستير ترنّح جسدها ببطء إلى الأمام وإلى الوراء، وكانت عيـــناها مثبتتين في الأضواء، وفي أعماقها ينادي صوت الرجال والنساء ويجـــيب، قاطعا وحادا. ينطق كل تلك الكلمات بلغة الغرابة. بمقدور إستير عبور الزمان والجبال كالطائر الأسود الذي دلّها عليه أبوها، إلى

غايـــة الجانـــب الآخـــر من البحار، إلى حيث يولد الضوء، إلى أرض إسرائيل.

السبت، الثامن أيلول. أيقظ إستير صوت. صوت هدير يجيء من كـــل الجهـــات دفعة واحدة، يملأ الوادي، يرنّ في كل شوارع القرية، يـــدخل إلى أعماق البيوت قاطبة. استيقظت إستير، وفي عتمة المخدع أبصرت سرير والديها فارغا.

كانت والدتها في المطبخ وقد ارتدت ملابسها ووقفت قرب باب المطبخ المفتوح. نظرتها هي التي هزّت إستير: نظرة عكّرها القلق، نظرة تـــردّ على الهدير القادم من الخارج. قالت إليزابيث قبل أن تجد الوقت الكـــافي لطـــرح سؤال: «ذهب والدك هذه الليلة، لم يرد إيقاظك.»، الهدير يبتعد، يرجع، يبدو غير حقيقي.

قالـــت إليـــزابيث: «إنّهـــا الطائـــرات الأمريكية الذاهبة إلى جـــنوى... خسر الإيطاليون الحرب، لقد وقّعوا الهدنة.» التصقت إســـتير بأمها: «إذن، سيدخل الإيطاليون.» جمّدها القلق بدورها، دخـــل إلي يـــديها ورجلـــيها مـــثل مدّ مثلج. خفض ذلك نفسها وفكرها.

ابـــتعد أزير الطائرات، إنّه يتدحرج بعيدا، كصوت إعصار. لكنّ إستير تسمع الآن هديرا آخر أكثر دقة، إنّه صوت الشاحنات الإيطالية التي تسير في أسفل الوادي وتصعد نحو القرية متحاشية الجيش الألماني. قالـــت إليزابيث بصوت خفيض: «لم تنته الحرب، سيأتي الآن الألمان، يجب أن نذهب، على الجميع أن يغادروا.»واستدركت: «على اليهود أن يذهبوا بسرعة، قبل وصول الألمان.»

أصـــبح الآن دويّ الـــشاحنات عاليا، إنّها تعبر آخر منعرج قبل دخول القرية. أخذت إليزابيث حقيبة جاهزة قرب الباب، حقيبة الجلد القديمـــة التي كانت تضع فيها كل الأشياء الثمينة. «اذهبـــي لتلبسي، عليك بارتداء ملابس دافئة وأحذية ملائمة، سنعبر الجبل، وسيلتحق بنا والدك هناك.»

كانت تتحرك بسرعة محمومة وتصطدم بالكراسي بحثا عن شيء نافـــع تكون قد نسيته. ارتدت إستير ملابسها في عجلة. لبست فوق كنـــزتها الفروة الصوفية التي تركها ماريو على مسند كرسي يوم قضى نحبه، وعقدت على رأسها وشاحا أسود لأمها.

كانـــت الـــشمس في الخارج تسطع على الساحة الكبيرة وترسم على الأرض ظلال الأغصان المقطوعة، وكانت قبة الكنيسة تلمع، وفي السماء سحب بيضاء جميلة. نظرت إستير من حولها باهتمام مؤلم. كان الناس يفدون إلى الساحة من كل صوب.

اليهود الفقراء يخرجون من الأزقة، من الطبقات التحتية حيث عاشوا كـــل تلك السنين. كانوا يصلون بأمتعتهم، بحقائبهم القديمة المصنوعة من الورق المقوّى، بصررهم ومئونتهم المخبأة في أكياس من القماش.

أمـــا كبار السن، مثل الحاخام إيزيك سالنتر، يعقوب والبولونيين فقد ارتدوا القفاطين الشتوية وقبعاتهم الأستراخانية. كان للنساء أحيانا معطفان، الواحد فوق الآخر، وكلّهن يلتحفن خمارات سوداء.

وصل اليهود الأثرياء بدورهم، بحقائبهم الجميلة ولباسهم الجديد، لكنّ معظمهم لم يحملوا أغراضهم لأنّهم لم يجدوا الوقت الكافي لذلك. وصل آخرون من الشاطئ بالسيارة، وكانت وجوههم متوترة وشاحبة. فكرت إستير أنّهم قد لا يرون كل هذا مرّة أخرى، هذه الساحة، هذه الديار، الينبوع والجبال الزرقاء البعيدة.

كان صوت محركات الشاحنات يدوي في الساحة، مانعا، في كل الأحـــوال، الحديث على الجميع. الشاحنات متوقفة في الساحة خلف بعضها البعض، على طول الشارع، إلى غاية روضة القسطل الكبيرة.

المحـــركات تدوي، وكانت هناك سحابة زرقاء تطفو على قارعة الطريق، والناس متكتلين حول الينبوع، وكان الأطفال هناك، لكنّهم لا يركضون. كانوا يرتدون ثيابا رثة ويظلّون قرب أمهاتهم جالسين على حزم من القش وهيئاتهم مخدّرة.

كـــان جـــنود الجيش الإيطالي الرابع قدام الفندق ينتظرون إشارة الرحيل. دنت منهم إستير. صدمت بسحن وجوههم، بهيئاتهم الضائعة والنظرة الغائبة. أغلبهم لم ينم هذه الليلة بانتظار النبأ الذي يؤكد الهزيمة وتوقيع الهدنة.

الجـــنود لا يـــراقبون أحـــدا، ينتظرون وقوفا أمام الفندق وهدير الشاحنات يصاعد في الجهة الأخرى من الساحة، كان اليهود يراوحون مكانهم حول الينبوع حاملين أمتعتهم أبعد، كأنّهم يبحثون عن المكان الأنسب للانتظار.

كـــان نـــاس القرية والمزاعون هناك، لكنّهم منعزلون. لقد مكثوا تحـــت أقواس البلدية وهم يراقبون اليهود الملتفين حول الينبوع، وكان ترستان جامدا تحت فيء الأروقة المقنطرة، نصف مختبئ، الوجه الجميل شاحب وتحت العينين تجاعيد كبيرة.

بـــدا شـــديد الخـــوف وبعيدا في بزته الانجليزية التي أبلاها تسكع الـــصيف، أيقظه بدوره صوت هدير المحركات الذي ملأ الوادي. ارتدى ملابـــسه بـــسرعة، وإذ همّ بالخروج من غرفة الفندق نادته أمّه: «إلى أين أنـــت ذاهـــب؟» ولما أحجم عن الرد قالت له بصوت أبحّه القلق بغرابة: «ابق. لا يجب الذهاب إلى الساحة، الأمر خطير.» بيد أنّه كان خارجا.

بحث عن إستير في الساحة وسط الناس الذين كانوا ينتظرون، وإذ أبصرها لوّح لها ليلتحق بها، ثم توقف. كان هناك جمع غفير، وكانت للنسوة نظرات مكروبة. ثم وصلت السيّدة أوروورك. لبست بلا مبالاة، هي الأنيقة عادة. لم ترتد سوى مشمّع فوق فستانها، ولم تلبس قبعتها، وكان شعرها الطويل يتموّج على كتفيها، وكان وجهها مهزولا وعيناها متعبتين.

إستير هي التي عبرت الساحة وذهبت إلى ترستان. لم يكن بمقدورها أن تتكلم، ولم تعرف ماذا تقول. انعقد حلقها، قبّلت ترستان بخفة ثم صافحت السيّدة أوروورك. ابتسمت لها والدة ترستان، احتضنتها، قبلتها على خدها وقالت لها بعض الكلمات، «حظ سعيد ربّما». كان لها صوت رزين، وكانت تلك أوّل مرّة تكلّم فيها إستير.

في اللحظة التالية، عندما نظرت إلى الأروقة المقنطرة مجددا، كان ترستان والسيّدة أوروورك قد اختفيا.

الشمس تسطع الآن بقوة. ظهرت السحب البيضاء الجميلة من جهة الشرق وانزلقت ببطء في السماء. يعبر الظلّ البارد الساحة من حين إلى آخر، يطفئ آثار الأغصان المقطوعة على الأرض. تخيلت أباها يسير في الجبل، في خط الذرى تماما، مع شساعة الوديان في الظلمات، ربّما كان يشاهد القرية من هناك، قريتها المجهرية والحشد الأسود الذي يكاد يشبه النمل.

قد ينزل إلى أسفل الوادي في الوحدة، عبر تلال العشب المصفرّ من جهة نانتيل أو القسطل حيث له موعد مع اليهود القادمين من نيس وكان، ومن بعيد أيضا، متفادين تقدم الجنود الألمان.

كان هناك في ساحة القرية دويّ محركات، وشرع الإيطاليون في الرحيل. لابدّ أنّهم تلقوا الإشارة التي انتظروها منذ الفجر، أو أنّهم

قلقوا و لم يعودوا قادرين على تحمل الانتظار، ذهبوا متلاحقين في شكل فرق، وأغلبهم راجلين.

رحلوا وسط دويّ المحركات دون أن يتكلموا، ودون أن يتبسموا. كانت الشاحنات ترتج وقد شرعت في صعود الطريق باتجاه أعالي الجبال، عبر وادي بوريون. يزداد هدير المحركات وينعكس في أسفل الوادي ليرجع كصدى الرّعد، في حين كان الجنود مسرعين.

اقتربت إستير من الفندق، ربّما ستبصر راشيل في لحظة ما وهي تغادر الفندق مع النقيب موندوليني. كان هناك رجال بلباس مدني، بشمّعات وقبعات من اللبد، وكانت هناك نساء، لكنّ راشيل لم تكن معهم. كلّ شيء كان يجري بسرعة دون أن تراها إستير، ربّما صعدت في إحدى الحافلات مع هؤلاء الناس.

قلب إستير يدق بقوة، أحست بانقباض الحلق عندما كانت تنظر إلى الجنود الإيطاليين الأخيرين وهم يتجمعون حول الشاحنات، يقفزون إلى الشاحنات المسطحة المغطاة وهي سائرة.

كان كلّ شيء رماديا جدا وحزينا. تمنت إستير رؤية شعر راشيل النحاسي لآخر مرّة. قال الناس في الساحة إنّ الضباط ذهبوا باكرا، قبل العاشرة، راشيل تسير في الجبل إذن وتعبر خط الحدود في ممرّ سيرييجا.

يشرع الناس الآن في الرّحيل. اجتمع في وسط الساحة، قرب الينبوع، مجموعة من الرجال حول السيّد سليغمان، معلم المدرسة. تعرفت إستير إلى بعض أولئك الذين كانوا يأتون مساء أحيانا للقاء أبيها في المطبخ. تحدثوا طويلا لأنّ بعضهم كان يريد إتباع طريق شاحنات الإيطاليين وعبور ممرّ سيرييجا، وكان الآخرون يريدون أن يسلكوا أقرب سبيل عن طريق ممرّ فونيستر. قالوا إنّه لأمر خطير المشي خلف الإيطاليين، ربّما كان ذلك هو الطريق الذي سيسلكه الألمان لقنبلتهم.

ثم صعد السيّد سليغمان إلى حافة الينبوع، بدا حائرا ومتأثرا، مع أنّ صوته كان يرنّ بوضوح، كما كان يقرأ الكتب على الأطفال، قال في البداية كلمات بالفرنسية: "أصدقائي!أصدقائي... اسمعوني." توقفت ضوضاء الانطلاق وطرح الناس الذين شرعوا في الرحيل حقائبهم للاستماع إليه. وبنفس الصوت الفصيح القوي الذي كان يقرأ به للأطفال **الحيوانات المريضة والطاعون لنانا**، قرأ هذه الأبيات التي بقيت محفورة إلى الأبد في ذاكرة إستير. قرأها ببطء، كأنّها كلمات صلاة، وعلمت إستير لاحقا أنّ رجلا اسمه حايين ناحمان بياليك هو من كتبها:

على طريقي المتعرج
لم أعرف مودة.
لقد ضاع خلودي.

كانت إليزابيث تبكي بصمت قرب إستير. الشهقات تهزّ كتفيها، وكان وجهها مجمّدا ومتجهما. فكرت في أنّ ذلك أكثر رعبا من كل الأصوات ومن كل صراخ الدنيا. احتضنت والدها بكل قواها لكتم الشهقات، كما نفعل مع ولد.

شرع الناس في السير نحو أعلى الساحة، عبروا قرب الينبوع حيث كان السيّد سليغمان يتأملهم. الرجال يسيرون في المقدمة، متبوعين بالنساء، ثمّ الشيوخ والأطفال. شكّل ذلك فريقا طويلا أسود ورماديا تحت شمس حارقة، كما في لحظة دفن.

أبصرت إستير طيف السيّد فيرن وهي تمرّ أمام الفندق، كان ظلّا خفيا نصف مختبئ تحت شجرة الدلب. كان يبدو برجليه المقوستين وسترته الطويلة المرمدّة ذات الجيوب المترهلة وقبعته وعثنونه مثل حارس مقبرة يحضر من بعيد مأتما لا يعنيه كثيرا.

برغم حزن أمها، وبرغم الأسى الذي جعل صدرها ضيقا حرجا، رغبت إستير في الضحك عندما أبصرت طيف السيّد فيرن. تذكرت كيف كان يختبئ عندما كان الجنود الإيطاليون يصعدون الشارع حاملين البيانو.

سارعت نحوه ورفعت يده. نظر إليها الشيخ كما لو أنّه لم يتعرف إليها، أشاح بوجهه فاضطرب عثنونه الغريب وهو يردّد: "لا، لا، اذهبوا، اذهبوا كلكم، أنا لا أستطيع، يجب أن أبقى هنا، إلى أين أذهب، إلى الجبل؟ "ضغطت إستير على يده بكل قواها وشعرت بالدموع تترقرق في عينيها. "لكنّ الألمان سيأتون، عليك أن تذهب معنا."

استمرّ السيّد فيرن في النظر إلى الناس الذين يمشون في الساحة. «لا. لا.» كان يتحدث ببطء. «لا. لا. ماذا سيفعلون بشيخ مثلي؟» ثم قبّل إستير مرّة واحدة وتراجع بسرعة. "إلى اللقاء الآن، إلى اللقاء."

عادت إستير جريا إلى جوار أمها وشرعتا في السير مع الآخرين باتجاه أعلى القرية، وعندما استدارت إستير لم تر السيّد فيرن ثانية. ربّما عاد إلى جهة البيانو في مطبخ الدارة المعتمة، لم يبق سوى بعض الأشخاص واقفين تحت أقواس البلدية، أشخاص من القرية ونساء يرتدين فساتين مشجرة ومآزر.

كانوا ينظرون إلى فرقة الهاربين الذين اختفوا في أعلى الجبل، في الجهة التي تبدأ فيها نوادر العشب وغابات الكستناء.

الناس يسيرون الآن في الطريق تحت شمس الظهيرة، كانوا من الكثرة بحيث لم تشاهد إستير لا بداية الفرقة ولا نهايتها. لم يعد هناك دويّ للمحركات في الوادي، ولا صوت، ماعدا انكشاط الأرجل على طريق الحجارة، وصوت النهر على الحصى.

كانـــت إستير تمشي وتنظر إلى الناس من حولها، إنّها تعرف أغلبهم. هم الذين شاهدتهم في شوارع القرية، في السوق أو في الساحة مساء وهم يثرثرون في أفواج صغيرة والأطفال يركضون ويطلقون صراخا حادا. هناك الـــشيوخ بمعاطفهم الكبيرة ذات الياقات المفراة وقبعاتهم السوداء التي تطل مـــن تحتها ضفائر شعر أشيب. وهناك المسمّى حزان، السيّد يعقوب الذي يمشي بمحاذاة الحاخام الشيخ إيزيك سالنتر وهو يحمل حقائبه الثقيلة.

وماعدا الحاخام إيزيك والسيّد يعقوب فإنّ إستير لا تعرف أسماءهم، إنّهـــم اليهود الأكثر فقرا، أولئك الذين قدموا من ألمانيا، من ألمانيا وروسيا بعـــد أن خـــسروا الحرب. عندما دخلت إلى المعبد، إلى الكوخ في أعلى القـــرية أبصرتهم إستير واقفين حول الطاولة حيث أشعلت الشموع. كان رأســـها ملفوفا في الوشاح الأبيض الكبير عندما سمعتهم يرددون كلمات الكتاب المقدس بلغة غريبة ورائعة، لغة تنفذ إلى الأعماق دون أن نفهمها.

وإذ تراهم الآن تحت الشمس، على طريق الحجارة هذه، الظهور محنـــية وهـــم يسيرون ببطء بمعاطفهم الكبيرة التي تثقل كاهلهم. تشع إســـتير بقلبها ينبض بقوة، كما لو أنّ شيئا مؤلما ومحتّما بصدد الوقوع، كأنّ العالم بأسره يمشي في هذا الطريق باتجاه المجهول.

كانت تنظر بخاصة إلى النساء والأطفال. ثمة نسوة مسنات لمحتهن في مؤخـــرات المطابخ، لا يخرجن أبدا، ماعدا إلى الحفلات والأعراس. إنّهـــن يـــتقدمن الآن في عرض الطريق وهن يرتدين معاطفهن الثقيلة ويلففن رؤوسهن بخمارات سوداء دون أن ينبسن، ووجوههن الشاحبة مقطبة تحت الشمس.

وهناك نساء أصغر لازلن رشيقات برغم المعاطف والحزم المتنوعة الـــتي تربكهن وهن يسحبن الحقائب، كن يتحدثن فيما بينهن، وهناك من كنّ يضحكن، كأنّهن ذاهبات في نـــزهة.

الأطفال يركضون أمامهن وهم يرتدون بدلات صوفية حارة وأحذية جلدية واسعة لا يلبسونها إلا في المناسبات الكبرى. كانوا يحملون حزما وحقائب بها خبز وفواكه وزجاجات من الماء. كانت إستير تبحث عن أسمائهم في الذاكرة وهي تسير معهم، سيسيل غرانبيرغ، مايارل، جليبتار، صراح وميشال لوبلنير، ليّا، أميلي سبريشير، فيزا، جاك مان، لازار، ريفكولي، روبير دافيد، ياشيت، سيمون شولفيتش، تال، ريبيكا، أندري، مارك، ماري، أنتوانيت، لوسي، إليان سالنتر... لكنّها لا تعثر على أسمائهم إلا بمشقة، لأنّهم لم يعودوا أولئك الأطفال والفتيات الذين عرفتهم، أولئك الذين شاهدتهم في المدرسة، أولئك الذين يركضون ويصرخون في الشوارع، الذين سيسبحون عراة في الشلالات ويلعبون لعبة الحرب في الأدغال.

الآن وهم يرتدون ثيابا كبيرة جدا، ثقيلة جدا وينتعلون الأحذية الشتوية، الفتيات يخفين شعرهن بالأوشحة والأطفال يلبسون قبعاتهم المستديرة أو البرنيطة، فإنّهم لم يعودوا يركضون بسرعة، ما عادوا يتخاطبون، إنّهم يبدون يتامى في رحلة، أصبحوا حزانى ومتعبين، لا ينظرون لا إلى شيء ولا إلى أحد.

كان الفريق يعبر أعلى القرية مرورا بالمدرسة المغلقة ومركز الدرك، وكان السكان ينظرون إليهم لحظة وهم يمرّون، كانوا واقفين أمام الأبواب أو متكئين على مرافقتهم في النوافذ، صامتين مثل أولئك الذين يمرون أمامهم.

كانت تلك أول مرّة، وكانت مؤلمة. أدركت إستير أنّها ليست مثل ناس القرية. هم يستطيعون الاستمرار في العيش في هذا الوادي، تحت هذه السماء ويشربون ماء الشلالات. سيبقون أمام أبوابهم، ينظرون من خلال النافذة وهي تمرّ أمامهم مرتدية ثيابها السوداء وفرو

ماريـــو، رأسها ملفوف في الوشاح وقد رضّت قدميها أحذية الشتاء، عليها أن تمشي مع أمثالها الذين لم يعد لهم بيت، ليس لهم الحق في نفس السماء، في نفس الماء.

انقـــبض حلقها من الغضب والقلق وأصبح قلبها يدق في الصدر بقـــوة. فكرت في ترستان، في وجهه الأبيض وعينيه المحمومتين، نداوة خدّ السيّدة أوروك ويدها التي صافحت يدها لحظة، وقلبها الذي خفق لأنّها كلّمتها لأوّل مرّة، ولابدّ أنّها لن تراها أبدا. فكرت في راشيل، في الفـــندق الخـــالي حاليا. الريح تنفذ إليه من النوافذ المفتوحة وتدوّم في القاعـــة الكبيرة. لأول مرّة تفهم أنّها أصبحت فتاة أخرى. لن يستطيع أبوها أن يناديها إستيرليتا أبدا، لا أحد يناديها هيلين. لا فائدة من النظر إلى الوراء. لقد توقف كلّ هذا.

الفـــريق يمـــشي في طريق الحجارة، مابين تلال الأعشاب، هناك حيث كانت تختبئ إستير سابقا لتنتظر عودة أبيها. كان السيل يصدي في الأســـفل، وهـــناك انـــدعاك الماء الذي يرنّ في منحدرات الجبل. تكدســـت الغـــيوم في السماء من جهة الشرق مكوّنة أشكالا هندسية سحرية في أسفل الوادي، مثل قبب ثلجية، مثل قصور.

تتذكـــر إستير أنّها رأتها قادمة وهي ممددة على الصخور المسطحة التي لازالت مبللة بماء السيل. تحسّ بالقطرات الباردة التي تنحسر على ساقيها وهي تستمع إلى موسيقى الماء وطنين الزنابر، تتذكر بأنّها كانت تحـــبّ الذهاب مع السحب لأنّها تنـــزلق في الريح بحرية، لأنّها كانت تذهب دون اكتراث إلى الجهة الأخرى من الجبال، إلى غاية البحر.

تتخـــيّل كـــلّ مـــا تراه، الوديان والأنهار والمدن الشبيهة بالمنامل والخلجان الكبيرة حيث يسطع البحر. الغيوم ذاتها اليوم، مع أنّ لها شيئا مربكا. إنّها تشكل ما يشبه السدّ في عمق الوادي، في كل قمم الجبال، وتنصب جدارا كبيرا أبيض معتما لا يمكن تخطيه.

ضـــغطت إستير بقوة على يد أمها وهما تسيران في الطريق بخطى متـــناغمة وسط الكتيبة الطويلة. فقدت الغابة أناقتها. استبدلت أشجار القـــسطل والبلوط بأشجار طويلة من الصنوبر تكاد تكون سوداء. لم يحدث أن ذهبت إستير أبعد في وادي الشلال. يتعذر الآن رؤية طرف الـــوادي، ولا أســـوار الـــسحب، ماعدا سيقان الأشجار في لحظات، والسيل الذي يلمع تحت الشمس.

تـــباطأ الفريق وهو يعاني على طول الطريق الضيّق المائل. توقف الشيوخ والنساء اللائي يحملن الأطفال على قارعة الطريق للاستراحة، كانـــوا يجلسون على الصخور أو على حقائبهم. لا أحد يتكلم، يمكن سماع وقع الأحذية على الحجارة وصراخ الأطفال الذي يرنّ بغرابة وقد خنقته الأشجار. كان شبيها بأصوات الحيوانات.

أفـــزع الفريق، وهو يعبر الغابة، غربانا حلّقت بعيدا وهي تنعق، نظـــرت إستير إلى الطيور السود وتذكرت ما قاله أبوها في أحد الأيام وهـــو يتحدث عن إيطاليا، دلها على غراب في السماء: «إن استطعت الطـــيران مثل العصفور ستصلين إليها هذا المساء.» لم تجرؤ على طرح الـــسؤال على إليزابيث، أن تقول لها: «متى يلتحق بنا وأبـــي؟» لكنّها ضـــغطت بقوة على يدها وهي تسير، وكانت تنظر إليها خفية. وجه أمهـــا مقطب، شاحب، شفتاها معقودتان وقد شاخت ملامحها بسبب الوشاح الذي ارتدته لتشبه النساء الأخريات.

كانـــت تـــشعر بانقباض لأنّها تتذكر أيام الصيف، عندما كانت إليـــزابيث ترتدي فستانها الأزرق المقوّر وحذاءها المسيّر، تمشط شعرها الأسود الحريري مطوّلا إرضاء لوالد إستير، ثم ترافقه إلى ساحة القرية.

تتذكـــر إستير ساقي أمها الطويلتين وبشرتها الملساء على شظيتيها والضوء الذي يلمح على كتفيها العاريتين، أكيد أن لا شيء يعود الآن مـــن كل هذا. «هل يمكن العثور على ما تركناه خلفنا بعد ذهابنا؟هل سنعود إلى هنا مع أبـــي، أحقا أنّنا ذاهبون دون رجعة؟»

لم تـــسأل إستير عن هذا عندما ارتدت ملابسها بسرعة، حملت الحقيـــبة وخـــرجت مـــن البيت صاعدة السلالم الستة التي تقود إلى الـــشارع. ســـارتا معا في الشارع صوب الساحة ولم تجرؤ إستير على طـــرح السؤال. بيد أنّ أمها فهمت. لم تقم سوى بتكشيرة غريبة وهي

تهزّ كتفيها، ثم أبصرتها إستير بعيدا وهي تمسح عينيها وأنفها لأنّها كانت تبكي.

عضت حينها على شفتيها بكل قواها إلى أن انبثق الدم، كما كانت تفعل عندما تريد محو حماقة ارتكبتها.

لم تنظر إلى أمها ثانية حتى لا تقرأ الألم الذي في عينيها، حتى لا يعرف أحد أنّها كانت تفكر بدورها في هذا. كان الناس قد تباعدوا في طريق الحجارة الصاعد في الغابة، الشباب والرجال والصغار في المقدمة. لم تعد أصواتهم مسموعة عندما يتخاطبون، وخلفهم كان الموكب الطويل المنسحب.

ومع أنّهما لم تكونا تسيران بسرعة بسبب ثقل الحقائب التي ألهبت أيديهما، فقد تجاوزت إستير وأمها نساء أخريات، العجائز اللائي يتعثرن في الحجارة والنساء اللائي يحملن أطفالا بين سواعدهن، والشيوخ اليهود الذين يرتدون القفاطين الثقيلة وهم يتوكأون على عصيّهم.

عندما اقتربتا منهم تباطأت إستير لمساعدتهم، لكنّ أمها سحبتها وقتئذ من ذراعها بشيء من العنف. فزعت إستير لرؤية الملمح القاسي على وجهها وهما تتجاوزان المتأخرين، وكلما سارتا أصبحت أطياف النساء الجالسات على قارعة الطريق أقل فأقل.

في لحظة ما أصبحت إستير وأمها تسيران وحدهما، ولم تكن تسمعان سوى وقطع خطاهما والانقصاف اللين للجدول في الأسفل.

كانت الشمس قريبة جدا من خط الجبال، كانت خلفهما. غدت السماء شاحبة، مائلة إلى اللون الرمادي، وأمامها تكدست السحب السوداء الثقيلة، وإذ بحثت إليزابيث عن هذا منذ وقت طويل، فقد أبصرت فجأة ما يشبه الفسحة، على سطح في أعلى السيل. قالت:

«سنقضي ليلتنا هاهنا.» ونزلت قليلا إلى حدّ الصخور التي تشرف على السيل. لم يحدث أن رأت إستير موضعا بذاك الجمال.

صنعت الطحالب بساطا بين الكتل الصخرية الدائرية، وفي الأعلى، يسارا، كان هناك شاطئ صغير من الرمل تأتي إليه أمواج السيل لتتلاشى. بدا الموضع لإستير مثل صورة من الجنة، بعد قسوة طريق الحجارة ولفح الشمس، وبعد كدر كبير وأتعاب لا تعدّ.

ركضت لتتمدد على الطحالب مابين الكتل الصخرية وأجفلت عينيها. عندما أعادت فتحهما أبصرت أمامها وجه أمها. غسلت إليزابيث ذراعيها ووجهها في ماء السيل، وكان ضوء المساء يصنع هالة حول شعرها المفكوك. تمتمت إستير: «إنّك غاية في الجمال. يجب أن تذهبي لتغتسلي»، وقالت إليزابيث: «إنّه منعش، لابدّ أنّ ناسا آخرين سيتوقفون هنا ليبيتوا.»

نزعت إستير خمارها وحذاءها ودخلت إلى الماء المثلج إلى منتصف الربلتين رافعة فستانها. كان الماء البارد ينزلق على ساقيها ويخدّرهما. شربت الماء في باطن يدها، رشّت وجهها لتلطيف لهب الشمس. بلّل الماء طرف فستانها وكمّي صدريتها الصوفية وعلق بالفرو.

وصل الناس متأخرين قليلا. توقف كثير منهم في الأسفل، في فرجة أخرى، وسمعت إستير أصوات الأطفال ونداءات النساء. يعرف الجميع أنّه لا يجب إشعال النار حتى لا يكشفهم الجيش الألماني. لقد تمّ تحضير وجبة العشاء كيفما اتفق.

أخرجت النساء الخبز وقسمته قطعا أكلها الأطفال أمام السيل. أحضرت والدة إستير قطعة جبن جافة منحتها إياها صاحبة الشقة، لقد بدت لذيذة. أكلتا تينا أيضا، ثم ذهبتا للشرب من السيل جاثيتين.

شـــيّدتا في الشاطئ، قبل مجيء الليل، ملجأ بأغصان الصنوبر، وكانت الأفنان المتراصة بمثابة سقف.

وصل الليل ببطء، كانت الأصوات البشرية تصدي بقوة أكبر في الغابـــة وفي كـــل مكان. لم تنم إستير رغم التعب، سارت إلى مصب السيل تدلها أصوات الأطفال. لاحظت في الأسفل، على بعد مئة متر، فتـــيات يلعـــبن علـــى حافة السيل. وبرغم ثيابهن فقد كنّ في الماء إلى منتصف السيقان، وكنّ يرششن أنفسهن ضاحكات.

تعرفت إليهنّ إستير. إنهنّ الفتيات البولونيات اللائي وصلن إلى القرية مـــع أوليائهن في مطلع الصيف، اللواتي يتكلمن بلغتهن الغريبة أثناء الغناء. تتذكر إستير أنّ والدها حدثها ذات مساء عن مدينة ذات اسم غريب مثل لغـــة الفتـــيات، رزيسزو، وعن الجنود الألمان الذين أحرقوا بيوت اليهود وطـــردوهم، سجنوهم في قاطرات البهائم وأرسلوهم إلى المحتشدات، إلى الغابات حيث على الأطفال العمل إلى حدّ التهلكة. تتذكر هذا وتنظر إلى الفتـــيات. إنّهـــن الآن هـــنا في هذه الغابة العميقة على ضفة السيل، طـــردوهن مـــن جديـــد وهاهن يذهبن نحو المجهول، إلى الجبال حيث تتكدس السحب، مع أنّهن يظهرن غير مباليات، كما لو أنهنّ في رحلة.

دخلـــت إســـتير إلى الفـــسحة لمشاهدتهن. الفتيات يلعبن حاليا للامساك ببعضهن، يجرين من شجرة إلى أخرى بفساتينهن الطويلة التي تنتفخ حولهن، كأنّهن يرقصن. كان لكبيرتهن التي في العاشرة أو الحادية عشرة شعر وعيون باهتة، في حين كانت أخواتها سمروات، وإذ شاهدن إستير تسمرن.

تقـــدمن بحذر، جماعيا، وتفوّهن بكلمات بلُغتهن. لقد جنّ الليل. إســـتير على دراية بأنّ عليها العودة إلى أمها، مع أنّها لا تستطيع فصل نظرتها عن عيني الفتاة الشاحبتين. أمّا الأخريات فقد استأنفن اللعب.

كـــان أولـــياؤهن قـــرب الصنوبر، نساء يرتدين الأسود ورجال بالقفاطين. وكان هناك أيضا شيخ بلحية طويلة رمادية شاهدته إستير في مدخل المعبد، في الكوخ.

أخـــذت الفتاة الصغيرة إستير من يدها وقادتها إلى غاية الشجرة. طـــرحت علـــيها إحدى النساء أسئلة وهي تبتسم، لكنّها فعلت ذلك بلغـــتها الغريبة. كان لها وجه جميل مستقيم، وكانت عيناها ذات زرقة شـــاحبة، كعيني الفتاة الصغيرة. قسمت حينها قطعة من الخبز الأسود وقدمتها لإستير.

لم تجرؤ إستير على الرفض، بيد أنّها أحست بنوع من الحياء لأنّها أكلـــت من قبل جبنا وتينا، دون أن تقتسم شيئا. أخذت الخبز وذهبت جاريـــة إلى طريق الحجارة دون أن تقول شيئا، أسرعت نحو الفسحة حيث تنتظرها أمها. كان الليل يضيّق على الأشجار ويضع ظلالا محيّرة في كل مكان. لا زالت تسمع أصوات الفتيات وضحكاتهن القادمة من الخلف.

بدأ المطر يسقط. كان يحدث على السقوف صوت حفيف ليّن، صـــوتا ليّنا هادئا بعد هدير محركات الشاحنات ووقع الخطى. خرجت راشيل إلى الشوارع رغم ظلام الليل وأخذت تمشي تحت المطر متدثرة بخمـــار أمها الكبير، وإذ بدأ صوت الشاحنات الإيطالية يدوي في كل أرجاء الوادي، رغبت في الركض إلى الساحة، لكنّ أمها قالت لها: «لا تذهبـــــي إلى هناك: لا تذهبـــي إلى هناك، أرجوك، ابق معنا!» كان والدها مريضا و لم تخرج.

دوّت الشاحنات طوال اليوم في الوادي وفي الجبال. كان الدويّ قريبا أحيانا بحيث كان هناك شعور بأنّ الشاحنات على وشك اقتلاع الجـــدران، ثم كـــان وقع الخطى، ربّما كان ذلك أفظع، ذلك الصوت

الرّخو، ذلك العدو السريع. كان الناس يصعدون الزقاق ويبتعدون إلى أن أقبل الليل.

هناك أصوات ونداءات ضيقة الأنفاس وبكاء أطفال. بقيت راشيل يقظة في الظلام طيلة الليل، جالسة على كرسي قرب السرير حيث تنام أمّها.

سمعت في السرير الآخر بالغرفة الضيقة النفس السريع لأبيها والسعال الجاف للمريض بالرّبو. هناك هدوء كبير صباح الأحد. الشمس تسطع في الخارج من خلال فراغات المصارع، وكانت زقزقة العصافير في السماء كما في الصيف.

إلا أنّ راشيل أبت الخروج وفتح المصارع. كانت من التعب بحيث أحست بألم في القلب، وإذ استيقظت أمها لتحضير نفسها ولتطبخ، تمددت راشيل على السرير الذي لا يزال دافئا ونامت.

لقد سقط الليل حاليا. المطر ينزل ببطء على سقوف القرية، وحين استيقظت راشيل لم تفهم جيّدا أين هي. ظنت أنّها في غرفة الفندق مع موندوليني، ثم تذكرت ما جرى. ربّما فكرت أنّ الدركي بقيّ وحده في الفندق وأنّه ينصت بدوره إلى سقوط المطر. ذهب الجنود الإيطاليون كلهم وعاد الصمت إلى الجبل. قال لها مرّة وهي تمشط شعرها أمام مرآة الغرفة بعدما اقترب منها وهو ينظر إليها نظرة غريبة: «عندما تنتهي الحرب سآخذك إلى إيطاليا، إلى كل مكان، إلى روما، إلى نابولي، إلى البندقية، سنقوم برحلة طويلة.» في ذلك اليوم بالذات أعطاها الخاتم الذي بجوهرة زرقاء.

سارت راشيل في الشوارع الصامتة، المصارع كلها موصدة. فكرت في شيء يجعل قلبها يخفق، فكرت في نهاية الحرب حاليا. عندما قنبل الأمريكيون جنوى قال موندوليني لقد انتهى الأمر، سيوقّع

الإيطاليون الهدنة. ذهب الجنود الإيطاليون إلى الجبل وعادوا إلى بيوتهم. نامت المدينة بلا ضجيج مثل شخص مرهق جدّا.

أسرعت راشيل نحو الساحة. عندما تصل أمام الفندق ستدق المصرع كعادتها وسيأتي ليفتح الباب. ستشم رائحته، رائحة التبغ، رائحة جسده، ستسمع صوته يرنّ في صدره. إنّها تحب عندما يتكلم عن إيطاليا، يتحدث عن المدن، عن روما، عن فلورنسا والبندقية، يقول بهدوء أشياء بالإيطالية، كأنّها قادرة على فهمه. بمقدورها أن تذهب بعيدا عندما تنتهي الحرب، بعيدا عن الناس الذين يترصدون ويهمزون، بعيدا عن الشبان الذين يرمونها بالحجارة، بعيدا عن البيت الخرب، عن الشقة الباردة حيث يسعل أبوها.

ستسافر إلى هذه المدن حيث الموسيقى في الشوارع، في المقاهي، في دور السينما، في المحلات. إنّها ترغب في أن يكون ذلك حقيقيا، وبسرعة، في أن ترتعش رجلاها من تحتها وتتوقف في فتحة الباب والماء يقطر على رأسها ويلصق الخمار الأسود بشعرها.

إنّها في الشارع الذي يصعد إلى الساحة. تمرّ أمام دارة التوت أين يسكن السيد فيرن. لا يوجد ضوء في ثقوب المصارع، ولا صوت، الليل مظلم جدا. لكنّ راشيل تدرك أنّ الشيخ في البيت، وإذ أرهفت السمع بدا لها أنّها تسمعه يكلم نفسه بصوته المرتعش. تخيّلته بصدد طرح الأسئلة والإجابة عليها، ورغبت في الضحك.

تسمع الآن الماء الذي يشلّ في حوض النافورة. الأشجار في الساحة مدهشة بفعل الضوء. لماذا كل هذا الضوء؟ هل تمّ رفع حظر التجول؟ فكرت راشيل في العسس. أطلق الدركيون الرصاص على زوج روسلي ليلة ذهابه لإحضار الطبيب من أجل الولادة. يقول موندوليني عندما يتحدث عن الجنود «مخبولون»، يقول ذلك وهو يخفض صوته بازدراء، إنّه لا يحب الألمان. يقول إنّهم كالحيوانات.

تـــرددت راشيل في الساحة. هناك ضوء ساطع يجيء من الفندق، يـــضيء الأشـــجار والبـــيوت كزخرف مسرح. الضوء يرسم ظلالا ســـحرية، لكنّ راشيل تنصت إلى خرير الماء الذي يتساقط في الحوض، تـــشعر أنّهـــا مطمئـــنة. ربّما قرّر الدركيون والجنود الاحتفال بنهاية الحـــرب، مع أنّ راشيل تعرف الآن أنّ ذلك غير صحيح. الضوء الذي ينير الساحة بارد، يجعل قطرات المطر لامعة، لا يوجد أيّ ضجيج، ولا صوت، كل شيء ساكن وفارغ.

اقتربت راشيل من الفندق لما جانبت الحاجز المفرغ. آلمها الضوء وجـــذبها رغمـــا عـــنها، رغم قلبها الذي ينبض بقوة ورجليها اللتين ترتعـــشان، لم يحـــدث لهـــا أن رأت ضوء بهذه الكثافة. يبدو الليل في الضواحي بهيما أكثر، وأكثر سكونا.

لما وصلت راشيل بالقرب من الفندق رأت الجندي واقفا أمام الباب، كـــان جامـــدا ببندقية في يده. نظر أمامه، كأنّه يريد ثقب الليل بكل هذا الضوء. بقيت راشيل ثابتة، ثم تراجعت ببطء لتختبئ. كان الجندي ألمانيا.

أبصرت حينها الشاحنات المتوقفة، وهناك في الظلّ كانت سيارة الغـــستابو. تراجعت راشيل إلى الأشجار وهربت، نـــزلت جارية في الأزقة إلى البيت القديم، وكانت خطاها ترنّ في الصمت كعدْو فرس. قلبها يدق بقوة، تشعر بألم في وسط الصدر، بحرقة. لأول مرّة في حياتها خافت إلى درجة الموت.

رغبت في الجري عرض الجبال حتّى إيطاليا، إلى معسكرات الجنود لـــيلا. كانـــت تودّ سماع صوت موندوليني، شمّ رائحته، عقد ذراعيه حـــول قامته، غير أنّها وصلت إلى باب البيت، إنّها تعرف أنّ الوقت فـــات، تعرف أنّ الألمان سيأتون الآن، وسيأخذونها، سيأخذون كذلك أباها وأمها ليذهبوا بهم بعيدا.

انتظـــرت لحظـــة حتى يهدأ قلبها ويخف نفسها، إنّها تبحث عن الكلمات التي ستقولها لأبيها وأمها لطمأنتهما، حتى لا يعلما فورا، إنّها تحبهما حدّ الموت، دون أن تدرك ذلك.

أيقظهمـــا المطر فجرا. مطر خفيف يندّي ببطء فوقهما على قمم أشـــجار الـــصنوبر ويختلط بانكسار السيل. بدأت القطرات تنفذ من ســـقف ملجـــئهما، القطرات المثلجة تطبطب على وجهيهما. حاولت إليزابيث جاهدة ترتيب الأغصان، بيد أنّها لم تفلح سوى في جعل المطر ينفذ أكثر فأكثر.

حملـــتا وقتـــئذ حقائبهما واختبأتا في جذع أرزية مرتجفتين وقد التّفـــتا في خماريهمـــا. بيّن ضوء النهار شكل الأشجار. كانت سحابة بيـــضاء تنـــــزل مـــع الوادي، وكان البرد شديدا بحيث بقيت إستير وإليزابيث متشابكتين في جذع الأرزية، دون أن تتشجعا على الحركة.

ثم دوّت أصـــوات الـــرجال في الغابة ونداءات، يجب النهوض، التدثر بالملابس الرطبة، جمع الحقائب، ثمّ الرحيل.

كانـــت قدما إستير تتألمان فراحت تترنح في طريق الحجارة وهي تنظـــر إلى طـــيف أمها قدّامها. طلعت أشكال أخرى من الغابة شبيهة بأشباح. كانت إستير تأمل في أن ترى خلفها الفتيات البولونيات. بيد أنّـــه لم يكـــن هـــناك لا صوت أطفال ولا ضحك، ماعدا الاحتكاك المتجدد للأحذية على حجارة الطريق، وخرير السيل المستمر، الذاهب في الاتجاه الآخر.

بـــدت الغابة لانهائية بعد أن قبض عليها الضباب. لا يمكن رؤية لا أعالي الأشجار ولا الجبال. إنّهاة كمن يمشي بلا هدف، منحنية إلى الأمام، مثقلة بحمولة الحقائب، متعثرة وقد كدمت قدميها نتوءات الحجارة.

تجــــاوزت إستير وإليزابيث فارّين انطلقوا قبل الفجر وتعبوا، نساء مـــسنات جالسات على حزمهن على قارعة الطريق. كانت وجوههن تـــبدو في الظـــلام أكثر شحوبا. لا يتألمن، ينتظرن على حافة الطريق، وحيدات أحيانا ومستسلمات.

يـــصل الطـــريق إلى السيل، ووجب الآن عبور المجازة. كان الـــضباب وهو يبتعد، يسمح برؤية المنحدر المقابل، المغطى بأشجار الأرزية المعتمة والسماء الزرقاء، وذاك ما شجع إليزابيث على عبور الـــسيل وهي تمد يدها إلى إستير، ثم شرعتا في صعود منحدر الجبل دون توقـــف. في الأعلى، على الجانب الأيمن، كان هناك كوخ من الحجارة، ربما قضى فيه الهاربون ليلته لأنّ العشب مدعوس من كل الجهات.

سمعت إستير مجددا نعيق الغربان، وبدل أن تقلقها هذه الأصوات أراحتها لأنّها تريد أن تقول: «إنّنا هنا، إنّنا معكم!»

وصـــلت إليزابيث وإستير إلى المحراب قبل الظهيرة، الوادي يتسع عـــند مخـــرج الغابـــة، أبصرتا على الهضبة المشرفة على السيل البيوت العـــسكرية والمعبد. تذكرت إستير حديث غاسباريني عن العذراء، عن التمـــثال الذي يرفع إلى المحراب صيفا ليتمّ إنـــزاله شتاء مرتديا معطفا كي لا يبرد. بدا لها بعيدا بحيث لم تفهم أنّه حصل فعلا.

اعـــتقدت أنّهـــا سترى التمثال في مغارة، مختبئا وسط الأشجار، محاطا بالأنهار، وكانت تنظر دون أن تفهم هذه البنايات الكبيرة البشعة الشبيهة بثكنات.

بحثت إستير عن عيني النقيب موندوليني، لكنّه لم يكن هناك، ربّما سلك طريقا آخر، من جهة ممرّ سيرييغا، ربّما يكون وصل إلى إيطاليا. لا توجد راشيل.

ضغطت إستير على يد إليزابيث: «هل يلتحق بنا أبـــي هنا؟» لكنّ إليـــزابيث لم ترد. وضعت الأمتعة أمام حائط البناية وطلبت من إستير حراســـتها. ذهبت للحديث مع ناس كانوا مع السيد سليغمان، لكنّهم لا يعـــرفون، سمعـــتهم إستير يتحدثون عن طريق بورتمون، عن باص، أشاروا إلى الجهة الأخرى من الوادي، إلى أعالي الجبال التي أظلمت.

عـــادت إليـــزابيث، كانت كلماتها بحاء، متعبة، لم تقل سوى: «ننتظر هنا إلى صبيحة الغد، سنعبر غدا صباحا، سيلتحق بنا هنا.» غير أنّ إستير فهمت أنّها لا تعرف شيئا.

أقـــام الهاربـــون لقضاء الليلة. فتح الجنود الإيطاليون باب إحدى البنايات، ساعدوا النساء على حمل حقائبهن، منحوا أغطية الأسرة، وقد أُحـــضرت كـــذلك قهوة ساخنة. إستير لا تعرف هؤلاء الجنود، كان بعـــضهم صـــغارا، أطفالا تقريبا، وكانوا يقولون: «انتهت الحرب»، ويضحكون.

بـــدت البناية العسكرية شبه وثيرة بعد الليلة التي تمّ قضاؤها تحت المطـــر. لم تكـــن هناك أسرّة كافية للجميع فاقتسمت إستير وإليزابيث نفـــس الـــسرير، وعندما وصل هاربون آخرون أقاموا في المرقد حيث استطاعوا. وعندما لم يعد هناك مكان في البيت العسكري استقرّ الناس في المعبد الذي حطّمت أبوابه.

قرر الناس الأكثر استعدادا عبور الممر الجبلي قبل الليل مع السيد سليغمان. أزالت الريح السحب، وكانت أعالي الجبال في أسفل الوادي تلمـــع من الثلج. كانت إستير في الساحة عندما شرع الفريق في صعود الطريق في أعلى المعبد. تأملتهم وهم يغادرون وتمنت لو كانت معهم، لأنّهم سيصلون إلى إيطاليا مساء، لكنّ أمها كانت مرهقة حتى تواصل السير، وربّما كانت تأمل في وصول والدها هذا المساء.

هـــناك في أسفل المنحدر زريبة بقر مهجورة وسط حقول شاسعة تـــتخللها ينابيع السيل، فكرت إستير أنّ والدها سيأتي من تلك الجهة، تخيلته بصدد نـــزول الجبل وهو يعبر المراعي التي يصل فيها العشب إلى خصره وهو يقفز من صخرة إلى أخرى لعبور السيل.

نـــسيّ أبـــناء الهـــاربين تعبهم وبدأوا يلعبون في ساحة المعبد أو ينـــــزلون المنحدرات جريا وهم يضحكون ويصرخون. تأملتهم إستير وانقبض قلبها عندما تذكرت أنّها نسيت بسببهم ترقب مجيء أبيها من عمق الوادي.

ثم تـــصاعد صراخ الأطفال وتابعتهم مجددا بعينيها، بقيت الغربان في أعلى المعبد، كانت هي الأخرى تحوّم في السماء ناعقة، كأنّها تريد أن تقول شيئا للناس.

جـــاءت بعد ذلك والدة إستير وجلست قربها، أحاطتها بذراعها واحتـــضنتها، لقـــد راقبت طيلة الظهيرة عمق الوادي ومنحدر الجبل القاحل و لم تقل شيئا.

وســـألت إســـتير: «إن لم يـــأت أبـــي مساء، هل ننتظره غدا هاهـــنا؟» أجابت إليزابيث في الحين: «بلى، قال لا يجب انتظاره، يجب المـــشي دون توقـــف- ســـيلتحق بنا إذا في إيطاليا؟- نعم يا حبيبتي، سيلتحق بنا، سيأتي من طريق آخر، إنّه يعرف كل الطرق، ربّما يكون عـــبر بورتمـــون مـــع أصدقائه. الألمان يطاردون اليهود في كل مكان، هلفهمت؟ لهذا يجب المشي دون توقف.»

كانـــت إستير تدرك أنّ أمها تكذب عليها كما في السابق، إنّها تخترع كل هذا لطمأنتها، وكان ذلك يؤلمها في البطن، كلكمة الأولاد ســـابقا قـــرب الكوخ المهجور. «هل يلاحقها الألمان هي كذلك؟» انتفـــضت أمهـــا، كأنّما نطقت كفرا-«لماذا تتحدثين عن راشيل؟»

فأجابت إستير: «لأنّها هي أيضا يهودية.» هزت إليزابيث كتفيها: «لقد تخلت عن كلّ شيء، عن والديها، عن الجميع وذهبت مع الإيطاليين.» غضبت إستير وكادت تصرخ: «لا، هذا غير صحيح! لم تذهب مع الإيطاليين! بل بقيت في القرية مع والديها." سألت أمها "كيف عرفت هذا؟" كررت إستير بعناد: «لم تذهب مع الإيطاليين، بل بقيت مع والديها". "جيّد»، علّقت إليزابيث ببرودة. «أظنها ستتدبر أمرها.» لزمتا الصمت وهما تنظران معا إلى النقطة ذاتها في عمق الوادي، بمحاذاة تخوم الغابة، لكنّ شيئا ما انكسر. ربّما لا تنتظران شيئا.

عتّمت السحب قمم الجبال حوالي نهاية الظهيرة. أصبح هزيم الرعد يرج الأرض بقصف دقيق جعل بعض الهاربين يفكرون في بداية قنبَلة، وبدأوا يصرخون فزعا. طفق المطر ينزل بقطرات كبيرة وركضت إستير لتحتمي بمخبأ المعبد. كان الجو معتما، وإذ لم تكن تبصر شيئا تعثرت في الأجساد. كان الهاربون ممددين على الأرض مدثرين بالأغطية، وكان الآخرون واقفين، متكئين بظهورهم على الحيطان. ثقبت قذيفة الجانب الأيسر من السقف وأخذ المطر يشلّ داخل المعبد.

أشعلت شموع على يمين المذبح رغم تحذيرات الإيطاليين، وبيّن الضوء المتمايل لإستير أشكال وجوه الهاربين. كان أغلبهم شيوخا، مسنين ومسنات مهندمين على الطريقة الروسية أو البولونية، شبيهين بأولئك الذي شاهدتهم في الكوخ يوم السبت وقد حفر التعب والقلق وجوههم.

قرب الشموع، على حافة المذبح، كان الشيوخ المدثرون بقفاطينهم مستديرين نحو الحاخام إيزيك سالنتر الذي كان يقرأ كتابا

بـــصوت مـــرتفع وظهره إلى ضوء الشموع ليبصر جيّدا. كانت إستير متكـــئة إلى حائط المعبد البارد وهي تستمع مجددا إلى الكلمات المبهمة لهـــذه اللغة الدافئة المتقطعة، دون أن تكفّ عن النظر إلى الشيخ الذي تنيره الشموع.

أحـــست من جديد بتلك الرعشة، كأنّ هذا الصوت المجهول لا يرنّ إلا لها، في أعماقها. الصوت الخفيض الألثغ يقرأ الكتاب، وذاك ما يمحـــو تعبها، خوفها وغضبها. لم تعد تفكر في المنحدر الأسود الذي كان أبوها سيأتي من جهته. توقفت عن التفكير في ما يشبه الهوة المرعبة القاتلة، لكنّه مثل طريق طويل جدا، بعيد جدا، ونهايته لغز.

تحـــوّل كل شيء هنا، الجبال حيث يقصف الرعد، الدرب الذي يغـــوص في الـــشعاب، أصبح كل ذلك مثل خرافة تدور فيها العناصر لتجتمع في نظام جديد.

كان المطر يسقط مدرارا خارجا، والماء ينفذ إلى المعبد من خلال الـــسقف المفـــتوح، وكـــان الأطفال ملتحمين بأمهاتهم وهن يرجحن أجـــسادهم بـــبطء، علـــى الإيقاع الهادئ لإيزيك سالنتر الذي يردد كلمات الكتاب.

أبقى الرجل على الكتاب مفتوحا أمام وجهه مطولا وشرع يغني بصوت وقور هادئ لا يرتعش، غنّى معه حينها الرجال والنساء وحتى الأطفـــال، رافقوه دون كلمات. كانوا يعيدون الكلمة نفس وحسب: آي، آي، آي، آي!...

اقتـــربت منها إحدى الفتيات البولونيات، تلك التي لها عينان ذابلتان! من قادت إستير إلى عائلتها، وأخذتها من يدها. تعرفت إليها برغم العتمة. أبـــصرت إستير وجهها في ضوء البرق، كأنّ فرحا داخليا يضيئه وهي تغني مع الأخريات مُرنّحة جسدها ببطء، وشرعت إستير في الغناء.

كان الغناء يرنّ داخل المعبد، فوق انقصاف الماء والرعد. يبدو أنّ القناديل القليلة المشتعلة في حامل الشموع، بمحاذاة الهيكل، ترسل نفس ضوء المعبد في عشية السبت.

دخل المعبد الآن ناس آخرون قدموا من المراقد والبيوت العسكرية. أبصرت إستير أمّها واقفة أمام الباب، تقدمت نحوها دون أن تترك يد الفتاة وقادها إلى غاية الحائط حيث كنّ ماكثات.

كان الليل في الخارج مدلهما، مخططا بالبرق. توقف الغناء تدريجيا، سكت الجميع وهم يستمعون إلى صوت المطر وقصف الرعود المبتعد نحو الوديان. ترنحت أضواء الشموع وانطفأت الواحدة تلو الأخرى. لم يعد أيّ أحد يعرف أين هو. عبرت إستير الساحة لاحقا في ريح باردة وذهبت لتنام في سرير إليزابيث. اقتربتا من بعضهما كي لا تسقطان.

استأنف الجنود الإيطاليون السير فجرا، متبوعين بالهاربين، وكانت السماء زرقاء داكنة في أعلى الجبال المغطاة بالثلج، وكان طريق الحجارة يصعد متعرجا إلى أعلى المعبد. تابع الرّتل السير ببطء وقد عطله الأطفال والشيوخ. كانوا مثل أطياف سوداء في هذا المدّ من الحجارة.

عبرت إستير وإليزابيث ردما شاسعا. لم تتخيل إستير أبدا منظرا كهذا. هناك فوقها سديم من الحجارة، لا شجرة ولا نبتة. الكتل الصخرية متوقفة باتزان على حافة الجرف، وكان الممر من الضيق بحيث تنفصل الحجارة تحت الخطى وتتدحرج إلى أسفل الوادي. لم يتكلم أحد. ربّما بسبب البرد أو الخطر. حتى الأطفال الصغار كانوا يمشون على طول الدرب الضيق دون أن ينبسوا ببنت شفة.

لم يكن يسمع سوى صوت السيل الذي لا يمكن رؤيته في أسفل الوادي، سقوط الحجارة وصفير التنفس.

أرادت إستير في لحظة ما أن تطرح حقيبتها وتجلس، غير أنّ أمّها أخـــذها مـــن يدها في الحال بنوع من القسوة اليائسة وأرغمتها على الاستمرار في المشي.

تـــباعدت الآن أفواج الهاربين. أصبح الشيوخ والنساء المتدثرات بخمـــاراهن السوداء، أولئك الذين انطلقوا من المعبد متأخرين، بعيدا في الخلف. أخفتهم نتوءات الجبال الصخرية من قبل. الآخرون، النساء مع الأطفال يسيرون ببطء دون توقف. الدرب يجانب جرفا أين استطاعت أن تتشبث بعض الأشجار.

نظـــرت إستير إلى الأعلى، هناك أرزية مصعوقة، مسودّة، شبيهة بهيكل عظمي. الجبل يشق السماء في الجهة الأخرى من الوادي، محفوفا بالأشـــواك ومهددا. هناك خوف ما، وجمال الحجارة التي تسطع تحت الـــشمس، والـــسماء الغامضة. ما يخيف أكثر هو ما نبصره في طرف الـــوادي، ما نيمّم شطره منذ يومين، السور المعتم الأزرق، الساطع من الجلـــيد، الغـــارق في سحابة كبيرة بيضاء منطلقة إلى كبد السماء. بدا ذلك بعيدا ومنيعا بحيث أحست إستير بالدوار.

كيف يمكنها الوصول إلى هناك؟ هل يمكن الوصول إلى هناك فعلا أم أنّهـــم كذبـــوا عليهم، وسيضيع كل الناس في الكتل الجليدية وفي السحب وتلتهمهم الصدوع؟

وبعيدا، هناك حيث يتلوى الدرب في سفح الجبل، شاهدت إستير مجـــددا طـــيورا سودا تحوم في السماء، لقد كانت صقورا ساكنة هذه المرّة.

توقـــف الهاربـــون على طول الممر، في حافة المنحدرات. تحققت إســـتير من بعض النساء اللائي كنّ في المعبد. كنّ منهكات من التعب والجـــوع. بقين جالسات على الحجارة على قارعة الطريق، واهنات،

بنظرة جامدة، وكان الأطفال واقفين قربهن، ثابتين صامتين، وإذ عبرت أمامهن نظرت الفتيات إلى إستير. كان هناك ملمح غريب في نظرتهن، شيء غامض ومتوسل، كأنّهن أردن التشبث بها، بالنظرة وحدها.

عندما بلغت إستير وإليزابيث البحيرة، في سفح الجبل الكبير، كانت السحب حجبت الشمس، ومال الضوء. كان ماء البحيرة بلون الجليد، مضاء بثلج حُبيبيّ قسّمه مثل مرآة. جلس أغلب الهاربين على حافة البحيرة، ليستريحوا في عماء الصخور.

لكنّ الرجال والنساء الأكثر سلامة انطلقوا من جديد وشرعوا في صعود الممرّ الجبلي، في حين وصلت إلى البحيرة أفواج النساء والشيوخ المتعبين، الواحد تلو الآخر.

كانت إستير جالسة على صخرة، بعيدا عن هبوب الريح وهي تتطلع إلى الذين يصلون. وقفت إليزابيث عدّة مرات: «هيّا، يجب أن نذهب، علينا أن نسبق الليل.» لكنّ إستير راقبت الطريق كالبارحة عندما كانت تنتظر أباها. والحال أنّه ليس هو من ترغب في وصوله، بل الحاخام الشيخ إيزيك سالنتر، ذاك الذي غنّى وقرأ الكتاب في المعبد. إنّها لا ترغب في الذهاب من دونه، وإذ نفد صبر أمها قالت لها: «رجاء، لننتظر قليلا.»

انقشع السحاب على الحاجز الحجري أمامها مبيّنا للحظة خط الطريق المظلم المتماهي مع الجرف، مابين شعفتين حادتين، ثم أعاد تلحيم الحواف.

بدأ الرعد يقصف في عمق كهوفه. كانت إليزابيث شاحبة ومتوترة، تمشي على حافة البحيرة، ثم تعود إلى الوراء، وكان الهاربون ذاهبين تباعا. لم يبق سوى بعض النساء المسنات، وأخريات مع الأطفال الصغار. لاحظت إستير لما اقتربت من إحداهن، فتاة بولونية

ذات شعر أشقر ملفوف في حجاب أسود، أنّها تبكي في صمت وهي مستندة إلى صخرة. لامست إستير كتفها. كانت تتمنى أن تكلّمها، أن تشجعها، لكنّها لا تعرف كيف تتكلم بلغتها. أخذت عندئذ قليلا من الخبـز والجبن من كيس المئونة وسلّمته لها. نظرت إليها الفتاة دون أن تبتسم وبدأت تأكل في الحال، مائلة على الصخرة لا تزال.

ظهـر أخـيرا أمـام البحيرة فوج من الهاربين، تعرفت إستير إلى الحاخـام إيـزيك سالنتر وعائلته. كان الشيخ يمشي بصعوبة في طريق الحجـارة وهو متكئ على عصاه، وكانت الريح العاصفة تنفخ قفطانه وترفـرف عثـنونه الرمادي وشعره. أدركت إستير بمجرد أن رأته أنّ السيد خارت قواه. جلس على حافة البحيرة، وساعده الرجال والنساء الذين يرافقونه في التمدد على الأرض. أصبح وجهه الموجّه نحو السماء أبيض، مشوها من الحصر.

لمـا اقتـربت إستير سمعت نفسه الضائع يصفر. لم تحتمل ذلك، ابـتعدت واختـبأت بين ذراعي أمها. قالت بصوت خفيض: «أريد الذهاب الآن»، والحال أنّ إليزابيث هي التي لا تستطيع الآن الكف عن النظر إلى الشيخ الممدّد على الأرض.

يتـرنح ضوء السماء. أصبح أحمر، غريبا. يقترب قصف الرعو. تحـوّم العاصـفة. تتمزق السحب الكبرى المظلمة على الجبال وتنغلق بعيدا، تنـزلق مثل دخان ما بين القمم المثلوجة.

وقف الرجل الذي يرافق الحاخام إيزيك سالنتر فجأة واستدار نحو إسـتير وإليـزابيث. قال فقط، وهو لا يكاد يرفع صوته، كما لو أنّها مجـاملات: «الحاخـام لا يقدر على المشي، يجب أن يبقى هنا ليرتاح، اذهـبوا.»قال ذلك أيضا بلغته إ للنساء اللائي كنّ معه. جمعت كلهن بانقياد صررهن وحقائبهن وشرعن في المشي شطر المضيق.

قبل الدخول في الوادي الذي ينغرز في الجبل والضياع في السحب، توقفت إستير لتنظر إلى إيزيك ورفيقه للمرّة الأخيرة، كانا جامدين على حافة البحيرة، نقطتين سوداوين وسط الصخور.

يصعد الدرب متعرجا ما بين الشعاف، لا يمكن رؤية النهاية. كانت السحب السوداء المشحونة بالبرق فوق إستير وأمها مباشرة، كان ذلك مخيفا، ولكنّه كان من الجمال بحيث رغبت إستير في الصعود إلى الأعلى، قريبا من السحب. احمرت بقع الضبابة، انزلقت على نتوءات الحجارة وجرت على طول الأجراف مثل شلالات أثيرية. اختفى كل شيء من تحت إستير وإليزابيث، غدت النساء والهاربون الآخرون متخفيّين، إنّهم يطفون ما بين الماء والأرض. لأول مرّة استطاعت إستير أن تتخيل ما تحس به الطيور، والحال أنّه لم تكن هناك طيور، لا أحد، كانوا في عالم لا تعيش فيه سوى السحب، السحب والصواعق.

عادة ما تحدث ماريو عن الصاعقة التي تقتل الرعاة تحت الشجر أو في أكواخهم الحجرية. قال لإستير إنّ الذين يدخلون منطقة الموت، يسمعون، قبل لحظات من صعقهم، صوتا عجيبا، شبيها بطنين نحل غريب قادم من كل الجهات دفعة واحدة، يدور في رؤوسهم ويجعلهم مجانين. ذاك الصوت هو الذي تترقبه الآن إستير بقلب نابض وهي تصعد طريق الحجارة.

بدأ مطر خفيف يسقط. في الأعلى، على اليمين، هناك حصن صغير معلق في منحدر الجبل، اختبأ رجال ونساء هناك وقد هدّهم التعب وخدّرهم البرد. يمكن رؤية أطيافهم في مدخل المخبأ الكئيب، لكنّ إليزابيث قالت: "لا يجب التوقف هنا، يجب أن نكون في الجهة الأخرى من الحدود قبل الليل." استمرّتا في السير مجهدتين، دون التفكير في شيء. لقد غطاهما الضباب بحيث اعتقدتا أنّهما الوحيدتان اللتان سارتا بعيدا.

انفـــتحت السماء فجأة وأبانت قطعة زرقاء من السماء. توقفت إســـتير وإليـــزابيث منبهرتين. لقد وصلتا إلى الممر الجبلي. تتذكر الآن إستير ما رواه أطفال القرية، تلك النافذة التي انفتحت في السماء عندما هـــرب تمثال العذراء عبر الجبل. كان ذلك هاهنا، النافذة التي نبصر من خلالها الطرف الآخر من العالم.

الـــشمس تسطع على الثلج البارد في عماء الصخور بين القمم، الـــريح مـــثلجة، لكنّ إستير لم تشعر بها. كان الهاربون جالسين وسط الـــصخور ليستريحوا، نساء وشيوخا وأطفالا. لا يتخاطبون. الظهر في مقابل الريح وهم ينظرون من حولهم إلى القمم التي تبدو منـــزلقة تحت الـــسحب. كانـــوا ينظرون بخاصة إلى الجهة الأخرى، إيطاليا، المنحدر المبقّع بالثلج، الأودية الصغيرة الغائمة والوادي الكبير الذي يظلّله الليل. سيـــصبح كـــلّ شيء مظلما بعد قليل، أما الآن فلا أهمية لذلك، لقد أفلحـــوا في اجتـــياز الجـــدار، العائق الذي كان يخيفهم، لقد واجهوا الأخطار والسحب والصواعق.

يتـــرنح الوميض الأحمر في كثافة السحب من أعلاهم، في الجهة ذاتها الـــتي قدمـــوا مـــنها. يدوي الرعد مثل قصف مدفعي متواصل. انطفأت الشمس، انقفلت السماء وطفق المطر يهطل. كان غزيرا وباردا، وكان يحزّ الـــوجه واليدين. تلتصق القطرات بجلد الخروف على صدر إستير. حملت الحقيبة، ووضعت إليزابيث كيس القماش على كتفيها.

قـــام الهاربون الآخرون، وبنفس النظام المتبع للصعود إلى القمة، الـــرجال والشباب في المقدمة، ثم النساء والشيوخ والأطفال، شرعوا في أفـــواج صـــغيرة في النـــزول ليلا إلى أعلى عمق الوادي الذي كانت تصعد منه أدخنة بيضاء، القرى المنسية لستورا التي اعتقدوا أنّها ستكون خلاصهم.

فيستيونا، 1944

كان أطول وقت في الشتاء. وشاح الدخان ينسحب على السطوح في فيستيونا. كان البرد قارسا في الظهيرة، الشمس تغرب باكرا خلف الجبال، وكان وادي ستورا بحيرة ظلّ. تحب إستير كثيرا هذا الظلّ ولا تعرف لماذا، هذا الدخان الذي يخرج من السطوح، الذي يطفو على طول الأزقة، يحيط بفندق باساجييري العائلي، الدخان الذي يغرق الأشجار ويمحو الحدائق.

مشت حينها بمحاذاة الأزقة الخالية وهي تستمع إلى وقع الأحذية الجلدية التي تعكر قليلا السكون الزغب، وكانت هناك دائما كلاب تنبح.

بقيت وحيدة طيلة الشتاء في فيستيونا، وحيدة مع إليزابيث. اشتغلت الاثنتان في فندق باساجييري العائلي مقابل الغذاء وغرفة في الطابق الأول، تحت السطوح، غرفة بباب نافذة مطلة على الشرفة، جهة الكنيسة، وكانت على البرج ساعة متوقفة تشير باستمرار إلى الرابعة إلا عشر دقائق.

إليزابيث واقفة في الشرفة تعلّق أغطية السرير والغسيل، تضع كنزة فوق المئزر. كانت يداها وخداها تشبه في حمرتها يدي وخدي فلاحة، غسل أرضية المطبخ بالصابون والفرشاة، حرق الفضلات في الساحة فجرا، تقشير الخضر، تقديم الأكل للأرانب التي تقدم عادة في المطعم، لكنّها لم ترغب في قتلها أبدا. أنجيلا سيّدة البيت (يشاع أيضا

أنّها خليلة السيّد باساجييري) هي التي تتكفل بهذه المهمة القذرة، تفعل ذلك دون تكلّف: ضربة على القفا وجلد مقلوب والجسد المدمى معلق من قائمتيه.

عندما أبصرت إستير ذلك لأول وهلة هرعت تجري في الأعشاب إلى النهر الكبير. «أريد العودة إلى سان مارتان، لا أريد البقاء هنا، لن يعثـــر عليـــنا هنا أبدا!» جرت إليزابيث في الأدغال، أمسكت بها على حافـــة النهر وقد خدشها العليق الشوكي، صفعت إستير ثم احتضنتها. لأول مرّة تضربها، «لا تذهبـــي يا قلبـــي، يا نجمتي، ابقي معي، وإلاّ متّ.» كرهتها إستير آنذاك، كأنّها هي التي رغبت في كل ذلك، هي التي وضعت هذه الجبال المثلجة بينها وبين أبيها لتخريبها.

لا يوجد زبائن كثيرون في فندق باساجييري العائلي. إنّها الحرب. كـــان هـــناك بعـــض الجوابين التجاريين على طريق فيناديو، كأنّهم ضائعون، وثلاثة فلاحين أو أربعة من القرية الواقعة في الأعلى، أرامل أو مـــسنون لا يـــستطيعون البقاء في المطبخ في بيوتهم. يتحدثون في قاعة المطعـــم ومرافقهم مسندة إلى البساط، وحتى تقدم يد المساعدة، تحضر إســـتير الصحون والحساء والعصيدة والخمرة. يتحدثون بلغتهم الغنائية ويقولون: "وغازا، بطريقة غريبة في نطق "الراء"، كما في الانجليزية، لا يضحكون، لكنّ إستير تحبهم كثيرا، كانوا لبقين جدا ومتحفظين.

كانـــت إستير هي التي ترافق أنجيلا عندما تذهب لشراء المؤونة. أنجـــيلا لا تـــتكلم كثيرا. تنتظر في مدخل المزرعة ليحضروا لها الحليب والخضر والبيض، وأحيانا أرنبا تحمله من أذنيه. قرحتها ليست على ما يرام، إنّها تعرج، و لم تعد تستطيع ارتداء جوربها.

كانـــت إستير تنظر بخوف إلى ذلك الجرح الذي يجذب الذباب، فكرت في البداية بأنّ الأمور ستكون أحسن مع قاتلة الأرانب. بيد أنّ

أنجيلا الكريهة في مظهرها، كانت مليئة بالطيبة والسخاء، تنادي إستير "ابنتي". كانت لها نظرة ذات لون أزرق فاقع، مثل جدتها التي لم تعرفها أبدا.

لا يوجد زمان في فيستيونا، لا توجد لحظة، لم تكن هناك سوى منازل رمادية ذات سقوف ينسحب عليها الدخان، وهناك حدائق صامتة وضباب الصباح الذي تذيبه الشمس ليعود في الظهيرة ويغزو الوادي الكبير.

تنصت إستير إلى الأصوات مساء في الغرفة الصغيرة بانتظار عودة إليزابيث من العمل. كانت ترتعد. نباح الكلاب ينتشر، وقع قباقيب المتقاعدين في ملجأ الأطفال الذين يذهبون إلى الكنيسة ويرجعون، دمدمة صلوات من حين إلى حين.

فكرت إستير بتسجيل ابنتها هنا في المدرسة، في الملجأ، لكنّ الفتاة رفضت دون صخب، دون دموع، «لن أذهب إلى هناك أبدا.» كان الملجأ بيتا كبيرا مظلما بطابق واحد، بمصارع مغلقة بداية من الرابعة، وهو يؤوي دزينة من يتامى الحرب وبعض الشواذ الذين جاء بهم آباؤهم إلى هناك.

يرتدي الأطفال مآزر رمادية، شاحبين، معتلين، وكانت نظراتهم ذليلة. لا يخرجون أبدا من الملجأ إلاّ للذهاب إلى الكنيسة صباح مساء، أو مصطفين يوم الأحد في جولة إلى النهر، محاطين براهبات ورجل طويل يرتدي الأسود ويقوم مقام حاجب. كانت إستير تخشاهم، وكانت تختبئ بمجرد سماع وقع خطاهم في الساحة وفي الأزقة.

شغّلت إليزابيث ابنتها إستير مساء في الغرفة التي ينيرها سراج. انسدت ألواح زجاج الباب النافذة بورق أزرق بسبب القصف. يسمع من حين إلى آخر أزيز الطائرات عاليا في الليل. دويّ حاد يأتي من كل الجهات في آن واحد، دويّ يهيّج القلب.

التحمت إستير بأمها وأسندت رأسها إلى صدرها، كانت يدا إليزابيث باردتين وقد شققتهما مياه الغسيل: «لا تقلقي يا أمي، سيذهبون.»

تسمع أحيانا طلقات رصاص ترنّ في كل الوادي ليلا. كانوا أنصارا، قال براو إنّهم يلقبون **العدالة والحرية**، ينزلون من الجبال لمهاجمة الألمان في جهة ديمونت، أو حيال نزولهم من ستورا، حيث يعبر الجسر المضيق باتجاه بورجو سان دالمازو.

براو ولد في الخامسة عشرة، جيء به كطالب داخلي لأنّه من الحالات المستعصية، فرّ من بيته ليختلس المزارع. كان من الهزال والهشاشة بحيث يبدو ولدا في الثانية عشرة، بيد أنّ إستير تجده غريبا، يهرب في وقت الذهاب إلى الكنيسة ويأتي إلى ساحة الملجأ ليلتقي بإستير. يتكلم الفرنسية قليلا، وبالإشارات كثيرا.

لا تريد إليزابيث رؤيته، لا تريد أن تحدّث إستير أيا كان، كانت تهاب الجميع، وحتى أولئك الطيبين. تقول إنّ براو صبيّ سيء التربية.

تحب إستير المشي مع براو في الحقول وفي تخم القرية. يهرب براو صباحا ويذهبان معا عبر الحقول. الوادي يلمع تحت الشمس. يعرف براو كل الدروب والطرق المختصرة، وحتى دروب الحيوانات وأرانب الغابة، مخابئ التدرج، المناطق الموجودة بين القصب أين يمكن ترصد طيور البلشون والبط البري.

تتذكر إستير ماريو حين كان يمشي في حقول العشب الكبيرة بسان مارتان لمطاردة الأفاعي. يبدو لها ذلك بعيدا، كما في بلد آخر، كما في حياة أخرى.

تذهب مع براو للمشي في مجرى النهر، في جهة روّا. كانت ستورا في الربيع، مع ذوبان الثلج، نهرا يجري من طرف إلى آخر جارفا

الوحل والجذوع وأكوام العشب المنـــزوعة من الضفاف، الخرير بخاصة هـــو الـــذي يدوّخ، يحدث دورانا، تنـــزل الطبقة المائية بيضاء بفعل الدردور وتجرف كل شيء.

كانـــت إســـتير تحلـــم بنـــزول النهر على طوف من الأغصان والعـــشب إلى غاية البحر، وأبعد، حتى الجهة الأخرى من العالم. قال براو لو أنّنا تركنا النهر يأخذنا لوصلنا إلى البندقية، أشار إلى الشرق في أعلى الجبال، أما إستير فلم تفهم كيف تسافر المياه بعيدا جدا دون أن تضيع.

كانـــت هـــناك جـــزر في الطبقة المائية لستورا. نمت الأشجار وأصبحت الأعشاب طويلة. ينقسم النهر إلى عدّة فروع مكوّنا خلجانا ورؤوسا وأشباه جزر، وكانت هناك بحيرات لازوردية.

كانت الغربان تمشي متنقلة على الشواطئ، ثم تطير عندما نقترب، مرسلة نعيقا خشنا يثير القشعريرة. هنا، في طبقة النهر المائية، كل شيء كـــان جيّدا. بإمكان إستير أن تمكث ساعات في الوقت الذي يبحث براو عن السرطانات. هناك كل أنواع المخابئ.

هنا فكرت إستير في أبيها، كأنّه كان قريبا جدا، هناك في جهة ما من جهات الجبل، في كوستا ديل آرب، وفي بيسوزا، يمكنه رؤيتها من أعلى، لأنّ اللحظة لم تأت بعد، لكنّه يشاهدها.

أحـــست إستير بنظرته إليها، كانت دافئة وقوية، مداعبة، كانت نفـــسا، وكانت تمتزج بالريح في الأشجار، بالإصطفاق المستمر للماء على شواطئ الحجارة، وحتى بنعيق الغربان.

الـــشتاء ثم الخريف. كان كل ذلك طويلا جدا، طويلا جدا كما لـــو أنّنا هناك بعيدا في قعر كهف ننظر باتجاه الضوء. كان ذلك بسبب ما حدث هناك في بورجو سان دالمازو، إليزابيث تعرف هذا، لكنّها لم

تـــتحدث عنه أبدا. ماعدا مرّة واحدة لأنّ إستير ذهبت في الطريق مع بـــراو، هناك حيث النهر واسع، بكل فروعه وبكل جزره، أين لا يمكن مشاهدة الجبال بالكاد، لقد ذهبت للبحث عنه.

الـــتقت بهـــا إستير في روّا مع قدوم الليل، كانت ترتدي مئزرها المشجّر وتنتعل حذاءها الجلدي، وكان شعرها مغطى بوشاح أسود مثل فلاحة. احتضنتها إليزابيث، كانت جامدة. لأول مرّة أدركت إستير أنّ أمها هشة، كأنّها شابت دفعة واحدة. كانت خجلى وغاضبة: «لماذا لا تتـــركيني أفعل ما أريد؟ كفاني، أريد أن نذهب من هنا، لن يعثر علينا أبدا هاهنا.»

لم تعـــد تـــريد أن تـــنادي "بابا"، لم تعد ترغب في التفكير بهذه الكلمـــة، لن تثق في أمها. كانت تختنق وقد امتلأت عيناها بالدموع، وكـــان ذلك غريبا. الضباب يعبر الحقول، يتشبث بالأزقة، يصعد مع اللـــيل مـــن طبقة النهر المائية. احتضنت إليزابيث إستير وسارتا ببطء، الرأس مطأطأ قليلا، مع كل قطرات الضباب الملتصقة بالوجه.

«لقـــد أخـــذوا كـــل هؤلاء الرجال، هيلين، أتفهمين؟» كانت إليزابيث تتحدث ببطء، لذا أصبحت يداها مثلجتين. كانت الكلمات بطيـــئة، هادئـــة، ومثلجة أيضا، «لقد أخذوهم كلهم في الطريق، في بورجـــو ســـان دالمازو، قادوهم كلهم، حتى النساء المسنات والأطفال الصغار، وضعوهم في قطارهم، لن يعودوا أبدا، سيموتون كلهم.»

أصبحت إستير، بعد ذلك، كلما سمعت اسم بورجو سان دالمازو، فكـــرت في الـــضباب الذي يصعد من النهر، الضباب الذي يمحو كل شيء، الوجوه والأجساد، الذي يغرق كل الأسماء.

سمعوا في بنايات المحطة أنّ الجنود الألمان أسروهم بسهولة في مدخل بورجو سان دالمازو، كانوا مرهقين من العياء والجوع والنعاس، مرت أيام وهم يسيرون في الدروب المغطاة بالحصى، بلا مأوى. عندما نزلوا الوادي الضيق أبصروا أوّلا كنيسة أونتراك وسقوف القرية. توقفوا بقلوب نابضة، كان الأولاد ينظرون منبهرين، اعتقدوا أنّهم وصلوا، وأن لا خوف الآن، وأنّ الحرب انتهت.

كان الوادي يلمع في هواء الصباح، هناك ألوان الخريف قبل الوقت، خريف منتصر يكاد يكون مسكرا. وبعيدا كان هناك قرع الأجراس الذي يصل في شكل نفحات، ويمكن رؤية بريق طيران الحمام فوق السطوح. كان ذلك مثل وليمة.

شرعوا في السير مجددا وعبروا القرية. الكلاب تنبح أثناء مرورهم، تتبعهم جريا عبر المنحدر. اقترب الأطفال من أمهاتهم، وكان القرويون ينظرون إليهم من عتبات البيوت وهم يعبرون، أغلبهم مسنون، فلاحات وعجائز يرتدين الأسود، ينظرون دون أن ينسبوا، وكانت عيونهم مجعدة بسبب الشمس، بيد أنّه لم تكن هناك عداوة أو خوف.

وإذ كانوا بصدد العبور تقدمت منهن نسوة ومنحنهم خبزا وجبنا طريا وتينا وقلن لهم كلمات بلغتهم.

نزل الفريق مع الوادي إلى فالديبري، عبروا العرض متقفين نهر جيسو. كان الأطفال ينظرون مندهشين إلى الواجهات العالية، قبة الكنيسة، وقمة القبة العالية مثل منارة. هناك أيضا طيران الحمام المترنح

في الـــسماء حول القبر، قرع الأجراس، الدخان المتصاعد حاملا رائحة الأكـــل، نـــيران العشب اليابس في النوادر، خرير الماء المنسكب على الحصى وحفيف ليّن يتحدث عن المستقبل.

ذهبوا نحو القطار، سيسافرون إلى جنوى، إلى ليفورن، وربّما إلى رومـــا، ســـيأخذون زورق أنجيلو دوناتي. لم تعد هناك حرب، يمكن الذهاب إلى أي مكان، يمكن أن نبدأ حياة جديدة.

عندما بلغت الشمس السمت توقفوا على حافة النهر للاستراحة. اقتسمت النساء المؤونة، خبز سان مارتان والخبز الطازج، الجبن والتين الذي منحهن إياه القرويون أثناء العبور، في أنتراك وفالديري.

بـــدا لهم حينئذ أنّ ذلك مجرد جولة، نـــزهة ريفية رغم الحقائب والحـــزم، رغم جراح الأقدام، الألم والحمّى التي تلهب عيون الأطفال. النهر يسطع تحت الشمس، وهناك في السماء ذباب معلق، وثمة طيور في الأشجار.

جلـــسوا في شواطئ الحصى ليقتاتوا، سمعوا موسيقى حرية النهر. شرع الأطفال في اللعب والجري في عرض النهر، وصنعوا سفنا من قطع الخـــشب. كان الرجال جالسين، يدخنون ويتحدثون، يتحدثون عما ســـيفعلونه هـــناك في الجهة الأخرى من الجبال، في جنوى وليفورن، وهناك من تحدث عن البندقية، عن ترياست وعن البحر الذي سيعبرونه إلى أرض إسرائيل.

تحدثوا عن أرضهم، عن مزرعة ووادٍ. تحدثوا عن مدينة الضوء المشعة بقبـــبها وصـــوامعها، هناك حيث مؤسسة الشعب اليهودي. ربّما حلموا بوصولهم قبلا، وبأنّ قبب فالديري وأبراجها كانت على أبواب أورشليم.

واصـــلوا الـــسير سريعا لأنّ الليل وصل إلى عمق الوادي. قبض علـــيهم جـــنود الفيرماخت في مدخل بورجو سان دالمازو، في طريق

المحطة. جرى كل شيء بسرعة، دون أن يفهموا بالضبط ما جرى لهم. كـــان أمامهم جنود يرتدون معاطف خضراء، هناك في طرف الطريق الـــضيق الـــبارد، وكانـــت الشاحنات تسير ببطء، بأضوائها المشتعلة. تدفعهم مثل قطيع.

وصـــلوا حينـــئذ إلى غاية المحطة، هناك أدخلهم الجنود إلى بناية كبيرة، على يمين المحطة. دخل الجميع متعاقبين، إلى أن امتلأت القاعات الكبيرة وأوصد الألمان الأبواب.

إنّـــه اللـــيل. الأصوات ترنّ حول المحطة، لا يوجد ضوء، ماعدا أضـــواء الشاحنات الخافتة. جلست النساء على الأرض قرب رزمهن والتـــصق منهن الأطفال، كان هناك بكاء أطفال، شهقات، همسات. دخـــل برد الليل إلى القاعات الكبيرة من خلال الزجاج المكسور، ومن خـــلال الـــسياج. لم يكن هناك لا أثاث ولا أسرّة. في طرف القاعة الكبرى مراحيض مسدودة تنبعث منها رائحة كريهة، وريح الليل تعبر الأطفال المرعوبين. نام الصغار أخيرا.

حـــوالي منتصف الليل أيقظتهم أصوات القطارات التي تصل، التي تـــناور، الـــصرير، تـــصادم العربات وصفير القاطرات، وكانت هناك صـــفارات. حاول الأطفال معرفة ما يجري، عاود الصغار التباكي، لم تكن هناك أصوات رجال، ماعدا ضجيج الآلات، ولم نكن في جهة من الجهات.

فتح الجنود الأبواب فجرا من جهة السكك الحديدية ودفعوا الرجال والنـــساء إلى القاطرات التي بلا نوافذ، المصبوغة بألوان تمويهية. كان الجو بـــاردا ودخـــان العربات ينتشر في شكل دخان وامض. تشبث الأطفال بأمهـــاتهم، ربّمـــا كانـــوا يتـــساءلون: "إلى أيـــن نحن ذاهبون؟ إلى أين يأخذوننا؟". كان كل شيء فارغا: الأرصفة، بنايات المحطة وحوالي المدينة.

لم تكن هناك سوى وجوه الجنود الشبحية، أولئك الذين يرتدون معاطفهم الطويلة وهم واقفون على مسافات بعيدة وسط دخان القطارات.

ربّما حلم الرجال بالهرب، يكفيهم نسيان النساء والأولاد والجري عبر السكك والقفز في المنحدرات، ثم الاختفاء في الحقول. كان الفجر مديدا وساكنا، دون صراخ ودون أصوات، دون طيور ودون نباح الكلاب، ما عدا نفخ العربات وصرير المرابط، وهناك الكشط الحاد للعجلات عندما تبدأ في التزلج على السكك وقت ارتجاج القطار لرحلة بلا هدف، تورينو، جنوى، فانتيمي.

الأطفال المتلاصقون بأمهاتهم، رائحة العرق والبول اللاذعة، ضربات الناقلات، الدخان الذي يتسرب إلى القاطرات العمياء وضوء الفجر من خلال شقوق الأبواب، تولون، مرسيليا، أفنيون، صوت العجلات، بكاء الأطفال، أصوات النساء المختلفة، ليون، ديجون، مولون، ثم السكون الذي يعقب توقف القطار، وهذه الليلة الباردة، هذا الثبات المذهل، درانسي، الانتظار، كل هذه الأسماء وهذه الوجوه التي تنمحي، كأنّهم كانوا أخوات وإخوة انتزعوا من ذاكرة إستير.

يذهب اليتامى إلى كنيسة فيستيونا كل عصر، مع الغسق. مرّة هرب براو مساء والتقى بإستير في الساحة. "تعالي"، ودلها على الكنيسة. لم ترغب إستير في ذلك. كانت تستفظع وقع خطوات الأطفال والدبيب الآتي للصلوات. كان على مقربة من الباب ذاك الرسم العجيب، العذراء تدوس على تنين.

أخذ براو إستير من يدها وقادها إلى وسط الكنيسة. كأنّها مغارة سوداء، كانت تفوح برائحة الخشب المشمع، وفي مؤخرة الكنيسة، في كل جهة من جهات المذبح نجمة صغيرة من الضوء ترتعش في البرد. اقتربت إستير من الأضواء، كأنّها لا تستطيع الكفّ عن النظر.

بعـــد لحظـــة جذبها براو من ذراعها، بدا قلقا. لم يفهم. أخذت إستير أحد هذه الأضواء وبدأت تشعل الشموع، الواحدة تلو الأخرى. لم تـــدرك لماذا فعلت ذلك، كانت ترغب في رؤية الضوء يسطع، كما في ذلك المساء بسان مارتان عندما دخلت الكوخ في أعلى القرية، مع كل تلك الشعل التي كانت ترتجف.

إنّـــه الآن الضوء نفسه. كأنّ الوقت لا يمرّ، كما لو أنّنا مازلنا في الجهـــة الأخـــرى، قبل حاجز الجبال، والشعل تثقب الظلّ وتنظر إليك.

عـــيون الـــناس هـــي التي تراك هناك، الأطفال، النساء، سيسيل بـــشعرها الجميل الأسود، أصوات الرجال التي تهدر، تصدي كعاصفة، ثم تغـــدو لينة متمتمة، وكلمات الكتاب بتلك اللغة العجيبة التي تدخل الأعماق دون أن تفهمها.

كانت إستير تحمل في يدها شعلة وهي تجوب الكنيسة وتوقد كل الـــشموع حـــيث وجدت في الزوايا أمام التماثيل، وفي كل جهة من جهـــات المـــذبح. بقي براو واقفا قريبا من المدخل، يتأمل دون تعليق، لكنّ عينيه كانتا تلمعان بدورهما.

كانت الفتاة تراوح بتهيج، تولّد نجوما أخرى من الضوء، أمّا الآن فإنّ الكنيسة تشعّ كما لو أنّها على أهبة احتفال. الشموع تشع، تخلّف حرارة حادة، شبه سحرية.

بقـــيت إستير واقفة وسط الكنيسة وهي تنظر إلى لمعان الشموع. تـــركت الحرارة تدخل إلى أعماقها، كما لو أنّهم كانوا كلهم هناك، لحظـــة أخرى، فقط لحظة أخرى. أحست بالقوة في نظرات الرجال، سمعـــت رنّـــة أصواتهم الحادة، وتلك الحركة البطيئة لتأرجح أجسامهم وهم يغنون، والكنيسة التي تهتز عن آخرها وتترنح كسفينة.

لكنّ ذلك لم يستغرق سوى لحظة قصيرة لأنّ باب الكنيسة انفتح فجـــأة وانفجر صوت الحاجب. كان الرجل الذي يرتدي الأسود يشدّ بـــراو من ياقة مئزره. استحت إستير، كان عليها البقاء لمساعدة براو، غـــير أنّهـــا خافت وهربت جريا، وإذ وصلت إلى الملجأ أغلقت على نفـــسها في الغرفة، مع ذلك فإنّها توهمت سماع نداء براو ووقع قباقيب اليتامى الملعونين وهم ذاهبون إلى الكنيسة مصطفين.

يدخلـــون كـكـــل مساء إلى المغارة المعتمة ويجلسون على المقاعد الـــسارّة، البنات يسارا، والأطفال حليقو الشعر يمينا، بمآزرهم القديمة الرمادية التي تآكلت من المرافق، وكان براو معهم يتوجع من ظهره بعد الضربات التي تلقاها.

كـــان ذلـــك في نهاية الصيف. كنا نعرف أنّ الألمان شرعوا في الانسحاب، وأنّهم ذاهبون نحو الشمال. تحدث براو عن هذا، وكذلك الناس في مطعم باساجييري العائلي، تحدثوا عن رجال **العدالة والحرية** الـــذين التقوا عند عذراء كوليتو، في أعلى فيستيونا. ضمت إليزابيث إســـتير بقوة. تبدّل صوتها. لم تستطع أن تشرح كما يليق: "سنعود إلى بيوتـــنا قريبا. انتهى كل شيء، سنذهب قريبا إلى فرنسا." لكنّ إستير كانـــت تنظـــر إليها بقسوة. "سنذهب غدا؟" أومأت لها إليزابيث بأن تسكت. "لا يا هيلين، يجب أن ننتظر، ليس الآن."

تظاهرت بعدم الفهم، كما لو أنّ شيئا لم يكن، كما لو أنّ كل شـــيء طبيعـــي. لم ترغب حتى في مناداتها باسم "إستير"، كان اسما يخـــيفها. تحـــررت إستير، خرجت من الغرفة الصغيرة، نـــزلت إلى الساحة وابتعدت إلى جهة الحقول، أحست بغثيان، وبوريد يرتعش في صدرها.

ذهـــبت إستير في الصباح الباكر من اليوم التالي نحو كوليتو، كان الجبل شامخا أمامها، مغطى بأشجار الأرزية التي أفسدها الخريف، يتعرج الطريق مباشرة بعد منازل فيستيونا الأخيرة.

قـــبل عام نـــزلت إستير وإليزابيث مع الطريق نفسه قادمتين من فالـــدييري، كانت المسافة بعيدة، مع أنّ إستير تحس بأنّها تضع أقدامها علـــى آثارها تماما. لم يهطل المطر منذ مطلع الصيف، الطريق يتفتت، الحجارة تتدحرج. كان هناك عشب يابس وفير على المنحدر.

اجتازت إستير المنعرجات سالكة مختصرات بين الأدغال. صعدت دون أن تلتفت إلى الوراء وهي تتشبث بالشجيرات. كان قلبها يدق بقوة في صدرها، وشعرت بقطرات العرق تبلل فستانها وظهرها وتحزّها تحت إبطها.

لا صوت في الغابة، ما عدا نعيق الغربان الخفية من حين إلى آخر. كان الجبل جميلا ووحيدا وشمس الصباح تلمّع قمم أشجار الأرزية وتنشر رائحة الأدغال.

فكرت إستير في الحرية. **العدالة والحرية**. يقول براو كانوا هنا، في أعلى الجبل، كانوا موجودين قرب المعبد. ربّما استطاعت أن تكلمهم، ربّما يعرفون شيئا ما. سيكون هناك ترستان وراشيل وجوديت، وكل ناس القرية، الشيوخ الذين يرتدون القفاطين والنساء اللائي يلبسن فساتينهن الطويلة وشعرهن المغطى بأوشحة، وكذلك الأطفال، كل الأطفال الذين يجرون في الساحة حول النافورة، أو يركضون في شارع الينبوع، إلى غاية حقول الأعشاب على حافة النهر.

لكنّها لا تريد التفكير في كل هذا. إنّها ترغب في الذهاب بعيدا، الذهاب إلى حد المحيط، ربّما إلى بروتون. كثيرا ما كانت تتحدث من قبل، مع أبيها، عن بروتون، وعدها بأن يأخذها إلى هناك. لهذا تتسلق الجبل، حتى تكون حرة، حتى لا تفكر مرة أخرى. عندما تكون مع رجال **العدالة والحرية**، سوف لن تكون بحاجة إلى التفكير في شيء، سيكون كل شيء مختلفا.

وصلت إستير إلى المحراب قبل منتصف النهار بقليل. كان المعبد مهجورا والباب مغلقا، وكان زجاج بعض النوافذ مكسورا، وتحت السقيفة آثار رصاص. هناك ناس أكلوا هنا، وربّما ناموا كذلك، بقيت هناك قطع من الورق المقوّى وأغصان جافة.

تسلقت إستير إلى الينبوع في أعلى المحراب، شربت ماء باردا جدا ثم جلـــست تنتظر. كان قلبها ينبض بقوة. لقد خافت. كل شيء كان ساكنا، ما عدا هبوب خفيف في أشجار الأرزية، لكنّها سمعت تدريجيا أصـــواتا أخرى، طقطقات على الحجارة، حفيفا في الأدغال، أو عبورا خفـــيفا لحشرة، زقزقة عصفور بعيد في الأدغال. كانت السماء زرقاء، بلا سحب وكانت الشمس لاهبة.

لم تـــستطع إستير الانتظار أكثر. بدأت تجري كما في السابق في طـــريق روكبيلـــيير عـــندما أخذها غاسباريني لمشاهدة حصاد القمح وأحـــست بفـــراغ ينفذ إلى أعماقها، الخوف من الموت. ركضت في طريق فالدييري إلى حد المنحنى الذي يُشاهد منه الوادي، وهناك توقفت وقـــد خـــارت قواها. إنّها ترى أمامها كل شيء، كما لو أنّها كانت طائرا.

أضاءت الشمس وادي فالدييري. عرفت كل البيوت، كل مستل، إلى غايـــة أنتراك التي جاءت منها إليزابيث. كانت فسحة كبيرة تهب الريح من خلالها.

جلـــست عندئذ على الأرض، على قارعة الطريق ونظرت بعيدا، لى جهة الجبال. القمم الحادة تخدش السماء، يمتد ظلّها على المنحدرات إلى غاية الوادي، وفي الأسفل تماما يلمع الجليد مثل حُلية.

قبل سنة عبرت إستير وإليزابيث هذه الجبال مع كل الناس الفارين مـــن الألمان. تتذكر إستير كل لحظة، مع أنّ ذلك يبدو لها بعيدا جدا، كمـــا في حـــياة أخرى، تغيّر كل شيء، أصبح الآن ما كان في الجهة الأخرى من الجبل مستحيلا، وربّما لم يبق أيّ شيء.

يكـــوّن هـــذا ثقبا في بطنها، نافذة يمرّ منها الفراغ، ذاك ما رأته، وهـــي تتذكـــره كلما اقتربت من الجبل، قبل عبور الممرّ الجبلي، نافذة

وهمية حيث تسطع السماء، وقد يكون ذلك حلما رأته، تماما قبل أن تنغلق السحب على إليزابيث وعليها وتطمسها في النسيان. لم يستطع وقتها فدائيو **العدالة والحرية** أن يفعلوا شيئا. هل يمكن التخلص من الظلال؟

انحدرت الشمس نحو الجبال الشامخة. أحست على وجهها بالسير نحو الظلمات، هناك يوجد الجبل الذي يسميه الناس تحديدا قمة الظلمات.

سعت إستير إلى عدم الكفّ عن النظر إلى عمق الوادي والعبور وسط الجليد. يمتد الظلّ ببطء، يغطي الوادي ويغرق القرى. تسمع الآن إستير أصوات الحياة، نباح الكلاب، رنين الأجراس، وحتى صراخ الأطفال. جلبت الريح رائحة الدخان، كان يوما كبقية الأيام هناك في الأسفل، لا أحد يفكر في الحرب.

من بعيد تبدو قبة جولا أكثر فأكثر بعدا، إنّها تسبح فوق الضباب، خفيفة مثل سحابة. تتأمل إستير. الشمس تقترب نحو الجبال، فكرت في إليزابيث هناك في الأسفل، في فيستيونا. لا بدّ أنّها ارتدت صداريتها فوق المئزر بسبب البرد والليل الذي أرخى سدوله.

قد يكون براو بصدد الترقب في الساحة، إنّه الوقت الذي يستعد فيه أطفال الملجأ إلى المشي نحو الكنيسة. نظرت إستير دقائق أخرى إلى وادي فالديبيري، إلى الخط الحاد للمجلدات، كما لو أنّ أحدهم سيجيء ويسير إلى غاية القرى السوداء من الدخان، رجل طويل جدا يعبر السيول ونوادر العشب، ظهره مقابل الشمس، وستشعر أخيرا بظلّه فوقها.

إستير

ميناء ألون، كانون الأول 1947

أنـــا في الـــسابعة عشرة. أعرف أنّي سأهاجر هذا البلد نهائيا. لا أعـــرف إن كنت سأصل إلى هناك، لكنّنا سنذهب قريبا، أمي جالسة لصقي في الرمل في مخبأ البيت الريفي الخرب، هي نائمة وأنا أنتظر، إنّنا ملتفـــتان في الغطاء العسكري الذي منحنا إياه العم سيمون روبان قبل مغادرتنا.

إنّـــه غطـــاء للجيش الأمريكي، صلب ومنيع، وكان متمسكا به كـــثيرا. سيمون روبان هو صديق أمي، وصديقي أيضا. هو الذي اهتم بكل شيء يخص سفرنا. استقبلنا سيمون روبان بعد الحرب وقت مجيئنا إلى بـــاريس مـــن دون أبـــي. كان صديق أبـــي، يعرفه جيّدا، ولهذا استقبلنا.

آوانا في بداية الأمر في مرآب لأنّه لم يكن متيقنا من نهاية الحرب، ومـــن عدم رجوع الألمان، ولمّا فهم بأنّ الحرب انتهت فعلا، وبأنّه لا يوجد مبرر للتخفي، ترك لنا نصف شقة في شارع جرافيليي، وفي الجزء الآخر كانت هناك عجوز عمياء اسمها السيّدة دالو. هناك أقمنا.

لكنّـــنا لا نملك اليوم مالا ولا نعرف إلى أين نذهب، لا مكان لنا في أي مكـــان. قال سيمون روبان لأمي إنّ المسألة لا علاقة لها بالمال، ولكـــنّ ذلـــك من أجل حياتنا، حتى ننسى: "ألا يجب نسيان ما غطاه التراب؟"، قال هذا وأنا أتذكر جيّدا، ولم أفهم ما أراد قوله. كان يشدّ على يدي أمي وهو ينحني على الطاولة. كان وجهه قريبا جدا من وجه

أمـــي، وكـــان يقول ويكرر: «**يجب الذهاب من أجل النسيان، يجب نسيان ذلك!**» لم أفهم ما كان يقصده، ماذا يجب أن ننسى، ماذا غطى التراب؟ أعرف الآن أنّه كان يقصد أبـــي، ذاك ما كان يقوله، أبـــي غطاه التراب ويجب نسيانه.

أتذكـــر العم سيمون روبان ووجهه الشائخ المتورّم، القريب جدا مـــن أمي، هي الجميلة، الشاحبة، الهشة، الشابة، أتذكر وجهه مع ظلّ عينيه الكبيرتين وهذبيهما الأسودين. حتى بالنسبة إليّ، أنا ابنتها، كانت تبدو لي شابة وهشة مثل فتاة صغيرة. أظنها كانت تبكي.

هنا، وصلنا إلى هنا في ضوء الفجر الخافت بعد أن مشينا في الليل تحت المطر. مشينا من محطة سان-سير ونحن نستمع إلى هبوب الريح في الغابـــة، صوت عصف كان يطاردنا باتجاه البحر. كم من ساعة مشينا علـــى غير هدى، يرشدنا ضوء المصباح اليدوي الباهت وقد بللنا المطر البارد؟

كان المطر يتوقف لحظات ولا نسمع الريح. يتلوى الطريق الموحل مـــع الروابـــي وينـــزل إلى عمق الوديان. دخلنا مع مطلع الفجر إلى غابـــة أشجار الصنوبر العملاقة في عمق أحد الوديان. كانت جذوع الشجر واقفة في ألق البحر الغامض، وذاك ما جعل قلوبنا ترتجف، كأنّنا كنا نمشي في بلد مجهول.

أنـــــزل الـــرجل الذي يقودنا جميع الناس بمحاذاة خرائب بيت ريفـــي، ثم عـــاد من حيث أتى. جلست أمي على الأرض، في الرمل، وهي تتألم من رجليها وتشخر قليلا.

انتظـــرنا في ضوء الفجر الباهت، كانت الريح تهب، ريح باردة تحاول النفاذ إلى قوقعة الغطاء المبلل. كانت أمي ملتصقة بـــي. كادت أن تنام في الحال. أنا لا أتحرك كي لا أوقظها، إنّي متعبة جدا.

الـــسفر بالقطار من باريس. كانت القاطرات مكتظة، ولا مكان للجلـــوس. تمـــددت أمـــي أرضا على ورق مقوّى، في الرواق قرب المـــراحيض، وبقـــيت واقفة أكثر مدة ممكنة لأحرس حقائبنا. حقيبتان معززتان بالخيط، وبداخلهما كل كنوزنا، لباسنا، وسائل الزينة، كتبنا، صـــورنا وذكريات. جلبت أمي كيلوغرامين من السكّر، وكانت تقول لابد أنّه مفقود هناك. أنا لا أملك ملابس كثيرة. جلبت فستان الصيف الـــرقيق الأبـــيض، قفازات، جوارب للاحتياط، وبخاصة الكتب التي أحـــبها، الكتب التي كان يقرأها علينا أبـــي من حين إلى آخر، مساء، بعـــد العـــشاء، **نيكولا نيكليبـــي، ومغامرات السيّد بيكويك**، إنّها الكـــتب الـــتي أفضلها، عندما أرغب في البكاء أو في الضحك، أو في الـــتفكير في أمر آخر. يكفيني أن أحمل أحد هذه الكتب وأفتح مصادفة لأجد في الحين المقطع الذي أحتاج إليه.

لم تجلب أمي سوى كتاب واحد منحه العم سيمون روبان لأمي قـــبل أن ترحل، سفر التكوين، هكذا يسميّ. نامت أمي على أرضية الـــرواق القذر للقاطرة رغم اهتزازات الناقلات وباب المراحيض الذي يخفق قرب رأسها والرائحة...

كان هناك من يريد استعمال دورة المياه من حين إلى آخر ويصل إلى طرف الرواق، وإذ يرى أمي نائمة على الأرض على ورقها المقوّى يعود ليبحث في جهة أخرى. مع ذلك فإنّ أحدهم أراد الدخول. تسمّر أمـــام أمي وقال: "معذرة!."، كما لو أنّها ستستيقظ سريعا وتنهض. ظلّـــت نائمـــة، وصـــرخ حينها عدة مرات برفع صوته أكثر فأكثر: "معـــذرة!. "معـــذرة!. "معذرة!." ثم انحنى لإزاحتها جانبا. لم أعرف وقتها ماذا حصل لي، لكنّي لم احتمله: لا، هذا الرجل البدين الذي لا يـــرحم يـــريد إيقاظ أمي للذهاب إلى دورة المياه مطمئنا. قفزت عليه

وبـــدأت أتـــرعه بلكمات وأصفعه، دون كلمة، ودون صراخ، بكفّين مـــشدودتين ودموع في العينين. أما هو فقد تراجع، كأن قطا مسعورا قفـــز عليه. دفعني وشرع يصرخ بصوت حاد غريب، مليء بالغضب والخوف: "ستعرفين من أنا! سترين!" ثم ذهب.

نمت حينها على الأرض، بمحاذاة أمي التي لم تستيقظ، احتضنتها ونمـــت قلـــيلا، كان نوما مليئا بالأصوات والاهتزازات جعلني أشعر بالغثيان.

المطـــر ينـــزل في مرسيليا. انتظرنا القطار ساعات على الرصيف الـــشاسع. أنا وأمي لسنا وحيدتين. هناك ناس كثيرون مكدسون على الأرصـــفة وسط الأمتعة. انتظرنا طوال الليل. الريح الباردة تهبّ على الأرصـــفة والمطر يشكل ضبابة حول الأضواء الكهربائية. الناس ينامون علـــى الأرض لصق حقائبهم، هناك من هم ملفوفون في أغطية الصليب الأحمر. وثمة أطفال يبكون ثم ينامون فجأة وقد هدّهم التعب، ورجال يرتدون الأسود، يتحدثون بلغتهم بلا انقطاع. يتحدثون ويدخنون وهم جالسون على أمتعتهم، وكانت أصواتهم تصدي بغرابة في فراغ المحطة.

عندما نـــزلنا في مرسيليا، قبل الليل بقليل، لم يحدّثنا أحد، لكنّها إشـــاعة انتقلت من هذا إلى ذاك على طول الرصيف: لن يكون هناك قطار باتجاه تولون قبل الثالثة أو الرابعة صباحا. ربّما وجب قضاء الليل كلـــه في الانتظار على الأرصفة. ولكن أين تكمن المشكلة؟ لقد توقف الـــزمن بالنسبة إلينا، إنّنا نسافر، نحن خارجا منذ زمن بعيد، في عالم لا يوجد فيه وقت.

رأيـــته آنذاك على الرصيف نفسه، تحت الساعة الكبيرة التي تشبه قمـــرا شاحبا. كان على رصيف المحطة في باريس قبل انطلاق القطار، كان ذلك منذ وقت حيث حسبته أسابيع، يسير وسط الجمع في الوقت

الذي كان في القطار يدخل إلى المحطة، مع قسوة الدخان المتدفق وصرير المكابح. كان طويلا، نحيلا، بشعر ولحية مذهبة يضفيان عليه هيئة راع، أقــول هــذا لأنّــي أعرف الآن أن اسمه جاك بيرجي، لهذا منحته هذا اللقب! الراعي.

تخلــل الجمــع باحــثا بنظرته عن شيء ما، أحدهم، قريب من الأقــارب، صديق، وعندما وصل إلى علوّي توقفت نظرته عليّ مطوّلا بحيث استدرت، وحتى لا يراني أحمرّ انحنيت على حقيبتي، كأنّي أفتش عن شيء ما.

نــسيته، لم أنــسه تماما. لكنّ القطار، صوت الناقلات، الهزات، وأمّــي النائمة كطفل مريض، الممددة أمام باب دورة المياه. منعني كل هــذا من التفكير في أي شيء. إ...! أكره الأسفار حقا! كيف يمكن ركــوب القطــار أو السفينة للمتعة! أرغب في البقاء طوال حياتي في المنطقة نفسها، في النظر إلى مرور الأيام والسحب والعصافير، في الحلم. في الطرف الآخر من الرصيف كما في باريس، يقف الراعي المعني، كما لــو أنّه ينتظر أحدهم، فردا من العائلة أو صديقا، أرى، رغم المسافة، نظرته في ظلّ محجري العينين.

ربّمــا ســنبقى في الانــتظار طيلة الليل على الرصيف، لذا من الأحــسن أن ننتظم. وضعت الحقيبتين أفقيا، كانت أمي جالسة على الأرض وأعلى جسدها مسند إلى الحقيبتين. أنا عازمة على محاكاتها بعد قليل. متى ينتهي كل هذا؟ يبدو لي اليوم أنّي لم أتوقف أبدا عن الأسفار منذ ولادتي، في القطارات، في الحافلات، في طرق الجبال، ثم إنّي أذهب مــن ســكن إلى آخر، في نيس، في سان مارتان، في فيستيونا، ثم نيس ثانية، وأورليون، في باريس إلى غاية انتهاء الحرب. هناك فهمت أنّي لن أســتطيع أبدا التوقف عن الأسفار، أنّي لن أستريح مطلقا، أريد أن لا

أفكـــر أبدا بسان مارتان، في بورتمون، قالت أمي مرّة إنّ هذه الأسماء ملعونة لا يجب ذكرها، لا يجب التفكير فيها مطلقا.

كلّمني الراعي قبل قليل وأنا عائدة من دورة مياه المحطة. مررت تحت الساعة الدقاقة وكان هناك جالسا على حقيبة وسط ناس نيام. كـــان قربه فريق اليهود الذين يرتدون الأسود، يتحدثون ويدخنون. قال لي: «صباح الخير آنسة»، وقال لي بصوته الخفيض نوعا ما: «إنّه لأمـــر شـــاق الانـــتظار في الرصيف»، و«ألا تشعرين بالبرد؟» بنبرة باريسية على ما أظن، لاحظت أنّ له ندبا صغيرا قرب الشفة. فكرت في أبـــــي لأنّي كنت مرهقة، يائسة من فرط التعب. أظنني دمدمت شيئا قبيحا لأذهب سريعا، لأرتاح ونصفي الأعلى مسند إلى الحقيبتين والـــرجلان مثنيتان جانبا، قريبا جدا من أمي. أظنني لم أفكر أبدا في إمكانية وفاتها.

الليالي طوال عندما ننتظر القطار في جوّ بارد. لم أنم لحظة واحدة رغم التعب، ورغم الفراغ الذي كان يحيط بـــي، لم أتوقف عن النظر مـــن حولي، كأنّي أريد التأكد من عدم تغير الأشياء، من أنّ كل شيء مازال حقيقيا. كنت أنظر إلى هذا، المحطة الشاسعة ذات الكوّة الكبيرة المـــزيّنة بالـــزجاجحيث يجري المطر، الأرصفة التي تضيع حدودها في الظلام، الهالات حول المرايا العاكسة، ثم أفكر: أنا هنا، هو ذاك. أنا في مرسيليا، آخر مرّة في حياتي أرى هذا. يجب أن لا أنساه أبدا، حتى لو عشت أطول من السيّدة دالو، العجوز العمياء التي اقتسمت معنا الشقة في 26 شارع جرافيليي. ليس لي أن أنسى أي شيء من هذا. استقمت حينها قليلا مستندة إلى الحقيبتين القديمتين ونظرت إلى الأجساد الممددة علـــى الرصـــيف لصق الحائط، وإلى الناس الغافين على المقاعد مدثرين بأغطيتهم، كأنّهم جثث، ملابس مهملة.

كانت عيناي ملتهبتين وكنت أحس بدوار في الرأس وأسمع صوت الأنفاس، ثقيلا وعميقا. أحسست بالدموع تسيل على الخدين، بمحاذاة الأنف، تقطر على الحقيبة، دون أن أعرف لماذا كانت تخرج من عينيّ. تحــرّكت أمـــي قليلا في نومها، كانت تتأوّه، داعبت شعرها حتى لا تستيقظ، كما نفعل مع ولد. الساعة الدقاقة تكشف هناك عن وجهها الـــشاحب، وجــه القمر حيث الساعات تمرّ ببطء، ساعة، ساعتان، ساعتان ونصف، حاولت رؤية الراعي في طرف الرصيف، تحت الساعة الدقاقة، لكنّه اختفى، أصبح بدوره جثة، خرقة مرمية.

فكّـــرت حينئذ، وخدي مسند إلى الحقيبة، في كلّ ما جرى، في كـــلّ مـــا سيقع، هكذا، ببطء، بسلك طريق بلا تبصر، كما نكتب رســـالة. فكرت في أبـــي عندما ذهب، في آخر صورة احتفظت بها، طـــويل، قوي، وجه حنون، شعر مجعد أسود قاتم، نظرته، كما لو أنّه يـــريد أن يعـــتذر، كما لو أنّه ارتكب حماقة. لحظة، كان هنا، يقبلني، يضمني إليه إلى أن ينقطع نفسي، وكنت أضحك وأدفعه قليلا، ثم ذهب أثـــناء نومـــي دون أن يترك سوى صورة هذا الوجه الوقور، وهاتين العينين اللتين تبحثان عن الاعتذار.

أفكر فيه. أتظاهر أحيانا بأنّنا سنلتقي به في هذه الرحلة. منذ وقت طـــويل تـــدربت على التظاهر إلى أن أؤمن بذلك، من الصعب تفسير هـــذا. كما التيار الذي يمرّ من المغنطيس إلى الريشة الحديدية، في لحظة تهتـــزّ الريشة، تتحرك. في اللحظة التي تعقبها تلتصق الريشة بالمغنطيس بسرعة، دون أن نبصر شيئا. أتذكر عندما كنت في العاشرة، كان ذلك في بداية الحرب وقت هربنا من نيس إلى سام مارتان. أخذني والدي في ذلك الصيف إلى أسفل الوادي لمشاهدة الحصاد، ربّما إلى الجهة نفسها الـــتي عـــدت إليها بعد ثلاث سنين مع الشاب غاسباريني. قطعنا كل

الطـــريق في عجلة نقل، وقد ساعد أبـــي المزارعين في الحشّ وفي ربط حزم القمح. كنت أبقى قربه وخلفه أشم رائحة عرقه. نـــزع قميصه وأبصرت عضلاته الممدودة في كل جهة من جهات ظهره، تحت البشرة البيضاء، كأنّها جبال.

فهمـــت بغتة، رغم صراح الناس ورائحة القمح المحصود، أنّ هذا سينتهي. فكرت مليا، سيذهب والدي إلى الأبد، كما نحن اليوم. أتذكر ذلـــك جيّدا، جاءتني الفكرة بهدوء. لم تحدث سوى صوت خافت، ثم غمرتني فجأة، جعلت قلبـــي يعتصر من جذورهو لم أستطع أن أتظاهر بأيّ شيء.

تملّكـــني الـــرعب وعدوت في الطريق وسط السنابل تحت سماء زرقـــاء، هربت بأقصى سرعة ممكنة. لم أعد قادرة على الصراخ، ولا علـــى الـــبكاء، لم أكن قادرة سوى على الجري بكل قواي وأنا أشعر بـــتلك القبـــضة الـــتي تسحق قلبـــي وتختفي. شرع أبـــي في الجري ورائـــي، قبض علي في الطريق، رفعني، اقتلعني من التراب، أتذكر ذلك جـــيّدا، وكنت أتخبّط. ضمّني إلى صدره محاولا تهدئة نشيجي الذي بلا دموع، شهقاتي، مربّتا على شعري وقفاي.

لم يطـــرح علي بعدئذ أي سؤال، لم يوجه لي أي عتاب، لم يقل للـــناس الذين تساءلوا عما جرى سوى: لاشيء، لاشيء إطلاقا، لقد خافت. لكنّي رأيت من خلال عينيه بأنّه فهم. أحس هو الآخر بذلك، عبور هذا الظلّ البارد رغم ضوء الظهيرة الجميل، ورغم ذهب القمح.

أتذكـــر أيضا أنّي ذهبت في أحد الأيام مع أمّي لنتجول في جهة ببورتمون، تابعنا السيل الكبريتي في أعلى الفندق الخرب، كان أبـــي قد ذهـــب ليلـــتحق برجال المقاومة، كان ذلك عجيبا. كان هناك تبادل أوراق قـــرأها أبـــي وأحرقها في الحال. ارتدت أمي ملابسها بعجلة.

قـــادتني من يدي ومشينا بسرعة إلى الفندق المهجور في الطريق المقفر على ضفة النهر.

بـــدأنا في أول الأمـــر نتسلق الجبل عن طريق سلّم صغير، ثم عبر طريق ضيق، كانت أمي تمشي بسرعة دون أن تلهث، وجدت صعوبة في تعقـــبها، لكنّي لم أجرؤ على الكلام لأنّي أرافقها لأول مرّة، كانت ملامحهـــا تدل عن نفاد صبر لا أجده اليوم، وكانت عيناها تلمعان من الحمّى.

مشينا الآن في الأعلى، في منحدر مغطى بأعشاب مروج فسيحة، وكانـــت السماء في كل جهة من حولنا. لم يحدث لي أن صعدت إلى هذا الحد، إلى هذا البعد، وكان قلبـــي ينبض بقوة من التعب والقلق. وصـــلنا إلى أعلى المنحدر، وفي سفح القمم كان هناك سهل شاسع من العشب زرعت فيه أكواخ الرعاة المبنية بحجارة سوداء.

ذهـــبت أمي إلى حدّ الأكواخ الأولى، وإذ وصلنا إلى هناك ظهر أبـــــي، كان واقفا وسط الأعشاب الطويلة، يشبه صيادا، ثيابه ممزقة ووسخة، وكان يحمل بندقية. وجدت صعوبة في التحقق منه لأنّ لحيته كبرت ووجهه لفحته الشمس.

حملني كعادته وضمّني إليه بقوة، ثم استلقى مع أمي على العشب، قـــرب الكوخ الحجري وراحا يتحدثان. سمعتهما يتكلمان ويضحكان، لكنّي بقيت بعيدا، كنت ألعب بالحجارة، أتذكر أنّي كنت أرميها على ظهر اليد كعظيمات.

مازلت أستطيع سماع أصواهما وضحكاهما في تلك الظهيرة على مـــنحدر المراعـــي الشاسعة والسماء الزرقاء تحيط بنا. كانت السحب تتحـــرك، ترسم زخارف لولبية مذهلة على زرقة السماء، وكنت أسمع ضـــحكات أبـــــي وأمي وصيحاهما في الأعشاب على مقربة منّي.

وهناك، في تلك اللحظة، أدركت أنّ أبـــي على وشك الموت، جاءتني الفكرة وحاولت عبثا إبعادها، عادت مجددا، وسمعت صوته، ضحكته. كنت أعرف أنّه يكفي أن أستدير لأراهما، لأرى وجهه، شعره ولحيته التي تسطع تحت الشمس، قميصه، وطيف أمي المضطجعة لصقه.

ارتميت فجأة على الأرض وعضضت يدي حتى لا أصرخ، حتى لا أبكـــي، ومـــع ذلك شعرت بالدموع تنـــزلق خارجي، بالفراغ الذي يحفـــر في بطـــني وينفتح خارجا، فراغ، برد، ولم أستطع أن أمتنع عن التفكير بأنّه على وشك الموت، بأنّ عليه أن يموت.

ذاك ما يجب نسيانه في هذه الرحلة، كما قال العم سيمون روبان، «يجب نسيان ذلك، يجب الذهاب من أجل النسيان!»

هـــنا، في عمق الخليج، كل شيء يبدو بعيدا، كأنّ ذلك حدث لآخـــر في عـــالم آخر. ريح الشمال تعصف بقوة في الليل، أنا ملتصقة بأمي والغطاء الصلب لسيمون روبان صعد إلى العينين. لم أنم منذ مدة طويلة، جسدي كله يؤلمني وعيناي تلتهبان. يطمئنني صوت البحر، ولو أنّه عاصفة.

لأوّل مـــرّة في حياتي أنام على شاطئ البحر. شاهدته غسقا من خـــلال نافذة القاطرة قبل الوصول إلى مرسيليا، كان واقفا قرب أمي، لحظة مضيئة غضنتها الريح.

كـــان الجميع في نفس الجهة من القاطرة لمشاهدة البحر، ثم حاولت أن أراه في القطار الذاهب إلى باندول. جبهتي ملتصقة بالزجاج البارد وقد بعثـــرتني القاطـــرات والمنعرجات. بيد أنّه لم يكن هناك شيء آخر، ماعدا الظلام، بريق الأضواء والمصابيح النائية التي ترقص كأضواء السفن.

توقف القطار في محطة كاسيس، نـــزل ناس كثيرون، رجال ونساء ملفوفـــون في معـــاطفهم، بعضهم بمظلّات، كأنهم سيسيرون في جادات.

نظرت خارجا محاولة أن أعرف إن كان الراعي قد نزل معهم، لكنّه لم يكن على الرصيف. ثم رجّ القطار ببطء، وكان الناس على الرصيف يبتعدون مثل أشباح، كان ذلك حزينا وغريبا في آن واحد. كانوا مثل عصافير متعبة هزّها الريح. هل هم ذاهبون بدورهم إلى أورشليم؟ أم أنّهم ذاهبون إلى كندا؟ والحال أنّه لا يمكن أن نعرف، لا يمكن أن نسألهم. هناك ناس يستمعون، ناس يريدون الاطلاع لمنعنا من الذهاب، قال ذلك سيمون روبان عندما رافقنا إلى رصيف المحطة: «لا تحدثوا أحدا. لا تطلبوا شيئا من أحد، هناك ناس يسمعونكم.» وضع في كتاب سفر التكوين ورقة بها اسم أخيه وعنوانه في نيس، بنايات إدوارد روبان، انحدار كروتي. سنقول نحن ذاهبون إلى هناك إن أوقفتنا الشرطة.

وصلنا إلى سان سير ونزل الجميع، كان رجل ينتظرنا في رصيف المحطة. حشد كل الذين يجب أن يذهبوا وشرعنا في المشي في الطريق، يدلّنا ضوء مصباحه اليدوي، إلى غاية ميناء ألون.

إنّنا الآن في الشاطئ، في مخبأ الكوخ الخرب بانتظار الفجر، ربّما يريد آخرون أن يستفسروا مثلي. انتصبوا، ينظرون أمامهم، يحاولون أن يبصروا في الظلام ضوء السفينة، يسبرون قرقعة البحر لسماع أصوات البحارين وهم ينادون.

أشجار الصنوبر العملاقة تصرّ وتطقطق في الريح، تحدث قممها صوت أمواج على صدر سفينة. السفينة التي ستأتي إيطالية، مثل انجيلو دوناتي، اسمها **سات فراتيلي**، ما يعني الإخوة السبعة. عندما سمعت لأول مرّة هذا الاسم في باريس فكرت في الأطفال السبعة الذي تاهوا في حكاية **الصغير بوسي**، يبدو لي أنّه لن يحصل لنا شيء مع هذا الاسم.

أتذكر لّما كان أبي يتحدث عن أورشليم، عندما كان يتحدث عما كانته تلك المدينة مساء، كحكاية قبل النوم. لا هو ولا أمي كانا

مؤمــنين، أي أنّهما يؤمنان بـــ: إ... لكنّهما لا يؤمنان بديانة اليهود، ولا بديانة أخرى. لكنّ أبــي كان يقص حكايات غريبة عن أورشليم في عهــد داوود. كنت أظن أنّها أجمل مدينة في العالم وأكبرها. ليست مــثل بــاريس بطبيعة الحال، لم تكن فيها شوارع سوداء، أكيد، ولا بــنايات قديمة ولا مزارب مشقوقة، ولا سلالم بها روائح كريهة، ولا جداول تركض فيها جيوش من الجرذان. عندما تذكر باريس هناك ناس يظــنون أنّــك محظوظ، مدينة جميلة كتلك! لا بدّ أنّ الأمر مختلف في أورشليم. كيف كانت؟ لا أستطيع أن أتخيلها جيّدا. مدينة مثل سحابة، بقبب وأبراج كنائس ومآذن (قال أبــي هناك مآذن كثيرة) وروابــي من حولها غرست فيها أشجار البرتقال والزيتون، مدينة تسبح في أعلى الصحراء مثل سراب، مدينة لا يوجد فيها شيء مألوف، شيء قذر، أو شيء خطير، مدينة نقضي فيها الوقت في الصلاة والحلم.

أظــنني لم أكن أعرف وقتها معنى الصلاة، ربّما كنت أتصوّرها مثل الأحلام، عندما نترك الأشياء الحميمة تنــزلق من حولنا، ما نتمناه وما نحبه أكثر في العالم، قبل الذهاب إلى النوم.

عــادة ما تحدثت أمي عن ذلك في الآونة الأخيرة بباريس، لم تعد تعيش إلا من أجل اسم أورشليم. لم تتحدث عن المدينة، ولا عن البلد، أرض إسرائيل، بل عن كل ما وجد هناك قديما، عن كل ما سيتجدد. كانت بالنسبة إليها بابا، ذاك من كانت تقوله.

تتخللني الريح الباردة تدريجيا، تعبرني. الريح لا تأتي من البحر، بل تهب من الشمال، من أعلى الروابــي، ترنّ ما بين الجذوع العالية جدا، لكنّنا لم نشاهد البحر بعد. استيقظت أمي بسبب برد الفجر. أحسست بجسدها يرتعد بقربــي. ضممتها إليّ بقوة، قلت لها كلمات لتهدئتها، لتــستعيد رباطة جأشها. هل سمعتني؟ أحببت أن أحدثها عن كل هذا،

عن الباب، أن أقول لها إنّه لمن العسير والشاق عبور هذا الباب، بدا لي أنّها هي البنت وأنا أمها.

بـــدأ السفر منذ وقت طويل، أتذكر كل مرحلة، من البداية. منذ ذهابنا للعيش في باريس، في شقة سيمون روبان بشارع جرافيليي، مع العجـــوز العمياء. لم أعد أتكلم، و لم أعد أقتات، ماعدا لمّا تطعمني أمي بالملعقة كصبية. أصبحت رضيعة، أبلّل فراشي يوميا. كانت أمي تلفني في حافظات تصنعها من الخرق القديمة ذات الألوان الكثيرة. كان هناك فـــراغ بعد سان مارتان، بعد السير عبر الجبل إلى إيطاليا، السير الطويل إلى فيستيونا.

تغمرني الذكريات مثل مزق، كركام ضباب على سقوف القرية وصـــعود الظلّ في الوادي شتاء. أسمع نباح الكلاب وأنا مختبئة في فندق باســـاجييري العائلي، أسمع أيضا صوت براو وهو ينادي، إيلينا! ومعلم المدرســـة يدفعـــه من كتفه، والوادي المفتوح إلى غاية النافذة الجليدية، الانحـــدارات الطويلة العفنة التي سبرتها والدروب المقفرة، ما عدا الريح الـــتي تهـــب إلى غاية أعماقي، التي توسّع الفراغ بداخلي. جرّب العم سيمون روبان كلّ شيء، جرّب الصلاة، جاء بحاخام وطبيب لأبرأ من هـــذا الفـــراغ. الشيء الوحيد الذي لم يجربه هو المستشفى، لأنّ أمي كانـــت ســـترفض ذلك، وكانت ترفض طلب المساعدة الاجتماعية. كانت تلك هي السنوات المرعبة التي خلّفتها ورائي في الظلّ البارد، في الأروقـــة وفي سلالم شارع جرافيليي. ستذهب، سترحل مقلوبة، كما المناظر الطبيعية خلف القطار.

لم أشـــهد أيّ يـــوم بذلك الطول. أتذكر في ما مضى، قبل سان مارتان، أنّي كنت أنتظر القطار قلقة لأنّي اعتقدت أنّ تلك اللحظة هي الـــتي نمـــوت فـــيها، وأنّ الموت يأتي ليلا ليختطف الناس، ننام أحياء،

وعـــندما ينقشع الليل نكون رحلنا. هكذا ماتت السيّدة دالو ذات ليلة تاركة على السرير جسدها الأبيض البارد.

جاء العمّ سيمون روبان لمساعدة أمي في غسيل الموتى، من أجل الدفن. طمأنتني أمي وقالت إنّ الأمر ليس كذلك، وأنّ الموت لا يخطف أحدا، الجسد والروح فقط هما اللذان يتعبان ويتوقفان عن الحياة، كما في الـــنوم. سألتها وأنا أكاد أصرخ: «وعندما نقتل أحدهم؟ أشاحت أمـــي بـــوجهها، كأنّها ندمت على كذبتها، كأنّ الخطأ خطأها لأنّها فكرت للتوّ في أبـــي وقالت: «الذين يقتلون الآخرين يسرقون حياتهم، إنّهم كحيوانات مفترسة، لا شفقة لهم.»

تتذكر أمي يوم ذهب أبـــي إلى الجبل حاملا بندقية، تتذكر عندما اختفى في الأعشاب الطويلة كي لا يعود. عندما لا يقول الكبار الحقيقة لا يلتفـــتون لأنّهم يخافون أن تفضحهم، لكنيّ كنت شفيت من الفراغ في تلك المرحلة، لم أعد أهاب الحقيقة.

أفكـــر الآن في تلـــك الليالي في هذا الفجر المضبّ وأنا أسمع صوت البحـــر على صخور خليج ألون. ستأتي السفينة قريبا لتأخذنا إلى أورشليم. هـــذه الليالي ملتحمة ببعضها. لقد غطّت النهارات. دخلت هذه الليالي إلى أعماقي في سان مارتان وتركت جسدي باردا. هنا، على الشاطئ، وجسد أمّي ملتحم بـــي مرتجف، أسمع صوت النفس المتأوّه كنفس طفل، وأتذكر الليالي الأولى في 26 شارع جرافيليي، البرد، صوت الماء في المزارب، صرير الورشات في الساحة، الأصوات الرنانة، وأمّي النائمة لصقي في غرفة ضيقة بـــاردة. كانت تضمني لتسخيني لأنّ الحياة كانت تخرج مني، الحياة تهرب خارجا، في أغطية السرير، في السماء وفي الجدران.

أستمع. يخيّل إلي أنّي أستطيع سماع من حولي كل الذين ينتظرون الـــسفينة. إنّهم هاهنا، نائمون على الرمل لصق حائط الكوخ الخرب،

تحت أشجار الصنوبر العالية التي تقينا هبوب الريح. لا أعرف من هم، لا أعرف أسماءهم، ماعدا الراعي، لكنّه اللقب الذي أطلقته عليه. ليسوا سوى وجوه لا تظهر في الضوء الخافت إلاّ بالكاد، أشكال، نساء متدثرات بمعاطفهن، شيوخ مكدسون تحت مظلّاتهم الكبيرة. كلهم بالحقائب نفسها، المعززة بالخيط، نفس أغطية الهلال الأحمر أو الجيش الأمريكي. وفي جهة ما، في وسطهم، هناك الراعي وحيدا، مازال يشبه مراهقا.

أما نحن فلا يجب أن نتخاطب، ليس لنا أن نعرف شيئا. سيمون روبان هو من قال هذا على رصيف المحطة. قبّلنا مطوّلا، أنا وأميّ. منحنا قليلا من المال وبركته. والحال أنّنا لن نعبر الباب وحدنا. ثمة آخرون، هنا على هذا الشاطئ وهناك، الآلاف بانتظار البواخر للرحيل دون عودة. يذهبون إلى العوالم الأخرى، إلى كندا، إلى أمريكا الجنوبية، إلى إفريقيا، إلى حيث يمكن انتظارهم، هناك حيث يبدأون حياة أخرى. أمّا بالنسبة إلى الذين هم هنا، معنا، على شاطئ ألون، من ينتظرنا؟ قال العمّ سيمون روبان ضاحكا، لا توجد في أورشليم سوى الملائكة بانتظاركم. كم من بوّابة يجب عبورها؟ كلما قطعنا أفقا سيكون بمثابة باب جديد.

ولتفادي اليأس ومقاومة الريح الباردة والتعب، يجب التفكير في المدينة المشابهة للسراب، مدينة المآذن والقبب التي تسطع تحت الشمس، مدينة الحلم والصلوات المعلقة فوق الصحراء، لابدّ أن ننسى في هذه المدينة.

لا يوجد في هذه المدينة سواد الجدران، سواد الماء الرقراق، الفراغ والبرد، ولا حشد الشوارع الذي يزاحمك. بإمكاننا العيش مرّة أخرى، العثور على ما كان في السابق، رائحة القمح في الوادي، قريبا من سان

مارتان، ماء الجداول وقت ذوبان الثلج، صمت الأماسي، سماء الصيف، الممرات التي تغوص في الأعشاب الطويلة، خرير الشلال وخدّ ترستان على صدري. أكره الأسفار، أكره الوقت! إنّها الحياة في أورشليم قبل الخراب. هل صحيح أنّه يمكن العثور على هذا، حتى مع عبور البحار في **الإخوة السبعة؟**

طلع الفجر. لأول مرّة أستطيع التفكير في الآتي، ستكون السفينة الإيطالــية قــريبا هاهنا، في ميناء ألون الذي بدأت أراه، يبدو لي أنّي بــدأت أحــس بحركة البحر. سيأخذنا البحر إلى تلك المدينة المقدسة، ســتدفعنا الريح إلى باب الصحراء. لم يحدث أبدا أن تحدثت عن الـــ: إ... مــع أبــي، لم يكن يودّ الحديث عنه، كانت له طريقة في النظر إلــيك، بــسيطة ودون تردّد بحيث تمنعك من طرح الأسئلة. وبعدها، عندما لم يعد هنا، فقد ذلك معناه.

قال العم سيمون روبان لأمي ذات يوم، ألا يجب البدء في التفكير في التعليم. كان يقصد الدين لتدارك الزمن الضائع. كانت أمي ترفض باستمرار، دون أن تقول لا، ولكنّها تقول ببساطة، سنرى ذلك لاحقا، لأنّ ذلــك لم يكن طموح أبــي. كانت تقول سيأتي في حينه عندما أكــون في ســن الاختيار، كانت تتصور هي الأخرى أنّ الدين مسألة خــيار. لم تكن تحب أن يناديني باسمي اليهودي، كانت تسميني: هيلين لأنّــه اسمي، الاسم الذي اختارته لي. أما اسمي الحقيقي فهو إستير. لم أكن أرغب في اسم آخر.

قــصّ عليّ أبــي في أحد الأيام حكاية إستير التي تسمى حداسة الــتي لا أب لها ولا أم، وكيف تزوجت الملك أسوراس وتجرأت على الدخول إلى القاعة الكبيرةحيث الملك لتطلب منه عتق الشعب. حدثني عــنها سيمون روبان، لكنّه قال لي بأنّه لا يجب النطق باسم الـــ: إ...

ولا يجب كتابته، لهذا ظننت أنّه اسم يشبه البحر، اسم شاسع لا يمكن معـــرفته كاملا. أعرف الآن أنّ ذلك صحيح. يجب أن أعبر البحر، أن أذهب إلى الجهة الأخرى، إلى غاية أرض إسرائيل وأورشليم، يجب أن أعثر على هذه القوة. لم أفكر أبدا بأنّه كان بذلك الكبر، لم أفكر أبدا بأنّــه كان بابا وجب عبوره. يمنعني التعب والبرد من التفكير في أمور أخـــرى. لا أستطيع التفكير سوى في هذه الليلة المديدة التي تنتهي الآن في الفجـــر الـــرمادي، في الريح، في الأشجار العملاقة، في البحر الذي يحدث صوتا ما بين قمم الصخور.

أنـــام في هذه اللحظة ملتصقة بأمي وأنا أصغي إلى خفقان الغطاء مـــثل ستار، أستمع إلى صوت الأمواج المستمر على الشاطئ الرملي، ربّما حلمت بفتح عينيّ على السفينة هاهنا، في البحر المشعّ.

أنـــا جالسة في تجويف صخري قرب شجرة كبيرة ميتة. أحرس. البحر أمامي أزرق فاتن، يؤلمني. تهب الريح من فوقي. أسمعهم يسيرون على أوراق الأدغال وأغصان الصنوبر، يحدث ذلك صوتا سائلا يختلط بانكسار الأمواج على الصخور البيضاء، وبمجرد أن استيقظت صباحا جريت نحو قمة مرفأ ألون لأشاهد أفضل.

الـــشمس الآن تلـــهب وجهي، تلهب عيناي، البحر جميل بهالته البطيـــئة التي تأتي من الطرف الآخر من العالم، الأمواج تطرق الشاطئ محدثـــة صوت ماء جوفي. لم أعد أفكر في شيء، أنظر، عيناي تجوبان خـــط الأفـــق دون كلـــل، تسبران البحر الذي كنسته الريح والسماء العاريـــة، أريـــد رؤية وصول السفينة الإيطالية، أريد أن أكون الأولى عندما يشق جؤجؤها البحر باتجاهنا. يبدو لي أنّني إن لم أمكث هنا، في القمـــة، وفي مدخل الخليل، سوف لن تأتي السفينة، سوف لن يرانا إن أنا استدرت لحظة، أحس بهذا، لا يمكن للبحر أن يكون بهذا الجمال، لا يمكن للسماء أن تتحرر من غيومها بلا سبب.

أريـــد أن أكون أوّل من تصرخ عندما تصل السفينة. لم أقل أيّ شـــيء لأمـــي لمـــا تركتها على الشاطئ وهي لا تزال متدثرة بالغطاء الأمريكـــي. لم يأت معي أيّ أحد. أنا المراقبة، نظرتي أكثر دقة وإرهافا مـــن نظرة الهنود في روايات جوستاف أيمار. كم أتمنى أن يكون أبـــي معـــي في هذه اللحظة! أن أفكر فيه، أن أتصوره جالسا على الصخور علـــى مقربة مني، يسبر البحر المشع، سيجعل ذلك قلبـــي يخفق أكثر

فأكثـــر، يملأني بنوع من الدوار الذي يربك بصيرتي. قد يكون للجوع والتعب دور في هذا، لم أنم منذ مدة، و لم أتغذّ حقا! يبدو لي أنّي سأقع إلى الأمام، في البحر المسكر.

أتذكر أنّي نظرت بهذه الطريقة إلى الجبل الغائم الذي كان أبـــي سيجيء من جهته. كنت أغادر غرفة الملجأ يوميا في فيستيونا وأذهب إلى أعلـــى القـــرية، أين أرى الوادي كله وكلّ الجبل، ونهاية الطريق، وأنظر، أنظر طويلا، بقوة، إلى درجة أنّي كنت أشعر أنّي سأحفر ثقبا في الحاجز الصخري.

لكنّي لا أستطيع أن أكون متهاونة. أنا المراقبة. الآخرون جالسون علـــى الشاطئ في جوف خليج ألون وينتظرون. صافحتني أمي عندما ذهبت صباحا دون أن تقول شيئا، منحتها الشمس التي أشرقت صباحا قوة وابتسمت.

أريد رؤية السفينة الإيطالية، أريد أن تأتي. البحر واسع، يغلي من الـــضوء، الـــريح العاصفة تنـــزع الزبد من قمة الأمواج وتلقي به إلى الخلـــف. الأمواج العاتية تأتي من الطرف الآخر للعالم، تدقّ الصخور البيـــضاء وتتزاحم حين دخول مضيق ميناء ألون. الماء الأزرق يدوّم في الخليج، يحفر الدوامات ثم ينتشر على الضفاف الرملية.

هـــناك بقربـــــي جذع الشجرة الميتة، أبيض وأملس مثل عظم. أحـــبّ هذه الشجرة. يبدو لي أنّي أعرفها منذ القدم، إنّها سحرية، لا شـــيء يموت بفضلها. الحشرات تجري على الجذع الذي أضعفه البحر مـــابين الجـــذور، تـــأتي رائحة الصنوبر مع الريح وقد أنعشتها حرارة الـــشمس، الريح تتقدم والبحر يضطرب. إنّنا في طرف العالم، في الحدّ الـــذي لا يمكن فيه العودة إلى الوراء. يبدو لي أنّنا سنموت جميعا إن لم تأت السفينة.

بقـــيّ كـــلّ شـــيء وراءنا، المدن السوداء، القطارات، الخوف، الحرب. عندما مشينا هذه الليلة عبر الروابـــي، تحت المطر، يدلنا ضوء المـــصباح اليدوي، كنا بصدد عبور الباب الأول، لهذا كان كل شيء صعبا، مرهقا، غابة الصنوبر العملاق في عمق وادي ألون، هبوب الريح الذي يزعزع الأغصان، الهواء البارد، المطر، ثم هذا الحائط الخرب الذي احتمينا به كحيوانات تائهة في العاصفة.

أفـــتح عـــينيّ، البحـــر والضوء يلهبان الأعماق، لكنّي أحب هـــذا، أتـــنفس، إنّي حرّة، أخذتني الريح والأمواج قبلا. لقد ابتدأت الرحلة.

همت على وجهي طوال اليوم عبر صخور القمة، البحر بجانبـــي دائما، وخط الأفق في رأسي، لازالت الريح تعصف، الريح تميل جذوع الـــشجر وتهـــز الأدغال. هناك في التجاويف آس برّي وفشّاغ وأزهار صغيرة وردية بها عين سوداء، الروائح والضوء والريح تصيبك بالدوار. أمواج البحر تتلاطم.

النازحون جالسون بالقرب من ميناء ألون، يقتاتون قرب بعضهم البعض. جلست بعد لحظة قرب أمي، دون أن أتوقف عن مراقبة الخيط الـــذي يفصل السماء عن البحر، ما بين قمّتي الصخرة. عيناي تلتهبان ووجهـــي نار. طعم الملح في شفتاي، آكل بسرعة المؤونة التي أخرجتها أمي من الحقيبة، قطعة خبز أمريكي ناصع البياض، قطعة جبن وتفاحة. أشرب كثيرا، من قنينة المشروبات الغازية رأسا، ثم أرجع إلى الصخور، إلى مكان المراقبة بالقرب من الشجرة الميتة.

البحـــر مـــضطرب، يغـــدو رماديا مكتنفا بالزبد، يغيّر اللون باســـتمرار عندما تتمدد السحب مجددا في السماء، معتما، بنفسجيا، رخاما سماقيا ينصهر.

بـــردت الآن، أنـــزوي في مخبأ الصخرة. الآخرون، ماذا يفعلون؟ أما زالوا ينتظرون؟إن نحن فقدنا الثقة فقد تعود السفينة على أعقابها، قد تـــتوقف عـــن مـــواجهة الريح وتعود إلى إيطاليا. قلبـــي يخفق بقوة وبسرعة، حلقي جاف لأنّي أعرف أنّ حياتنا مرهونة بهذه اللحظة، أنّ **الإخوة السبعة** ليست كأية سفينة. هي التي ستقرر مصيرنا.

جـــاء الراعي لملاقاتي في مخبئي. لقد حلّ المساء. الشمس تقذف ومـــضا قويا من خلال ثقب في السحب، ومضا أرجوانيا كأنّه ممزوج بالـــرماد. وصل الرّاعي، جلس على جذع الشجرة وكلّمني. لم أستمع في البداية إلى ما قاله، أنا متعبة جدا بحيث لا أقدر على الكلام، عيناي تلتهبان، الماء يسيل من عينيّ ومن أنفي، يظن الراعي أنّي أبكي من فتور الهمة. جلس قربـــي ووضع ذراعيه على كتفي. لأوّل مرّة يفعل هذا، أشعر بحرارة جسده، أرى الضوء الذي يلمّع شعر لحيته بغرابة، أفكر في ترســـتان، في رائحة جسده بعد ماء النهر، إنّها ذكرى قديمة من حياة أخرى، خفيفة مثل القشعريرة التي تسري على جسدي. الراعي يتكلم، يـــتحدث عن قصة حياته. اقتاد الألمان أباه وأمه إلى درانسي و لم يعودا أبدا، ذكر اسمه، يتحدث عما سيفعله في أورشليم: الدراسات التي يريد متابعتها، ربّما في أمريكا، يريد أن يصبح طبيبا. شدني من يدي ومشينا إلى غايـــة الميـــناء، إلى غاية الكوخ الحجري حيث ينتظر الناس. عندما جلست قرب أمي مجددا، كان الليل وشيكا.

عادت العاصفة تدريجيا، أخفت السحب النجوم، البرد، المطر يهطـــل مـــدرارا. إنّنا ملتفتان في غطاء العم سيمون روبان والظهر مـــستند إلى الحائط الخرب. بدأت أشجار الصنوبر العملاقة تصرّ، أحـــس بالفراغ بداخلي، أسقط، كيف تعثر علينا السفينة الآن و لم تعد هناك مراقبة؟

الراعي هو الذي أيقظني، إنّه ينحني عليّ، يلامس كتفي، يقول شيئا مـــا، ربّمـــا كان مظهري يوحي بالنوم بحيث أرغمني على النهوض، أمي واقفـــة بدورها. دلني الراعي على شكل بعيد يتقدم في البحر، أمام مصب ميناء ألون، بالكاد يشاهد في ضوء الفجر الرمادي. إنّها **الإخوة السبعة**.

لم يـــصرخ أحـــد، و لم يـــتكلم أحد، وقفوا جميعا متتابعين على الـــشاطئ، الـــرجال، النساء، والأطفال، كانوا لا يزالون ملفوفين في أغطيـــتهم وفي معاطفهم وهم ينظرون إلى البحر. دخلت السفينة ببطء إلى الخلـــيج، أشـــرعتها تصطفق في الريح. إنّها تنعطف، تسير وسط الأمواج التي تضربها في العرض.

ثمّـــة تمـــزق في السماء في هذه الآونة. السماء تلمع بين السحب وضوء الفجر يضيء بغتة خليج ألون والصخور البيضاء، يضيء أوراق أشـــجار الصنوبر الطويلة، وهناك لمعان في البحر. تبدو أشرعة السفينة عظيمة، بيضاء، كأنّها خيالية. إنّها من الجمال بحيث تصيبك بقشعريرة. جـــثت أمـــي في الرملة وحذت حذوها نساء أخريات، ثم الرجال. أنا أيـــضا جاثية على الرمل المبلل، وكلنا ننظر إلى السفينة التي استقرت في الخلـــيج. لم نكن نفعل شيئا آخر سوى النظر. لم نعد قادرين لا على الكلام ولا على التفكير ولا على أيّ شيء آخر.

كـــل النساء جاثيات على الشاطئ، يصلّين أو يبكين، إنّني أسمع أصـــواتهن الرتيبة في هبوب الريح. بقي الشيوخ اليهود واقفين خلفهن بمعـــاطفهم الثقيلة. كان بعضهم متوكئين على مظلّاتهم كما يتوكئون علـــى العصيّ. إنّهم ينظرون إلى البحر، شفاههم أيضا تتحرك، كأنّهم يصلّون. أنا أصلّي بدوري لأول مرّة في حياتي. هذا بداخلي، أحسّ به، إنّـــه في أعماقي رغما عني. إنّه في عينيّ، في قلبـــي، كما لو أنّي كنت خارجة عنّي وأرى ما خلف الأفق، ما خلف البحر.

كـــل ما أراه الآن يعني شيئا ما، يستولي عليّ، يقذفني في الريح، فوق البحر، لم أحس بهذا أبدا: كل ما عشته، كل تلك المتاعب، السير في الجـــبال، ثم الـــسنوات المرعبة في شارع جرافيليي، السنوات التي لم أكن أجرؤ فيها على الخروج إلى الساحة لرؤية السماء، الأعوام الخانقة الـــشنيعة، الطـــويلة مثل داء، كل شيء بصدد الانمحاء هنا، في الضوء الخافت الذي ينير خليج ألون، مع **الإخوة السبعة** التي تدور ببطء حول مرساها وأشرعتها الكبيرة البيضاء الممددة التي تصطفق في هبّة الريح.

كلنا جاثون بلا حركة، أو واقفون في الشاطئ، لازلنا ملفوفين في أغطيتنا وقد خدّرنا البرد والنعاس. لم يعد لنا ماض، إنّنا جدد، كما لو أنّـــنا ولدنا للتوّ، كما لو أنّنا نمنا ألف سنة هنا، في هذا الشاطئ. أقول هـــذا، آمـــنت به حينئذ في لمح البصر، وبقوة جعلت قلبـــي يخفق إلى درجة التوقف.

أمـــي تبكـــي في صمت، ربّما من التعب أو من الارتياح. أحس جـــسدها لـــصقي ينثني إلى الأمام، كما لو أنّها تلقت ضربات. ربّما كانت تبكي بسبب أبـــي الذي لم يصل إلى الطريق حيث انتظرناه. لم تـــبك حينذاك، حتى لما علمت أنّه لن يرجع أبدا. أما اليوم فهناك ذلك الفـــراغ، الفراغ الذي في شكل سفينة راسية وسط الخليج، وذاك ما لم تعد تحتمله.

هـــل هي سفينة حقيقية يركبها ناس؟ إنّنا ننظر إليها بخوف، أكثر مـــن نظـــرنا إليها برغبة، خوفا من أن ترفع حبالها في أية لحظة وتهرب بعيدا في ريح البحر تاركة إيّانا في هذا الشاطئ المهجور.

ابـــتدأ الأطفـــال حينها يركضون على الرملة، لقد نسوا تعبهم، الجـــوع والـــبرد. يركضون إلى القمة الصخرية، وإذ يلوّحون بأيديهم يصرخون: ياهذا، يا!... وتخرجني من حلمي أصواتهم الحادة.

إنّها **الإخوة السبعة**، السفينة التي ننتظرها، تلك التي ستأخذنا إلى الجهة الأخرى من البحر، إلى أورشليم. أتذكر الآن لماذا أحببت اسم هذه السفينة بمجرد أن ذكرها سيمون روبان لأول مرّة، **الإخوة السبعة**. تحدثنا مرّة مع أبي عن إخوة يعقوب، أولئك الذين انتشروا في العالم. لا أتذكر كل أسمائهم، بيد أنّ هناك اثنين أحبّ اسميهما لأنّهما كانا مليئين غرابة. الأول هو بنيامين، الذئب المفترس، الثاني هو السحار زيالون. كنت أعتقد أنّه اختفى في أحد الأيام على متن سفينته أثناء إعصار، وأنّ البحر أخذه إلى عالم آخر. وكان هناك نيفتالي، الظبية، ولد بهيّ مثل فتاة، تصورت أنّ أمي تشبهه بسبب عينيه السوداوين الدافئتين (وأنا كذلك، بعينيّ الممدودتين ونظرتي اليقظة باستمرار). ربّما يكون زيالون هو العائد اليوم في سفينته ليأخذنا إلى ضفاف أسلافنا بعد أن تاه في البحر عدة قرون.

الراعي بقربي، شدّ يدي في لحظة ما دون أن ينبس، عيناه لامعتان وحنجرته من الانقباض الناتج عن التأثر بحيث لم يستطيع أن يتكلم. أمّا أنا فقد تحرّرت فجأة، ودون انتظار شرعت أجري مع الأطفال على الشاطئ وأصرخ وألوّح بيديّ. أسالت الريح الباردة دمعي وقلّبت شعري، أعرف أنّ أمي لا تحبّ هذا، لا يهمّ! يجب أن أجري، لا أقدر على البقاء في مكاني. يجب أن أصرخ بدوري. أهتف إذن أيّ شيء، ألوّح بيدي وأنادي باتجاه السفينة: «أيا زيالون!» بأصوات حادة شبيهة بزقزقة عصافير غاضبة.

حدثت المعجزة: من **الإخوة السبعة** انفصل زورق صغير على متنه بحاران، انزلق على ماء الميناء الهادئ وصدم الشاطئ عرضا والأطفال يحيّونه. قفز أحد البحارين على الأرض فسكت الأطفال. كانوا خائفين قليلا، نظر إلينا البحار برهة، لازالت النساء جاثيات

والشيوخ بمعاطفهم السوداء ومظلّاتهم، وجهه أحمر وشعره أحمر ملتصق بالملح. **الإخوة السبعة** ليسوا أبناء يعقوب.

عـــادت العاصـــفة عندما كنا كلنا في السفينة. نظرت من خلال الكوى، السماء متقلبة والغيوم تنقفل، الأشرعة الرمادية (لا تبدو بيضاء عـــندما ننظر إليها عن قرب) تصطفق في الريح. تتمدد مهتزة ثم تسقط مجـــددا محدثـــة انفجـــارات، كأنّها موشكة على التمزق. تجد **الإخوة السبعة** صعوبة رغم هدير المحرك في العنبر، إنّها مائلة إلى الجنب، مائلة إلى الأســـفل بحـــيث يجـــب على الجميع التشبث بالأطراف لتفادي الانقـــلاب. أتمـــدد علـــى الخشبة قرب أمي والرجلان مستندتان إلى الحقيبتين، أغلب المسافرين أصبحوا مرضى ممددين على الأرض بوجوه شاحبة، قد يكون الراعي مريضا هو الآخر لأنّه اختفى.

انحنى على قعر العنبر من كانوا قادرين على ذلك وراحوا يتقيأون من أعلـــى المزراب. هناك أطفال يبكون بصوت غريب حاد يختلط مع صرير الهـــيكل وصـــرير الريح، هناك أيضا أصوات صاخبة، همسات، تضرّعات وأنّات. يبدو لي أنّ الجميع ندموا الآن على الوقوع في فخ هذه السفينة، في قـــشرة الجـــوز الـــتي يتقاذفها البحر. أما أمي فلم تشتك، ندما أنظر إليها ألاحـــظ ابتـــسامة غامضة، لكنّ وجهها بلون التراب، تحاول أن تتكلم، تقول: «نجمة، النجمة الصغيرة»، مثل أبـــي قديما. كان عليّ أن أساعدها فـــيما بعد في الزحف إلى المزراب. تمددت بعد ذلك، باردة بالكامل. أضم بقـــوة يدها إلى يدي كما كانت تفعل في ما مضى عندما كنت مريضة... الملاحـــون يجـــرون في العاصـــفة حفاة على الجسر. يصرخون ويسبّون بالإيطالية، يتخبطون ويتحركون، كأنّ الأمر يتعلق بحصان مجنون.

توقـــف المحرك عن الدوران، بيد أنّي لم أدرك ذلك فورا، تتمايل الـــسفينة وتبحر بشكل مرعب. فكرت فجأة بأننا سنغرق، لا أحتمل

البقاء سجينة هذه الوضعية، ورغم الممنوعات، رغم هبوب الريح والمطر، دفعت كوّة المركب وأخرجت رأسي.

أبصر في الضوء الخافت للعاصفة البحر الذي يجري باتجاه السفينة، ينفجر في شكل زوابع من الزبد. أصبحت الريح وحشا مرئيا، تطرق الأشرعة وتلوّيها، تستند إلى الساريتين وترجّح السفينة. تدوّم، تخنقني، تجعل عيناي تدمعان، أحاول أن أقاوم لأرى البحر، البحر الجميل، المرعب. أشار بحار بأنّ عليّ الصعود إلى العنبر، شاب بشعر أسود، هو الذي أجلسنا في العنبر عندما صعدنا. يتكلم بالفرنسية. يقترب متشبثا بالدرابزين، إنّه مبلل من الرأس إلى القدمين. يصرخ: «انزلي! انزلي! خطر!» أومأت له بأني لن أفعل، سأمرض في الأسفل وأريد البقاء فوق الجسر. قلت له إنّنا لابدّ ميتون وأني أريد رؤية الموت قبالتي. تأملني بإنعام النظر: «أنت مجنونة؟ انزلي أو سأخبر القائد.» صرخت في مواجهة الريح وصوت البحر. «اتركني وشأني! سنموت كلنا! لا أريد النزول!»

دلني الشاب على بقعة سوداء في البحر، في مقدمة السفينة. جزيرة. «إننا ذاهبون إلى هناك! ننتظر نهاية العاصفة! لن نموت! انزلي إذن إلى العنبر!» الجزيرة أمامنا، أقلّ من مائتي متر. لقد بدأت تحمي السفينة. توقفت الريح عن الاستناد إلى الساريتين، الماء يجري على الجسر، يجري بسيول جارفة على طول الصفائح، يسيل ببط على الأشرعة المعلقة على العارضات، هناك صمت مفاجئ مع اصطخاب البحر الذي مازال يرنّ في آذاننا. «أصحيح إذن أننا لن نموت؟» قلت هذا بصوت غريب جعل البحار ينفجر ضحكا. دفعني بلطف إلى ناحية المزراب في الوقت الذي بدا البحارون الآخرون منهكين. كانت السماء من فوقنا بلون الحريق. «ما اسم هذه الجزيرة؟ أما زلنا في إيطاليا؟» لم

يقـــل البحار سوى: «هذه جزيرة بور–كرو بفرنسا يا آنسة. إنه خليج بور–مان.»

نـــــــزلت حينها إلى وسط السفينة. أشمّ رائحة مسيخة، الخوف، نفـــاد الـــصبر، أبحث خبط عشواء عن جسد أمي في العتمة. «انتهى. وصـــلنا إلى بور–مان، إنها محطتنا الأولى.» قلت ذلك وكأننا في رحلة استجمام، إني متعبة. نمت بدوري على اللوح. أمي بقربـــي، إنها تسند راحة يدها إلى جبهتي. أغمض عينيّ.

إنـــنا أمـــام بور–مان منذ يوم وليلة، دون أن نفعل شيئا، السفينة تدور ببطء حول الجبال، في اتجاه ثم في اتجاه آخر. العنبر يرجع أصوات أدوات بـــصدد إصـــلاح المحرك، ورغم منع الربّان (رجل بدين أصلع يـــشبه أي شيء، ماعدا أن يكون بحريا) أصعد في كل لحظة إلى الجسر مـــع باقـــي الأطفال. أنا نحيلة، أتصوّر أني أبدو ولدا بشعري القصير. سنذهب إلى مؤخرة السفينة، إلى وسط الحبال، أجلس وأنظر إلى شاطئ الجزيرة المعتّم، تحت سماء عاصفة، الضفة قريبة بحيث لن أجد صعوبة في الوصـــول إلـــيها سباحة، الماء في خليج بور–مان أملس وشفاف رغم السماء المطرة وهبوب الريح.

قدم البحار الإيطالي وجلس بقربـــي يحدثني تارة بالفرنسية وتارة بالإنجليـــزية، وبـــبعض الكلمـــات الإيطالية كذلك. قال لي بأن اسمه ســـيلفيو، مـــنحني سيجارة أمريكية، حاولت التدخين، لكنّها حامزة وحلـــوة، وهـــذا يحـــدث لي دوارا، ثم أخرج من جيب سترته قالب شكولاته ومنحني قطعة، الشكولاته عذبة ومرّة في آن واحد، أظنني لم آكـــل أبدا ما يشبه ذلك. فعل الشاب كل هذا بجدية، دون ابتسامة، وكـــان يحـــرس ســـلّم الممرّ من حيث يمكن للقائد أن يطل، «لماذا لا تتركون الناس يصعدون إلى الجسر؟» سألت ببطء وأنا أنظر إليه. «نحن

في وضع سيء في الأسفل، إننا نختنق، لا وجود للضوء، هذا غير إنساني.» بدأ سيلفيو يفكر وقال: «الربّان لا يريد. لا يريد أن يروا ناسا في السفينة. ممنوع.» قلت «لكنّنا لا نقوم بشيء سيء. نحن ذاهبون إلى بلدنا.»

مجّ سيجارته بعصبية، نظر إلى جهة الجزيرة، إلى الغابة المعتمة والشاطئ الأبيض الصغير وقال: «لو جاء موظفو الديوان لأوقفوا السفينة، لن نستطيع الذهاب بعد ذلك أبدا»، رمى سيجارته في البحر ونهض: «عليك الآن أن تنزلي إلى العنبر.» دعوت الأطفال ودخلنا إلى السفينة. هناك حرارة وظلام في العنبر. سمعنا هرجا ومرجا. ضغطت أمي على ساعدي، عيناها محمومتان. «ماذا كنت تفعلين؟ مع من كنت تتكلمين؟» الرجال يتكلمون بأصوات جهورية في طرف العنبر. هناك غضب أو خوف في أصواتهم. تمتمت أمي: «يقولون إننا لن نكمل الطريق، خدعونا، سينزلوننا هنا.»

نظرنا طيلة النهار إلى الضوء القادم من المزراب، ضوء رمادي مؤلم. رأينا عبور السحب، أشرعة تخفي السماء، كما لو أن الوقت ليل. وشيئا فشيئا سكتت أصوات الرجال. توقف البحارة عن العمل في الجسر، هناك في الأعلى. نسمع صوت يطقطق على الهيكل. أحلم بأننا بعيدون في عرض البحر، في عمق الأطلسي، وبأننا، نحن الاثنين، نبحر باتجاه كندا.

كانت تريد الذهاب إلى هناك فيما مضى، في سان مارتان. أتذكر عندما كانت تتحدث عن شتاء كندا، في الغرفة الصغيرة حيث كنت أنتظر وعيناي مفتوحتان في الظلام، الثلج، الغابات، المنازل الخشبية على ضفاف الأنهار التي لا نهاية لها، طيران البطّ البرّي، هذا ما أريد الآن سماعه. «حدثيني عن كندا.» انحنت أميّ علي وقبلتني. لكنّها لم تقل

شـــيئا. قـــد تكـــون من التعب بحيث تفكر في بلد لا وجود له. ربّما نسيت.

عادت العاصفة ليلا. تمرّ الأمواج حتما بأعلى القمة الصخرية التي تحمي بور-مان، تضرب السفينة فتجعلها تترنح وتئن، يستيقظ الجميع، نتمسك بالأطراف حتى لا نقذف على الهيكل، تتـــزلق الرزم، الحقائب والأشياء الخفية الأخرى وترتطم بجدران السفينة. لا صوت يسمع، لا صوت بشري على الجسر، ثم تنتشر الشائعة قريبا: تخلى عنا الطاقم، إننا وحدنا على ظهر السفينة.

أشـــعل الرجال مخطافا قبل أن ينتشر الخوف. الناس كلهم حول المـــصباح، الرجال في جهة والنساء والأطفال في الجهة الأخرى. أرى الوجـــوه المـــضاءة بشكل خارق، العيون التي تلمع. قدم أحدهم من بولونـــيا، اسمـــه الحاخام جويل. رجل طويل ونحيف بشعر جميل ولحية ســـوداء. إنـــه جـــالس أمام المصباح، وضع قربه علبة صغيرة سوداء مـــشدودة بسير. يردد كلمات غريبة بتلك اللغة التي لا أفهمها. ينطق بـــبطء الكلمـــات الرنانة، الكلمات الجشاء، الطويلة، العذبة. تذكرت الأصـــوات الـــتي كانـــت تغني في ما مضى في المعبد، في البيت بسان مارتان، لم تؤثر في أية كلمة بهذا الشكل، مثل قشعريرة في حلقي، مثل ذكرى. سألت أمّي بصوت خفيض «ماذا يقول؟».

الـــرجال والنـــساء يترنحون ببطء، يصطحبون حركة السفينة في العاصـــفة، تتـــرنح أمي بدورها وهي تنظر إلى شعلة المصباح الموضوع علـــى السقفية."« اسمعي، هذه الآن لغتنا.» نظرت إلى وجهها عندما قالـــت هذا. كلمات الحاخام قوية، تصرف الخوف من الموت. العلبة الجليدية الصغيرة السوداء تلمع على السقفية بشكل عجيب، كأن هناك قـــوة مبهمة، أصوات الرجال والنساء ترافق كلمات جويل، وأنا أريد

قـــراءة الشفاه علّني أفهم، ماذا يقولون؟ أحب أن أسأل جاك بيرجي، لكنّي لا أجرؤ على الذهاب للجلوس قربه، أخاف إزالة السحر فيعود الخـــوف ليـــستقر بيننا، إنها كلمات تذهب مع حركة البحر، كلمات تـــدوي وتـــسير، كلمـــات عذبة وقوية، كلمات من الأمل والموت، كلمـــات أكبر من العالم، أقوى من الموت. فهمت معنى الصلاة عندما وصلت السفينة فجرا إلى خليج ألون.

أسمـــع الآن كلمات الصلاة، تأخذني اللغة معها. كلمات الحاخام جـــويل، بالنـــسبة إلي، ترنّ كذلك في السفينة. لست خارجا، لست غـــريبة. تحملـــني الكلمات، تأخذني إلى عالم آخر، إلى حياة أخرى. أعرف الآن ذلك، أفهمه. كلمات جويل هي التي تأخذنا إلى هناك، إلى أورشـــليم. رغـــم العاصـــفة، ورغم التخلي عنا، سنصل إلى أورشليم بكلمات الصلاة.

نـــام الأطفـــال مجـــددا ملتصقين بأمهاتهم، الأصوات الخافتة أو الواضـــحة تردّ على كلمات جويل، تتبع تردد الموج. ربّما تقمع الريح والمطـــر والظـــلام. ضوء المصباح يترنح، يضئ العيون. العلبة الصغيرة السوداء التي بقرب جويل تلمع بغرابة، كأن الكلمات تجيء منها.

نمـــت مجددا على السقفية. لست خائفة. يد أمي تتخلل شعري كما في ما مضى، أسمع الصوت الذي يردّد قرب أذني كلمات الصلاة الحلـــوة العذبة، وهذا يهدئني وينوّمني. أنا في ذكراي، أقدم ذكرى في الدنيا.

فـــتّش زورق لرجال الديوان **الإخوة السبعة** بعد مغادرتها بور-مـــيلان هذا الصباح. فجر. كان البحر هادئا، مصقولا بعد العاصفة. أعـــادت السفينة تشغيل محركها وانطلقت إلى عرض البحر والأشرعة كلـــها خارجـــا، كنت على الجسر مع بعض الأطفال أنظر إلى البحر

العميق الذي ينفتح أمامنا. وفجأة كان الزورق هناك، دون أن يكون لأي أحد متسع من الوقت لاستيعاب ذلك، جؤجؤها القوي يشق البحر وهو يقترب من جانبنا. تظاهر القائد برهة أنه لم يفهم، واستمرت **الإخوة السبعة** المائلة إلى الجنب في تسلق الأمواج نحو العرض. قال حينها رجال الديوان شيئا ما بمكبرات الصوت، لا مجال للشك.

نظرت إلى السفينة وهي تقترب منا، وبدأ قلبي يفقد صوابه، لم أستطع الكف عن النظر إلى الأطياف المتسقة، أعطى القائد الأوامر فأنزل البحارة الإيطاليون الأشرعة وأوقفوا المحرك. بدأت سفينتنا تطفو على غير هدى، وبعد أمد أولينا ظهورنا للعرض ورجعنا إلى الضفة، كان خط الأراضي أمامنا معتما ما يزال. لن نذهب أبدا إلى أورشليم. لن تأخذنا كلمات الصلوات، سنذهب إلى ميناء تولون الكبير، أو أنهم سيسجنوننا.

لا أحد يتحدث في السفينة، لا أحد ينبس ببنت شفة. الرجال جالسون في نفس المكان، كما بالأمس. كما الأشباح. أغلب الأطفال ينامون ورؤوسهم مسندة إلى ركاب أمهاتهم. نزل الآخرون من الجسر وقد شبكت الريح شعرهم. انطفأ المخطاف في إحدى زوايا العنبر قرب الأمتعة.

احتجزونا كلنا في هذه الغرفة الكبيرة في طرف ورشات أرسونال، لأنهم، بلا شك، لا يمكنهم وضعنا في حجرات ضيقة مع المساجين العاديين. منحونا أفرشة الميادين وأغطية. أخذوا كل وثائقنا، الأموال، وكل ما من شأنه أن يكون سلاحا، حتى إبر النسج التي لدى النساء والأمقاص الصغيرة الخاصة بلحى الرجال. نرى من النوافذ العليا ذات القضبان الحديدية ساحة عارية مغطاة بإسمنت مشقق حيث تعبث الريح بحزم العشب.

هناك في طرف الساحة حائط كبير من الحجارة. لو لم يكن هذا الحائط لأمكننا رؤية البحر الأبيض المتوسط والحلم بذهابنا. بعد يومين من احتجازنا في أرسونال استولت عليّ رغبة ملحة في رؤية البحر وأعددت خطة للهرب. لم أقل ذلك لأحد، لأن أمي ستقلق ولن تكون لي شجاعة الذهاب.

دخل ثلاثة رماة بحارة إلى حجرتنا من الباب الخلفي في وقت الغداء. كان اثنان يوزعان حصص الحساء والثالث يراقب متكئا على بندقيته. تمكنت من الاقتراب من الباب دون أن ألفت انتباه أحد، وإذ قدم لي أحد البحارة صحن الحساء أطلقته على رجليه وهربت، وعبرت الرواق دون أن أهتم بالصراخ القادم من الخلف. جريت هكذا، بكل قواي، وكنت من السرعة والخفة بحيث لن يستطيع أي كان القبض علي. في طرف الرواق هناك الباب الذي يؤدي إلى الساحة. جريت في الهواء الطلق بلا توقف. منذ وقت لم أر ضوء الشمس بهذه الزرقة، ولا

سـحابة، كل شيء يلمع في الهواء البارد، يلهب حنجرتي وأنفي، يجعل عيناي تدمعان.

تـوقفت لحظة للنظر من خلفي. يبدو أن لا أحد يتعقبني. كانت الساحة فارغة والجدران العالية لامعة. كان ذلك وقت الغداء. لا بدّ أن البحارة كلهم في قاعة الطعام. جانبت السور دون التوقف عن الجري. لاحظت فجأة أمامي بابا كبيرا بمصراعين والممر الواسع الذي يقود إلى البحـر. عبرت الباب كسهم، دون أعرف إن كانت هناك حراسة في المـرقب. أجـري إلى حد الممر من غير استعادة الأنفاس، هناك حيث يوجد حصن وصخور تشرف على البحر. أنا الآن في الأدغال، رجلاي ويـداي مخدوشة، أقفز من صخرة إلى أخرى. لم أنس منذ سان مارتان عندما كنت أصعد السيل. في ثانية واحدة أرى إلى أين أذهب، المنطقة الـتي يمكن عبورها، الحفر التي وجب تفاديها. الصخور منحدرة لاحقا وعلـيّ أن أخفـف الـسرعة. أتشبث بالأدغال وأنـزل إلى أسفل الصدوع.

حـين وصـلت إلى البحر كانت الريح تعصف بقوة، ووجدت صـعوبة في التنفس. الريح تدفعني قرب الصخور، تصفّر في الأدغال. توقفت في وقب صخرة، البحر الآن في الأسفل تماما. إنه جميل كما هو علـيه في ميناء ألون. اتساع من النار، قاس، أملس، وهناك بعيدا الكتل الـسوداء للـرؤوس وأشباه الجزر. الريح تدوّم في مدخل مخبئي، تزمجر وتئن كالحيوان. يتدفق الزبد في الأسفل على الصخور ويتناثر في الريح. لا شيء هنا، ما عدا الريح والبحر.

لم يحدث أن أحسست بمثل هذه الحرية من قبل. هذا يثير دوران الرأس، يثير قشعريرة، أنظر إلى خط الأفق، كما لو أن بسفينتنا ستصل من جهة الطريق المشتعل الذي تصنعه الشمس في البحر.

أنا في الجهة الأخرى من العالم كما أتصور، عبرت الريح والبحر وتركت ورائي الأكداس السوداء للرؤوس والجزر حيث يعيش الناس، حيث حبسونا. انــزلقت كعصفورة إلى مستوى البحر، عبر الريح، في الضوء وغبار الملح، ألغيت الزمان والمسافة، وصلت إلى الجهة الأخرى، هناك حيث الأرض والبشر أحرار، حيث كل شيء جديد فعلا.

لم يحدث أبدا أن فكرت في هذا من قبل. إنه هوس، لأني لا أفكر في هذه الآونة لا في سيمون روبان ولا في جاك بيرجي، ولا في أمي. لا أفكر في أبــي الذي اختفى في الأعشاب الطويلة، في أعلى بورتمون، لم أعــد أفكـــر لا في السفينة ولا في البحارة الرماة الذين يبحثون عني. ولكن، أصحيح أنهم يبحثون عني؟

ألم أضــع إلى الأبد في أعلى البحر معلقة في مخبئي الصخري، في جحـــر العصفور وبصري يحدق في البحر؟ قلبـــي ينبض ببطء، لم أعد أشعر بالخوف، لم أعد أشعر بالجوع، ولا بالظمأ، ولا بمشقة المستقبل، إنني حرة، بداخلي حرية الريح، الضوء. يحدث هذا لأول مرّة.

بقـــيت في المخبأ طوال النهار وأنا أنظر إلى الشمس التي تنـــزل مجددا نحو البحر. لا يوجد أي أحد. منذ وقت وأنا أرغب في أن أكون وحـــيدة، دون أن يكون هناك أحد يتحدث بجانبـــي. أفكر في الجبل، في الوادي الفسيح، في النافذة الجليدية لما كنت أترقب عودة أبـــي. إنها الـــصورة التي آخذها معي حيث حللت، حين كنت بحاجة إلى العزلة، إنهـــا الـــصورة التي أرها عندما أبقى سجينة في الغرفة المظلمة بشارع جرافيليي هي التي تظهر في الورق المرسوم للحائط.

ما زلت أتذكر، أبـــي الذي يمشي أمامي في الأعشاب، الأكواخ الحجـــرية الـــتي آوتـــنا أنـــا وأمي. الصمت، صرير الريح الوحيد في الأعـــشاب، ضحكاتهما وهما يتبادلان القبل. كما هنا، الصمت، الريح

الـــتي تـــصفر في الأدغـــال، السماء الخالية من السحب، وقعر الوادي الواســـع، الضبابـــي، والقمم المخروطية التي تطفو كالجزر. احتفظت بهـــذا معي، في رأسي، في كلّ الأوقات، في مرآب سيمون روبان، في شقة شارع جرافيليي التي لم نكن نخرج منها، حتى عندما كان سيمون روبان يقول بأن الألمان لن يعودوا، بأنهم لن يعودوا أبدا. كان في رأسي وقتئذ ذلك الجبل، الانحدار العشبـــي الذي يبدو ذاهبا إلى حدّ السماء، والوادي الغارق في الضباب الخفيف، أدخنة القرية الدقيقة التي تصعد في الهواء الشفاف غسقا.

ذاك مـــا أحبّ أن أتذكره، وليس الصخب المرعب، ولا طلقات الرصـــاص. أمشي كما في حلم وأمّي تشد على زندي وتنادي: «تعالي يا حبيبتي، تعالي، أهربـــي، أهربـــي!»

هـــنا، في مخبئي، يبدو لي أنها المرّة الأولى التي لم أعد أستطيع فيها سمـــاع تلك الأصوات، تلك الكلمات، لن أرى ثانية تلك الصور التي حلمت بها، لأن الريح والشمس والبحر دخلوا إلى أعماقي وغسلوا كل شيء.

بقيت في مخبئي وسط الصخور إلى أن أصبحت الشمس قريبة من الأفـــق ولامست خط الشجر على شبه الجزيرة، في الجهة الأخرى من المرسى.

أحســـست حيـــنها بالبرد فجأة، سقط مع الليل، ربّما بسبب الجوع والعطش، وبسبب التعب أيضا. أشعر بأني لم أتوقف عن السير والجـــري مطلقـــا، مـــنذ اليوم الذي نـــزلنا فيه من الجبل مجددا عبر الأعشاب الطويلة التي كانت تذبح شفتيّ ورجليّ. لم يتوقف قلبـــي مـــنذ ذلـــك اليوم على الخفقان بسرعة وبقوة، على الدقّ في صدري كحيوان مرعوب.

حتى في الشقة المعتمة بشارع جرافيليي لم أتوقف عن السير والجري، كان صدري ضيقا حرجا. روز هو اسم الطبيب الذي جاء لفحصي. لم أنس اسمه، مع أني لم أره سوى مرّة واحدة، لأنني كنت أسمع أمي والعم سيمون روبان يقولان إن اسمه رائع: «قال السيّد روز... ذهب السيّد روز... يرى السيّد روز أن...»

عندما جاء السيّد روز ودخل شقتنا التعيسة ظننت أن كل شيء سيغدو مشرقا ومنيرا، لم يخب أملي كثيرا عندما لاحظت أن السيّد روز صبيّ بدين وأصلع بنظارات سميكة لشخص يعاني قصر النظر، فحصني من وراء لباسي الداخلي، جسّ عنقيّ وذراعيّ وقال بأني مريضة بالربو وبأني هزيلة. وصف أقراصا من الأوكالبتوس لعلاج الربو، وقال لأمي بأن علي أن آكل اللحم. اللحم! هل كان يظن بأننا لا نأكل سوى الخضر الفاسدة التي كانت أمي تلتقطها من الأسواق المسقوفة، وبعض قشور التمر في بعض الأحيان. منذ ذلك اليوم أصبح لي حساء من الأعناق والقوائم التي كانت أمي تحضرها مرتين أسبوعيا، لم أر بعد ذلك السيّد روز مرّة أخرى.

أفكر في ذلك عندما يسقط الليل على المرسى، والحال أنه يبدو لي بأني توقفت عن المشي والجري لأول مرّة في هذا المخبأ. بدأ قلبي أخيرا يخفق في صدري بهدوء، أستطيع أن أتنفس دون صعوبة، دون أن أجعل المجاري الهوائية تصفّر.

الكلاب هي التي أيقظتني قبل طلوع الفجر، عثر عليّ البحارة في مغارتي وأعادوني إلى أرسونال. حين دخلت القاعة الكبيرة نهضت أمي من سريرها، تقدمت نحوي وقبلتني. لم تقل شيئا، وما كان بمقدوري أن أقول لها شيئا، ولا لماذا، ولا معذرة. كنت أعلم أني لن أعرف أبدا يوما وليلة مثلهما. بقي ذلك في أعماقي، مع البحر والريح والسماء. يمكنهم الآن أن يضعوني في السجن إلى الأبد.

لم يعلـــق أحـــد، لكـــنّ الناس الذين تجاهلوني إلى اليوم أصبحوا يحدثـــونني بلباقة، جاء الراعي وجلس قربـــي، حدثني بلطف بدت لي غـــريبة. بـــدا لي أن عدة سنين مرّت وأنا هناك في مخبئي، بقينا نتكلم طـــوال النهار جالسين على الأرض قرب النوافذ العالية. جاء الحاخام جويل معنا، تحدث عن أورشليم، عن تاريخ شعبنا. أحبّ كثيرا عندما يتحدث عن الدين.

لم يحدث أبدا أن كلمني أبـــي وأمي عن الدين. كان العم سيمون روبـــان يتحدث عن الدين والمراسم والحفلات والزواج، لكنّها كانت عادية بالنسبة إليه، غير مخيفة، أشياء بديهية، عادات. وإذ كنت أطرح علـــيه سؤالا في الدين يتملكه الغضب، يقطب حاجبيه ويرمقني شزرا. كانت أمي تمكث واقفة، كأنها مذنبة، ذلك لأن أبـــي لم يكن مؤمنا، ذلـــك لأنه كان شيوعيا كما يقال. لم يكن العم سيمون روبان يجرؤ وقتها على استقدام الحاخام، وكان يتحدث عن الدين مغتاظا.

لكنّ الراعي يصبح حقا إنسانا آخر لمّا يتحدث في الدين مع الحاخام جـــويل، كنت أحبّ الاستماع والنظر إليهما خفية. الراعي بلحيته وشعره الذهبـــــي، وجويل بوجهه الناصع البياض وشعره الأسود وطيفه النحيل. كانت له عينان ذات خضرة شاحبة، مثل ماريو، إنه هو الراعي الحقيقي.

الحـــديث في الدين بهذه الطريقة أمر غريب في هذه القاعة الكبيرة التي سجنّا فيها. كان الراعي وجويل يتحدثان بصوت منخفض حتى لا يـــزعجان الآخرين، كما لو كنا مازلنا مسجونين في مصر، كما لو أننا مقبلون على الذهاب، وكأن الصوت المخيف سيرنّ في السماء والجبال وأن الضوء سيشع في الصحراء.

أظنني كنت أطرح أسئلة بلهاء لأني لا أعرف شيئا، لم يحدث أن كلّمني أبـــي عن هذا. كنت أسأل لماذا الـــ: إ... غير مسمّى، لماذا هو

غـــير مرئي وخفي مادام قد خلق كل شيء على الأرض، كان الحاخام جـــويل يهزّ رأسه قائلا: «إنه ليس محجوبا، ليس خفيا، نحن المحجوبون والخفيون، نحن الذين في الظلّ.» يردد عادة هذا: الظلّ، يقول إن الدين هـــو النور، النور الوحيد، وأن حياة الإنسان، أعماله، كل ما يبنيه من إنجـــازات كـــبيرة ورائعة ليست سوى ظلال. وكان يقول: «أبونا هو الـــذي أنجز كل شيء، ونحن سليلوه، أرض إسرائيل هي المكان الذي ولدنا فيه، المكان الذي أشعل فيه الضوء أوّل مرّة، هناك حيث ابتدأت الظلال.»

كـــنّا جالسين قرب النافذة ذات القضبان الحديدية، وكنت أنظر إلى السماء الشديدة الزرقة، «لن نصل إلى أورشليم مطلقا.» قلت هذا لأني كـــنت متعـــبة جـــدا من التفكير فيها، أريد اللحاق بمخبئي في الصخور، في أعلى البحر، «قد تكون أورشليم غير موجودة.» نظر إليّ الراعي بعنف. انقبض وجهه الوديع بفعل الغضب. «لماذا تقولين هذا؟» كان يتكلم ببطء، لكنّ عينيه كانتا تشعّان من الهياج، قلت: «قد تكون موجودة، لكنّنا لن نصل إليها. لن تسمح لنا الشرطة بالذهاب. يجب أن نعود إلى باريس.»

قـــال الراعـــي: «إن منعونا اليوم سنذهب غد، أو بعد غد. وإن مـــنعونا الذهاب في السفينة سنذهب راجلين، حتى لو مشينا سنة.» لم يقـــل هـــذا من أجل الذهاب، لكنّه يريد رؤية البلد الذي ولدت فيه العقيدة، أين كتب الكتاب الأول. خفق قلبـــي بسرعة لرؤية الضوء في عينيه، ولأنه يريد فعلا الوصول إلى أورشليم، فقد نصل حقا في يوم ما.

مـــرت الأيام كذلك، طويلة، ونسيناها. يقول الناس سيقاضوننا ويعيدونـــنا كلـــنا إلى باريس. حين أرى أمي منهكة القوى وحزينة، جالـــسة علـــى ســـريرها وبـــصرها مثبت في الأرض، مدثرة بالغطاء

الأمريكـــي بسبب البرد، أحس بانقباض القلب وأقول لها: «لا تحزني يا أمي، يا حفيدتي، سترين، سنهرب، لي خطة، إن كانوا يريدون إعادتنا في قطار إلى باريس فإن لي خطة، سنهرب.» لم يكن ذلك صحيحا، لم تكـــن لي خطة، ومنذ اختفائي أصبح البحارة الرماة يحرسونني. «وإلى أيـــن ســـنذهب؟ سيأخذوننا مرّة أخرى إلى أية جهة.» ضغطت على يـــديها بقوة. «سترين، سنمشي على طول الشاطئ سنذهب إلى نيس، عـــند أخ العم سيمون. ثم نذهب إلى إيطاليا، إلى اليونان، سنصل إلى غايـــة أورشـــليم." لم تكن لي أية فكرة عن البلدان التي يجب عبورها للوصـــول إلى أرض إســـرائيل، لكـــنّ الراعي تحدث عن إيطاليا وعن اليونان.

ابتسمت أمي قليلا. «يا بنت! ومن أين نأتي بالمال للسفر؟» قلت لها: «المال؟ هذه ليست مشكلة، سنشتغل في الطريق، سترين، لن نحتاج نحـــن الاثنتين إلى أي كان.» انتهى بـــي الأمر إلى الاعتقاد بذلك من كثـــرة الحديث عنه. إن لم نجد عملا فسأغنّي في الشوارع بوجه مطلي بالأســـود وقفازات بيضاء، مثل المانستريل في شوارع لندن، أو أتعلم المـــشي على حبل، وسأرتدي ثوبا لصوقا مغطّى بالبرق، وسيرمي المارة قطعـــا نقدية في قبعة قديمة، وستكون أمي متواجدة باستمرار لتحرس، لأن العـــالم ملـــيء بالأشرار. أتصوّر أن الراعي نفسه سيأتي معنا إلى إيطالـــيا، وكـــذلك الحاخـــام جويل بلباسه الأسود وعلبة الصلوات، سيتحدث مع الناس في الدين، سيتحدث عن أورشليم. سيجلس الناس قربه للاستماع إليه، وسيقدمون لنا قوتا وقليلا من المال، وبخاصة النساء والفتيات، لأجل الراعي وشعره الأسود.

كـــان علـــيّ تحضير خطة للهرب. قضيت عدة ليالي وأنا أقلب الفكـــرة في رأســـي، تخيلت كل الشوارع للإفلات من البحارة، من

الشرطة، ربّما استطعنا القفز في البحر والسباحة في الأمواج بنوع من الطافيات، أو على طوف، إلى أن نجتاز الحدود الإيطالية. لكنّ أمّي لا تعرف السباحة، ولم أكن متأكدة من الراعي، ولا من قبول الحاخام جويل الإلقاء بنفسه في الماء ببدلته السوداء الجميلة وكتابه.

والحال أنه لن يقبل التخلّي عن عائلته هنا وترك شعبه بين أيدي الأعداء الذين يحتجزوننا، يجب أن نذهب جميعا، الشيوخ، الأطفال، النساء، وكل الذين كانوا سجناء، لأنهم يستحقون الوصول إلى أورشليم. في الحقيقة، ما كان موسى نفسه ليتخلى عن الآخرين ويهرب وحده إلى أرض إسرائيل، ذاك ما كان صعبا.

أحببته أكثر في القاعة الكبيرة حيث كنا محتجزين في فترات الظهيرة الطويلة بعد الغداء، لما تضيء الشمس النوافذ العالية وتبدد قليلا البرد الرطب. تجلس النساء في مستطيلات الضوء المقسمة على بلاطات الحجر الرمادية، ينشرن الأغطية أفرشة ويثرثرن والأطفال يلعبون من حولهن، كان صوت أحاديثهن يحدث طنينا عجيبا لخلايا النحل.

أما الرجال فكانوا يمكثون في مؤخرة القاعة يتحدثون بصوت منخفض وهم يدخنون ويشربون القهوة جالسين على أفرشة الميدان، وكان صخب أصواتهم يحدث ضوضاء أكثر حدّة، مرقّمة بصيحات وضحكات.

كنت حينها أحب الحكايات التي يرويها الحاخام جويل، يأتي ويجلس مع الأطفال على الأرض تحت ضوء إحدى النوافذ، وكان شعره ولباسه يلمعان كالحرير، كان جويل، في البداية، لا يتكلم إلا مع الراعي، دون أن يرفع صوته كي لا يزعج الآخرين. يفتح كتابه ويقرأ ببطء. يبدأ بتلك اللغة الجميلة، الحلوة، العذبة تلك التي سمعتها من قبل في المعبد بسان مارتان، ثم يتحدث بالفرنسية ببطء وهو يبحث عن

الكلمات، وكان الراعي يساعده أحيانا لأنه لا يتكلم تلك اللغة جيّدا، ثم جـــاءت أمي، وجاء أطفال آخرون وفتيات، أطفال غرباء لا يعرفون لغتـــنا، ومـــع ذلك يجلسون للاستماع، كانت هناك أيضا فتاة اسمها جـــوديت ترتدي لباسا متواضعا، بخمار مشّجر على رأسها دائما، مثل فلاحة.

ننتظـــر شـــروع الحاخام في الكلام، كأن صوتا داخليا يردّد ما نـــسمعه، يتحدث عن القانون والعقيدة، كأهما أسهل أمرين في الدنيا. يتحدث عن معنى الروح بالحديث فقط عن ظلّنا، وعن العدالة بالكلام عـــن ضوء الشمس وجمال الأطفال، ثم يأخذ سفر التكوين الذي منحه لأمـــي العـــمّ سيمون روبان قبل رحيلنا ويشرح ما ورد فيه، لا يوجد شـــيء أفـــضل من حكاية بداية العالم. كان يردد الكلمات، في بداية الأمر، باللغة الإلهية، وببطء، جاعلا كل لفظة ترنّ، وكل مقطع، وكنا نعـــتقد أحـــيانا أننا فهمنا بمجرد سماع كلمات هذه اللغة ترن هنا، في صمت سجننا. والحال أن الجميع يتوقف عن الثرثرة والحديث في هذه الآونـــة، حتى الشيوخ يستمعون وهم جالسون على أفرشة الميدان، إنها كلمات الـــ: إ... تلك التي علقها في الفضاء قبل أن يخلق العالم.

كـــان جويل يذكر الاسم ببطء وبذهول، هكذا« الله وحده بين الآخـــرين، أكـــبر المخلوقات، هو الوحيد الأوحد، الذي يستطيع أن يفعل...».

كـــان يقـــول في الأيـــام الأولى، هنا في هذه القاعة الكبيرة، مع مستطيل النوافذ الذي يدور ببطء على الأرض.

« **في البدء خلق الله السماوات والأرض.**»

وكنت أقول «: بشر؟ كانت السماء والأرض بشرا؟»

«نعم، بشر، المخلوقات الأولى شبيهة بالرب الإله.»

ثم يقـــرأ كـــذلك: «**وكانت الأرض خربة وخالية، وعلى وجه الأرض غمر.**»

كان يقول: «كان الله يستعمل الفراغ، الفراغ هو إسمنت الأرض والوجود.»

ويردف: «**وروح الله يرفّ على وجه المياه.**»

يقول: «**النفس، التنفس في برد الماء.**»

كان يتحدث عن الشمس، عن القمر، كان يقص حكايات شعبية، ولم نفكر في ظلّ القاعة، في الوقت الذي يدوّر النوافذ على الأرض.

كان ذلك رائعا، وكنا نفهم كلنا، جوديت أيضا، وكل الأطفال، كنا نفهم معنى تلك العبارات.

ثم يقـــرأ: «**وقال الله ليكن نور فكان نور، ورأى الله النور أنه حسن، وفصل الله بين النور والظلمة.**»

يقـــول: كـــان الضوء هو ما يمكن معرفته، وكان الظلام إسمنت الأرض، جـــاء هـــذا وذاك منعزلين، يتعذر الحفاظ عليهما معا، هناك الذكاء من جهة، وهناك العالم من الجهة الأخرى...»

« ودعا الله النور نهارا، والظلمة دعاها ليلا.» سمعنا هذين الاسمين، أجمل اسمين سمعناهما. «كان **اليوم** مثل البحر، بلا حدود، يملأ كل شيء، يعطي كل شـــيء. أما **الليل** فهو الفراغ، إسمنت الدنيا.» كنت أستمع إلى كلمات هذه اللغة الإلهية التي ترنّ في السجن. « **وكان مساء وكان صباح يوما واحدا.**»

عندما كان جويل يقول في البدء، أحس بقشعريرة. اليوم الأوّل، لحظة التكوين.

«**وقال الله: ليكن جلد في وسط المياه. وليكن فاصلا بين مياه، فعمـــل الله الجلـــد، وفصل بين المياه تحت الجلد والمياه فوق الجلد. وكان كذلك.**»

«مـــا هي المياه التي تحت الجلد؟» سألته. نظر إلى جويل دون أن يـــردّ. وأخيرا: «استمعي، الكتاب لا ينطق عن الهوى، اسمعي البقـــية: «**ودعـــا الله الجلد سماء، وكان مساء وكان صباح يوما ثانيا.**»

توقف برهة وأردف: «**وقال الله: لتجتمع المياه تحت السماء إلى مكان واحد، ولتظهر اليابسة. وكان كذلك.**»

«لماذا كان الماء أوّلا؟»

«كانت الحركة، قبل الثبات، الحركة الأولى للحياة.»

فكـــرت في البحر الذي يجب عبوره، الأرض التي بلا ماء تبدأ في الجهة الأخرى. يقرأ جويل من جديد ثم يترجم:

«**ودعـــا الله اليابسة أرضا، ومجتمع المياه دعاه بحارا. ورأى الله ذلك أنه حسن.**»

«كـــيف كانت الأرض؟» حاولت أن أتخيل الأراضي الأولى التي خـــرجت مـــن البحر، مثل الجزر المظلمة التي رأيتها في العاصفة، على جسر **الإخوة السبعة.**

«كيف ترينها أنت؟» التفت جويل نحوي، ثم نحو الراعي، ثم إلى كل منا، وإذ لم يتحدث أحد:

«في الحقيقة، هذا لا يمكن أن يقال...»

واســـتمر: «**وقـــال الله: لتنبت الأرض عشبا وبقلا يبزر بزرا، وشـــجرا ذا ثمـــر يعمل ثمرا كجنسه، بزره فيه على الأرض. وكان كذلك.**»

توقف: هل فكرتم في هذه البذرة؟»

قـــال: «الحـــركة الـــتي توحّد الحرارة والبرد، التي توحّد الذكاء والعالم. النهار، الليل، البذور، الماء... كل شيء وجد من قبل...»

وقرأ كلمات الكتاب: «**فأخرجت الأرض عشبا وبقلا يبزر بزرا كجنسه، وشجرا يعمل ثمرا بزره فيه كجنسه. ورأى الله ذلك أنه حسن، وكان مساء وكان صباح يوما ثالثا.**»

الصوت يتحرك بداخلي، يلامس القلب، البطن، إنه في حلقي وفي عينيّ. هذا يربكني، من الأحسن أن أبتعد قليلا وأخبئ وجهي في خمار أمي، كل كلمة تدخل أعماقي لتكسر شيئا، هذه هي العقيدة، تكسر فيك أشياء، أشياء تمنع تحرك هذا الصوت.

منذ أسابيع وأنا أسمع يوميا صوت المعلم في هذا السجن. إننا جالسون على الأرض مع الأطفال الآخرين، مع النساء والرجال ونستمع إلى هذا الإرشاد. لم تعد لي الآن رغبة في الفرار، في الجري. تحت الشمس لرؤية الحرّ، ما يقوله الكتاب أكثر أهمية ممّا هو موجود خارجا.

يقرأ جويل: «**وقال الله: لتكن أنوار في جلد السماء لتفصل بين النهار والليل، وتكون لآيات وأوقات وأيام وسنين.**»

«أكان الوقت كذلك؟»

لكنّ جويل ينظر إليّ دون أن يجيب. ويقرأ:

«**وتكون أنوارا في جلد السماء لتنير على الأرض. وكان كذلك.**»

ثم يستدير نحوي ليجيب:

«ليس الزمان هو ما كان يمدّه الرب الإله، بل الذكاء، القدرة على الفهم. ما نسميه اليوم العلم، كان كل شيء جاهزا لتسير آلة العالم. العلم، كان ضياء النجوم...»

لم يحدثني أحد أبدا عن النجوم منذ دلّني عليها أبي ذات مساء، في صائفة وفاته. النجوم الثابتة والنيازك التي تنزلق كقطرات على سطح الماء..

« فعمـــل الله الـــنورين العظيمين: النور الأكبر لحكم النهار، والنور الأصغر لحكم الليل، والنجوم.»

أعـــاد جويل إغلاق سفر التكوين مع إقبال الليل، دخل الصمت إلى القاعة مثل البرد، نهضنا الواحد تلو الآخر للالتحاق بزوايانا، ذهبت مع أمي للجلوس على السرير بمحاذاة الجدار. «أعرف الآن أننا سنصل إلى أورشـــليم.» قلـــت ذلك لتشجيع أمي، لكنّي كنت أؤمن بذلك. «سنـــصل لمّا نعرف كلّ ما في الكتاب.» ابتسمت أمي: «هذا سبب كـــاف لقـــراءته.» كنت أريد أن أقول لأمي لماذا لم يتلُ علي أبـــي الكـــتاب مطلقا، لماذا كان يفضل أن يتلو علي روايات ديكنـــز. ربّما كان يريد أن أعثر عليه بنفسي في اليوم الذي سأحتاج إليه. والحال أن كـــلّ مـــا شرحه لي، وكل ما تعلمته في المدرسة إلى اليوم، كل ذلك أصبح واضحا وصحيحا، أصبح كل شيء سهل الفهم، واقعيا.

جاء المحامي لزيارتنا في السجن، وصل في الصباح الباكر بمحفظة مليئة أوراقا، وبقي فترة طويلة من اليوم يحدّث الناس في القاعة الكبيرة، بل إنه أكل معنا عندما أحضر البحارة الرماة الوجبة، عصيدة ولحم. اليهود المسنون لم يرغبوا في أكل اللحم، قالوا إنه ليس جيّدا، لكنّ النساء والأطفال أكلوا دون أن يستمعوا إليهم. قال الراعي إن المهم هو العيش لامتلاك القدرة على التحرر والذهاب إلى أورشليم.

جاء المحامي أيضا ليكلّم أمي وجاك فيرجي وأمّ جوديت التي كانت معنا، كان المحامي رجلا شابا يرتدي كنزة رمادية، مرتب الشعر جيّدا، وكانت له شوارب صغيرة. كان صوته لطيفا وعيناه وديعتين، وكانت أمي مسرورة جدا بالحديث معه. طرح على أمي بعض الأسئلة ليعرف من أين جئنا ومن نحن ولماذا قررنا الذهاب إلى أورشليم. سجل الأسماء والأجوبة في كراس مدرسي، وإذ عرف أن أبي مات في أعقاب الحرب بسبب الألمان، وبأنه كان في المقاومة، دوّن ذلك بعناية في كراسه.

قال بأنه لا يمكن البقاء هنا في هذا السجن. أما بالنسبة إلى جاك بيرجي وأمّ جوديت فقد سجل اسميهما ودقق النظر في أوراقهما بعناية لأنهم منحوها إياه في مركز القيادة قبل قدومه، ثم أعاد لكل واحد وثائقه أو بطاقته الهوية أو جواز سفره، أحاط به الناس وصافح الجميع. تجمع النساء والرجال من حوله وطرحوا عليه أسئلة، سألوه عن وقت تحريرهم وعمّا إذا كانوا سيعيدونهم إلى باريس. كان الذين قدموا من

بولونيا هم من ألحوا، وكانت النساء تتحدثن دفعة واحدة. طلب عندئذ الهــدوء وتكلّـــم بصوت مرتفع حتى يسمع الجميع، وحتى تتمّ ترجمة كلماته للذين لا يفهمون الفرنسية في آن واحد: «أصدقائي، لا تخافوا شــيئا يا أصدقائي الأعزاء. سيكون كل شيء على ما يرام، ستكونون أحرارا عمّا قريب، أعدكم، لا تخشوا شيئا».

وكانت الأصوات من حوله تردد: «والسفينة؟ هل يمكننا ركوب الــسفينة مـــن جديد؟» تعالى ضجيج مع كلمة السفينة، وكان على المحامـــي أن يتكلم بصوت أقوى: «نعم يا أصدقائي، بإمكانكم مواصلة رحلتكم، السفينة مستعدة للانطلاق، جهّز الربّان فريلو الطوافات التي كانـــت ناقصة، وأعدكم... وأعدكم بأنه بمقدوركم مواصلة رحلتكم بعـــد يـــوم أو يومين. كان الليل قد جنّ عندما ذهب المحامي، صافح الجمـــيع مـــرّة أخرى، وحتى الأطفال الصغار. وكان يردد: ثقوا أيها الأصدقاء الأعزاء، سيكون كل شيء على ما يرام.»

عـــشنا الـــساعات اللاحقة في نوع من النشوة. النساء تتحدثن وتـــضحكن، ولم يـــرغب الأطفـــال في النوم ليلا، ربّما بسبب ريح الجفـــوف التي تهب هذه الأيام. كانت السماء من الصفاء بحيث كنا نـــرى حتى أثناء الليل. بقيت أنا جالسة قرب نافذة، متدثرة بغطائي وأنظـــر إلى القمر المنـــزلق بين القضبان الحديدية نازلا إلى البحر في طـــرف الساحة، كان الرجال يتحدثون في القاعة الكبرى والشيوخ الورعون يصلون.

يبدو لي الآن أن المسافة التي تفصلنا عن المدينة الكبيرة المقدسة لم تعـــد قائمة، كما لو أن هذا القمر نفسه الذي ينسحب في السماء هو الذي يضيء أورشليم، البيوت، حقول الزيتون، القبب والمآذن. الوقت بـــدوره لم يعد موجودا، إنها السماء القديمة نفسها، عندما كان موسى

ينتظر في دار فرعون، أو لما كان إبراهيم يحلم بالطريقة التي خلقت بها الشمس والقمر والنجوم والماء والأرض وحيوانات العالم جميعها.

أدركت هنا، في سجن أرسونال أننا كنا جزء من ذلك الزمان، وذاك ما يجعلني أقشعر من الخوف ويجعل قلبي يخفق، كما كنت أستمع إلى كلمات الكتاب.

جاء الراعي ليلا وجلس قربي بمحاذاة النافذة. لم يستطع أن ينام هو الآخر. تحدثنا بصوت منخفض. نام الناس في الجوار بهدوء، ونام الأطفال، كنا نسمع الصوت المنتظم للأنفاس وشخير العجائز. حدّثني الراعي عن أورشليم، عن هذه المدينة التي سنصبح فيها أخيرا مثل أنفسنا، قال إنه سيذهب للعمل في مزرعة، وعندما يقتصد مالا سيذهب لمتابعة الدراسة، ربّما في فرنسا أو في كندا. لا يعرف أحدا هناك، لا أهل له ولا صديق. قال أيضا بأننا نستطيع أنا وأمي العمل في كيبوتز. لأول مرّة أسمع كلاما عن هذا، عن المستقبل وعن العمل.

فكرت في حقول القمح في روكبيلير، وفي الرجال الذين يتقدمون وهم يديرون المناجل الكبيرة، في الأطفال الذين يلتقطون السنابل، كان قلبي يدق، أحسست بحرارة الشمس على وجهي، كنت مرهقة جدا، وبدا لي أني لم أتوقف عن الانتظار، في فيستونيا، في الحقل، في أعلى القرية وعيناي على الكتلة الصخرية التي ينتهي إليها طريق المضيق، من حيث لم يعد أبي أبدا.

أسندت عندئذ رأسي على كتف جاك بيرجي ومرّر ذراعه حولي، مثلما كنت أترقب وصول السفينة في صخور ميناء ألون. شممت رائحة جسده، رائحة شعره. كنت أودّ أن أنام أو أن أغمض عينيّ، وعندما أفتحهما أكون وسط أشجار الزيتون، في روابي أورشليم، وسأرى الضوء يشّع على السقوف والمآذن.

جـــاءت أمي. أخذتني من يدي وساعدتني على النهوض بلطف، دون تعلـــيق، ثم قادتني إلى سريري قرب الجدار. فهم الراعي وتنحّى. قـــال لـــيلة ســـعيدة بصوت أجش، وعاد إلى سريره في جهة الرجال. أرقـــدتني أمي، لفتني جيّدا في الغطاء كي لا أبرد. كنت متعبة جدا. لم يحدث أن أحببت أمي بعنف، لأنها لم تقل شيئا. أحاطتني بالغطاء جيّدا كمـــا كنت صغيرة، في السقيفة بمدينة نيس، وكنت أسمع دوارة الهواء تهتـــز علـــى السقوف الفولاذية. قبلتني من جهة الأذن، كما أحب، ثم نامـــت بـــدورها، سمعت نفسها المنتظم دون أن أسمع أنفاس النائمين وشـــخيرهم. نمت في الوقت الذي بقيت عيناها مفتوحتين، وهي تنظر إليّ.

ذهـــبت **الإخوة السبعة** هذا الصباح غسقا. البحر أملس معتم، مـــزدحم بالنوارس، لنا الحق الآن في صعود الجسر، على أن لا نـــزعج القيادة. رافقنا المحامي إلى حافة الفتحة، صافحنا جميعا وهو يقول: «إلى اللقـــاء أصدقائي، حظ سعيد.» صعد الحاخام جويل في الأخير بلباسه الأســـود. سأله بتواضع عن كيفية التسديد. لكنّ المحامي صافحه قائلا: "راسلوني لما تصلون."

بقـــي واقفـــا على الرصيف. أمر القائد فريدو برمي القلوس. بدأ محـــرك الـــسفينة يهتز بقوة، وبدأنا نبتعد، بقي المحامي على الرصيف، محفظته في يده وقد رجته هبة الريح، لوّحت النساء والأطفال بالمناديل، غـــدا الرصـــيف أصغر فأصغر، مع الطيف الذي يبصر بالكاد في ضوء الفجر.

أمي ملتفة في الغطاء وفي خمارها الأسود، أصبحت شاحبة بسبب تمايل السفينة، رأت الشاطئ ينأى وأشباه الجزر تنفتح. نـــزلت لتنام في العنبر. عثر كل واحد منّا على المكان الذي شغله في بداية الرحلة.

رافقـــت الـــدلافين الـــسفينة في العرض بالقفز أمام مقدمتها، ثم أشـــرقت الـــشمس وذهبت الدلافين لتختبئ، سنكون هذا المساء في إيطاليا، في لاسبيزيا.

كانـــت إستير واقفة في الممر وهي تنظر إلى جسر السفينة حيث اجتمع المسافرون. كان الجوّ رائعا. لأول مرّة منذ أيام انقشعت الغيوم وشعّت الشمس. كانت السماء ذات زرقة حادة رائعة، لم تشبع إستير من النظر إليها.

عـــبرت **الإخوة السبعة** عرض قبرص هذه الليلة، الأضواء كلها مطفـــأة، الآلات مـــتوقفة، بـــسرعة الريح وحدها التي تجعل الأشرعة تـــصطفق. لا أحد ينام في العنبر، ماعدا الأطفال الصغار الذين لا يعون الخطر. كان الجميع على علم بأن الجزيرة هنا، قريبة جدا، يسارا، وأن الزوارق تقوم بدوريات. سجن الإنجليز آلاف الناس في قبرص، الرجال والنساء والأطفال الذين تم القبض عليهم في البحر في طريقهم إلى أرض إسرائيل. قال الراعي بأن الإنجليز سيعيدونهم بلا ريب إن أمسكوا بهم. سيـــضعونهم في مخـــيّم، ثم في سفينة لأخذ بعضهم إلى وفرنسا والبعض الآخر إلى إيطاليا أو ألمانيا أو بولونيا.

لم تـــنم إســـتير هذه الليلة. كانت السفينة تنـــزلق بصمت على البحـــر المائج، تبحر مائلة بسبب ضغط الريح على الشراع الكبير. لا يـــريد الربّان فريلو رؤية أحد على الجسر، لا يمكن إشعال المصباح ولا قداحـــة من أجل سيجارة كان عنبر الإخوة السبعة معتما كفرن. إستير تـــضغط جـــيّدا علـــى يد أمها وهي تستمع إلى احتكاك الماء بالهيكل واصـــطفاق الشراع. كان الليل طويلا ولكل لحظة اعتبارها، كما في فيستونيا لّما كان الألمان يفتشون عن الفارين في الجبل. أو كما في تلك الليلة أثناء قصف الأمريكان جنوى. بيد أن هذه الليلة أطول لأن الرحلة

علـــى وشـــك النهاية بعد عشرين يوم في البحر. انتظر الجميع طويلا وصـــلّوا وتحدثوا وغنّوا. غنّت الأصوات لحظة في الظلام، خفية، بلغة مجهولة، ثم توقفت فجأة، كأن الدوريات الانجليزية ستسمعهم في جهة ما من جهات البحر، رغم المسافة وضجيج الأمواج.

في لحظـــة مـــا أشعل أحدهم القداحة لمعرفة الساعة، برغم المنع، وانـــتقلت الـــشائعة من هذا إلى ذاك، بالألمانية، باليدية، ثم بالفرنسية: «منتـــصف الليل، الساعة منتصف الليل، تجاوزنا قبرص.» كيف عرفوا هـــذا؟ حاولـــت إستير أن تتخيل الجزيرة وجبالها العالية خلف السفينة كجـــنازة وحش. استمرّ المسافرون في الحديث وسمعنا ضحكات. كان هناك وقع خطى على الجسر، وانفتح المزراب.

نـــزل سيلفيو، صديق إستير، بعض السلالم: «سكوت، لا تحدثوا ضـــجيجا، السفن الانجليزية من هذه الجهة.» سمعنا أوامر على الجسر، ثم صـــوت الشراع الليّن الذي تمّ وصله. استقامت السفينة من فقدان الـــريح وترجحت على التموج مستقبلة الأمواج، تارة من جهة، وتارة مـــن الجهة الأخرى. أين كان الانجليز؟ كانت إستير تشعر أنهم في كل الجهات دفعة واحدة، يرسمون دوائرهم في البحر بحثا عن غنيمتهم التي يكشفون عنها في الظلّ.

بقـــيت الـــسفينة ثابـــتة مدة طويلة تدور حول نفسها في الريح والأمـــواج تهـــزّها. لا صـــوت علـــى الجسر. ربّما ذهب البحارون الايطالـــيون؟ ربّما تخلّوا عن السفينة؟ استمرت إستير في الشدّ على يد أمهـــا. كان الصمت مطبقا. استيقظ الأطفال وبدأوا يبكون، وكانت الأمهات تحاولن كتم أنفاسهم على الصدور.

طالـــت الدقائـــق والثواني، كل نبض مفصول عن الآخر بانتظار مؤلم. بعد فترة طويلة سمعت مجددا خطوات على الجسر، وعلا صوت

الـــربّان: «ألـــزا لا فيلا؟». نفخت الريح الشراع مرّة أخرى، وسمعنا طقطقة الساريات والصفير في العتاد. شرعت السفينة تتقدم في مواجهة الأمواج، مائلة إلى الجنب.

بدا لإستير أن لا شيء أجمل. بدأ الناس يتحدثون في الظلام، بصوت خفـــيض في الـــبداية، ثم أعلـــى فأعلـــى، وكانوا يصخبون دفعة واحدة ويـــضحكون ويغنون، وانفتح المزراب من جديد. نـــزل سيلفيو بمخطاف وقـــال: "مررنا." صرخ الجميع وصفقوا. انطلقت المحركات من جديد بعد فتـــرة قـــصيرة. كان حديد الآلات يتراءى مثل موسيقى عذبة. نمنا عندئذ على الأرضية والرؤوس مستندة إلى الرزم التي تم تحضيرها للوصول. نامت إستير دون أن تتخلى عن يد إليزابيث وهي تستمع إلى الاهتزازات المنتظمة للمحركات في السقفية وعيناها مثبتان على وميض نور المخطاف.

صـــعدت إلى الجسر قبل شروق الشمس. كان البحارة لا يزالون نـــائمين، وإذ فتحت المزراب قطع الهواء نفسها، منذ مدة وهي سجينة في العنـــبر، بقـــيت برهة متزنة، دون أن تقوى على الحركة، ثم مشت بحـــذر إلى مقـــدم السفينة، واستقرت هناك مع الزاوي المنفتح أمامها. هناك رأت طلوع الفجر على البحر.

لم يكن هناك في البداية سوى الظلّ الأزرق، النجوم التي تتأرجح والضوء الباهت لدرب التبانة، صعد الضياء تدريجيا إلى الأفق، في الأمام مباشرة، بقعة تمحو النجوم. غدت السماء رمادية خلال لحظات، وظهر البحـــر بقممه المشعة والأفق الممدد على العالم مثل انقصاف، السفينة تـــتقدم بانتظام متجاوزة الأمواج بتمهل، دون اصطدام مع الريح التي تضغط على الأشرعة، والاهتزازات الرتيبة للمحركات.

لما وصل الضوء ركزت إستير نظرها على خط الأفق الضيق، دون أن تطـــرف، ودون أن تحـــيد. بدا لها وهي متكئة على الدرابزين أنها

تــوحدت بالجؤجــؤ، إنها هي التي تشق البحر، تنــزلق برغبتها كما عــصفور في طيران شراعي، كانت تسير مباشرة، راغبة في رؤية خطّ الشواطئ قبل الآخرين، رشيقة وخفيفة كسحابة، وحقيقية رغم ذلك. سبرت البحر إلى أن أصيبت بدوران.

بقــيت علــى نفس الحال عدة ساعات، ثم لامس سيلفيو كتفها "آنستي، عفوا" نظرت إليه دون أن تفهم. السماء الآن عالية في السماء، والبحــر حــارق. ساعدها سيلفيو على المشي إلى الكوثل: «القائد لا يحــب... خطر.» نطقها "ختر"، لكنّ إستير لا تستطيع أن تضحك. جمّدت الريح وجهها، وجمّده ألم النظر.

«تعالي، سنتناول القهوة». لكنّ إستير رفضت الدخول لّما وصلت إلى الثقب الأسود للميزاب، لم تعد ترغب في النــزول إلى العنبر لتشمّ رائحــة الخــوف والانتظار. لن تظهر أبدا شواطئ أرض إسرائيل على البحــر إن نــزلت. هزت رأسها فسالت الدموع على خديها. الريح وضــوء الشمس هما اللذان أسالا الدمع، لكنّها أحست فجأة بشهقات في الحلق.

تأملها سيلفيو منــزعجا، ثم وضع ذراعه حول كتفيها وأجلسها علــى الجــسر، في مخبأ سلّم الكوثل. عاد بعد فترة بقدح من الخزف "القهــوة". غمــست شفتيها في السائل الملتهب. كان شعرها ملتصقا بخــديها من الدموع، ولم يقدر فمها على التبسم. «شكرا». رغبت في الكــلام، في السؤال، غير أن الكلمات لم تعد تعبر حلقها. فهم الشاب نظــراتها ودلهــا على الأفق من جهة الجؤجؤ: "ميزودي"، ثم رجع مع البحارة الآخرين. سمعت إستير أصواتهم التي تسخر منه.

خرج المسافرون من العنبر تباعا. بلغت الشمس السمت. كانت تسطع على البحر، وإذ يصل النساء والأطفال إلى الجسر يغطون أعينهم

بأيـــديهم، كانوا كلهم شاحبين، متعبين ومذهولين، كأهم قضوا سنين في أسفل العنبر. كانت للرجال وجوه غزتها اللحى، وكانت ملابسهم مدعـــوكة. وضعوا على رؤوسهم قبعات أو قلنسوات لاتقاء الشمس والريح. كانت النسوة مدثرات بخمارالهن وقد ارتدت بعضهن معاطف بـــياقات مـــن الفرو. ارتدى الشيوخ قفاطينهم الثقيلة وتكدسوا على الجسر تباعا، خلف السفينة ينظرون نحو الأفق الشرقي صامتين، وكان الحاخـــام جويل بدوره هناك، ببدلته السوداء. أشغل البحارة المذياع في مركز نوتي الإشارة، الموسيقى تجيء وتبتعد، إنه الصوت نفسه، الغريب الأجـــش الـــذي سمعته إستير ذات يوم في مضيق مسينا، صوت بيلي هوليداي الذي كان يغني أغنية البلوز.

وصلت إليزابيث بدورها. كان جاك بيرجي يشدها من يدها. بدا وجههـــا شاحبا في مقابل ثيابها السوداء. رغبت إستير في الالتحاق بها، لكنّ حشد المسافرين منعها العبور. صعدت سلّم الكوثل لتبصر أفضل. بدأت الشمس تنـــزل إلى الجهة الأخرى من السفينة وتوقفت الريح.

وفجـــأة كـــان الشاطئ هنا، أمام السفينة، دون أن نفهم كيف حدث ذلك. لم ينبس أحد. كأننا خفنا أن نخطئ. كان كلّ واحد منا ينظـــر إلى الخـــط الـــرمادي الذي ظهر في البحر، شبيه ببخار، وفوقه استقرت غيوم كثيفة.

بـــدأت أصـــوات الرجال والنساء تردد الكلمة نفسها: «أرض إســـرائيل! أرض إســـرائيل!» توقف البحارة الإيطاليون بدورهم عن الحركة وراحوا ينظرون إلى خط الشاطئ.

جعلـــت الـــشمس الأمواج متلألئة، وبدت أشرعة السفينة أكثر بياضـــا. شـــاهدنا وقتها الطيور الأولى التي تحلق حول السفينة، كانت صـــيحاتها تـــصدي في صـــمت البحر، فوق أصوات الرجال وهدير

المحركات، فوق صوت بيلي هوليداي. سكت الجميع من أجل سماعها. تتذكــر الآن إســتير ذلك الطائر الأسود الذي كان يعبر الجبال في ما مــضى، الطائــر الذي دلّها عليه أبوها. سيصلون بدورهم قبل الليل، وسيحطون على السواحل البحرية.

جـــاء الحاخام جويل إلى سلّم الكوثل، مشط لحيته وشعره جيّدا، وكانت بدلته السوداء تسطع تحت الشمس مثل شبكة. وجهه يعبر عن الــتعب والقلق، وعن الطاقة كذلك، وكانت عيناه تلمعان مثلما كان علــيه الحال وهو يقرأ سفر التكوين في السجن بفرنسا. اخترق الجمع وهــو يحيــي الجمــيع، كأنه يلتقي بهم بعد غياب طويل. ورغم تعب وجهه، فإن طيفه الرشيق بدا طيف شاب.

توقــف أمــام السلم وفتح كتابه. استدار الآن كلهم نحوه، دون التمادي في النظر إلى خط الأرض الذي يمتد أمام جؤجؤ السفينة. جاء الــربّان فريلو كذلك، وأطفأ البحارة المذياع. ارتفع صوت جويل في سكون البحر. كان يقرأ ببطء بتلك اللغة الغريبة، العذبة تلك التي تكلم بهـــا آدم وحواء في الجنة، اللغة التي تكلم بها موسى في سيناء. لم تفهم إســتير، لكــنّ الكلمــات تلج أعماقها، كما فعلت من قبل، وتختلط بنفــسها. الكلمات تتلألأ في البحر الأزرق القاني، تضيء كل جزء من الــسفينة، حتى الأماكن القذرة، أو تلك التي آذتها الرحلة، وحتى البقع التي على الجسر وشقوق الشراع.

تــنير كــل الوجوه. كان الجميع ينصت، النساء اللائي يرتدين الأســود، الفتيات بخماراتهن المشجرة، الرجال، الأطفال، وكان جويل يتوقف بين كل كلمة وكلمة من كلمات الكتاب، وكنا نسمع صوت الجؤجؤ وهدير المحرك. كلمات الكتاب جميلة مثل البحر، تدفع السفينة إلى الأمام، نحو الخط الغائم لأرض إسرائيل.

كانـــت إستير جالسة على السلالم تستمع إلى الصوت وتنظر إلى الشاطئ الذي يكبر. إنها نفس الكلمات التي علّمها جويل في السجن، الكلمات التي تتحدث عن الخير والشر. عن الضوء والعدالة، عن ميلاد الإنـــسان في العالم. الأمر كذلك اليوم، إنها البداية، كان البحر جديدا. برزت الأرض فوق الأمواج في الحين. ضوء الشمس يسطع لأول مرّة. وفي السماء العصافير تحلق فوق السفينة لتدل على طريق الشاطئ الذي ولدت فيه.

ثم جرى كل شيء بسرعة، كما في حلم. رست **الإخوة السبعة** في عرض شاطئ كبير، قرب خط الجبال الزرقاء المعتّمة. جاءت زوارق إلى الـــسفينة وتمّ إنـــــزال الـــناس في فرق صغيرة، عندما وصل دور إليـــزابيث وإستير، رأت الفتاة الناس ينتظرون على الشاطئ، الحقائب، والنساء اللائي يحتضنّ صغارهن. خافت بغتة وعادت إلى مكانها بجانب ســـلّم الكـــوثل، كأنهـــا ترغب في العودة مع السفينة ومتابعة الرحلة. إليـــزابيث تنتظرها وجاك بيرجي يومئ لها بأن تأتي، لكنّها بقيت هناك ويـــداها متـــشبثتان بدرج السلّم، جاءت إليها إليزابيث في نهاية الأمر، قادتها نحو الدرابزين ونـــزلتا في السلم النسيجي إلى غاية الزورق.

بعـــد لحظـــة كانت إستير وإليزابيث في الشاطئ. الراعي واقف أمام الحقائـــب، وجهـــه الأشقر مشدود من القلق، مخطوف البصر من الضوء. ضـــحكت إســـتير رغما عنها، أحست بعدها مباشرة بالدموع في عينيها، كـــان وجههـــا يـــشتعل من الحمى، تركت نفسها تنـــزلق على الرمل وأسندت أعلى جسدها إلى حقيبة أمها. لم تعد تنظر إلى شيء، "انتهى كل شـــيء إستيرليتا، سيكون كل شيء على ما يرام.» كان صوت إليزابيث هادئـــا حاليا، أحست إستير بأصابع رشيقة تداعب شعرها الممزوج بالملح، لم يحدث أن نادتها أمها. «النجمة الصغيرة»، كانت تلك أول مرّة.

السفينة ترتجّ في العرض وحبال الإبحار تصعد في اهتزازات، وكان البحّارة الإيطاليون ينظرون إلى الشاطئ من الجسر. طفا الشراع مصطفقا في الريح، ثم انتفخ دفعة واحدة. ابتعدت **الإخوة السبعة**. لم يبق بعدها سوى البحر المذهل تحت الشمس الغاربة، والزوارق التي تُسحب على الشاطئ.

مشت إستير وإليزابيث ببطء على الشاطئ، مع جاك بيرجي الذي كان يحمل الحقائب. انتظر الناس قرب الكثبان ممددين على الرمل، وهناك من بسطوا أغطيتهم. سقط الدجى، وكانت الريح الدافئة مليئة بغبار الطلع. كانت تخدّر قليلا.

الضوء هو الذي كان جميلا، الضوء والحجارة، كأنها لم تعرف ذلك من قبل، كأنه لم يكن هناك سوى الظلّ، الضوء هو اسم المدينة التي سمعت عنها مذ كانت صغيرة جدا، الاسم الذي يذكره أبوها مساء لتنام معه. أصبح الاسم أمامها وأمام إليزابيث عندما تسيران في طريق الحجارة، عبر الغابة للذهاب إلى إيطاليا. انه الاسم الذي أحبت سماعه عندما كانت تنتظر كل مساء في فيستيونا، مختبئة في الأعشاب، هناك من حيث سيأتي أبوها، إنه الاسم الذي كان في شقة 26 من شارع جرافيليي، في الممرّ المظلم، في السلالم حيث يجري الماء، والسقف المثقوب مثل رباط، كان هو نفسه في السفينة الهاربة في المياه، هو الذي يلمع عندما تصعد إلى الجسر، هو الذي يبهر.

تركض إستير في شوارع المدينة الجديدة أين استقر المهاجرون. تذهب إلى أعلى الربوة وتضيع في غابات الصنوبر. ذهبت بعيدا كي لا تسمع أي شيء بشري، ما عدا صرير الريح في رؤوس أشجار الصنوبر والحفيف الخفيف لعصفور ما.

زرقة السماء مغرية، للصخور شعلة بيضاء. كان الضوء من القوة بحيث سالت الدموع من عينيها. جلست على الأرض ورأسها مسند إلى ركبتيها، وياقة معطفها مرفوعة إلى حد أذنيها.

هناك عثر عليها جاك بيرجي ذات صباح، ثم أصبح يرافقها يوميا، ربّما تعقب آثارها، أو أنه راقبها من بعيد عندما كانت تجري عبر

الشوارع إلى الجبل، ناداها باسمها، بصوت عال، واختبأت خلف دغل، وإذ مـــر نـــــزلت من جديد إلى حائط قديم. هناك أمسك بها. سارا وســـط الصنوبر وهو يشدها من يدها، لم تمانع لما قبلها، لوت رأسها لتجتنب نظرته.

تحدث جاك عن الأخطار المحدقة في كل مكان بسبب الحرب. قال إنـــه سيحارب أعداء إسرائيل، سيحارب العرب والانجليز، تحدث في أحد الأيام عن خبر وفاة غاندي، كان شاحبا ومضطربا. كأن ذلك وقع له. سمعت إستير هذا. كانت ترى الموت يلمع في السماء، في الحجارة، في الـــصنوبر وفي الـــسرو. المـــوت يلمع مثل الضوء، مثل الملح، تحت الخطى، في كل شبر من الأرض.

تقـــول إستير. «إننا نمشي على الأموات»، كانت تفكر في كل الـــذين ماتـــوا هـــناك منـــسيين، كل أولئك الذين طاردهم عساكر الفيرماخت في الجبال، في وادي ستورا، أولئك الذين احتجزوا في معقل بورجو سان دالمازو، أولئك الذين لم يعودوا أبدا. تفكر في المنحدر، في أعلـــى كوليـــتو، أين كانت ترقب طيف أبيها إلى أن يتشوش بصرها وتفقـــد الوعي. الحجارة البيضاء تلمع ها هنا، كانت مثل عظام أولئك الذين فقدوا.

كـــان جـــاك يقرأ كتاب التكوين الأسود، وإستير تسمع أسماء أولئك الذين ماتوا على هذه الأرض، أولئك الذين تحوّلت عظامهم إلى حجارة، طلبت منه: «اقرأ لي ما قرأه الحاخام جويل على جسر السفينة عـــندما وصلنا.» كان يقرأ ببطء، أصبح صوته العذب قويا، حادا، ما جعل إستير ترتعد.

«كلّـــم الـــرّب موسى وقال: أنا إله آبائك، وإله إبراهيم وإله إسحق وإله يعقوب. أنا الله الملك، لم أتجّل لهم روحا ووعدهم بأرض

كنعان، الأرض التي تاهوا فيها وعاشوا غرباء. سمعت صراخ بني إسرائيل، ورأيت أنهم يعانون اضطهاد المصريين، ووفيت بالقسم الذي أقسمت. قل لبني إسرائيل أنا هو الله، أريد إنقاذهم من المصريين وتخليصهم من العبودية. أمدّ يدي وأضرب مصر. أتّخذكم شعبي وأكون ملككم لتعرفوا أنّي أنا الله لأنّي أنقذتكم من أذى مصر، وسأقدم لكم هذا البلد الذي وعدت به إبراهيم وإسحق ويعقوب، وسيكون مِلْكا لكم.»

كانت الكلمات ترن في سكون الجبل، انحنى جاك على إستير وطوّقها بذراعه، "ما بك؟ بردت؟" هزت رأسها، لكنّها كانت منقبضة الحلق، "لماذا يجب أن تكون هناك حرب؟ ألا نستطيع العيش في وئام؟" رد عليها جاك: "يجب أن تكون آخر حرب، أن لا تكون حروب أخرى، ستتحقق آنذاك كلمات الكتاب ونبقى في الأرض التي منحها الله لنا.»

لكنّ الجبل في أعلى حيفا كان أبيض من العظام، لم يكن الضوء ناعما، كان يلهب العيون، عنيفا ومتوحشا، وكان الخوف في الريح، في السماء الزرقاء وفي البحر.

قالت إستير: "أنا متعبة، متعبة جدا، أرغب كثيرا في الراحة." تأملها جاك دون أن يفهم. كان الضوء أكثر نعومة عليه، على شعره، على لحيته الشقراء، وفي عينيه الشاحبتين. استطاعت أن تبتسم. نظرت إلى يده البيضاء الكبيرة بين يديها القذرتين الصغيرتين كيدي بوهيمية. بقيا ممددين على المنحدر المحصب يستنشقان رائحة الآس والصنوبر ويستمعان إلى موسيقى الريح الخفية.

عندما نزلت الشمس نحو البحر، أخذ جاك بيد إستير وسلرا عبر أشجار الزيتون، من رصيف إلى رصيف، إلى بيوت المدينة الجديدة.

كـــان الــــسهل أمامهما ببعض الأدخنة الخفيفة. كان الحمام يحلق فوق السقوف. وفي الميناء بواخر أخرى، تلك التي كسرت حصار الانجليز. دخلـــت إستير وجاك إلى شوارع المدينة يدا في يد. هكذا ارتبطا بوعد الزواج.

في الرابع عشر مايو صباحا بدأ الناس يصلون إلى ساحة يافا، أمام المسجد الكبير، وعلى طول الشاطئ. جاء بعضهم من المزارع المجاورة لساعات وجاء آخرون من أمثال إستير، إليزابيث وجاك بيرجي بحقائبهم ليبدأوا الرحلة. شكل الفتيان والفتيات حلقات صاخبة، واحتمت بعض النساء الفقيرات المرفقات بأبنائهن بأشجار الصنوبر. كانت الشمس قد بدأت تسطع بقوة. استقرت إليزابيث وإستير مثل الفقراء على الشاطئ، قرب المدينة الجديدة. كان الناس ينتظرون في صمت، دون أن يعرفوا الطالع. هذا اليوم هو اليوم الذي سيبدأ فيه كل شيء، هكذا يقولون، ستأخذ الشاحنات الناس إلى أورشليم.

وصلت الآن عائلات أخرى إلى الشاطئ، أغلبها عائلات قدمت من أوربا الوسطى بثياب سوداء. استقروا على الكثبان قرب الشارع وهم ينظرون إلى البحر دون قلق. وحدهم الأطفال والشباب لم يستقروا في مكان، كانوا يجرون على الشاطئ ويتساءلون. جلب آخرون آلات موسيقية، أكرديون، قيثارة، وهرمونيكا، وكنا نسمع من حين إلى آخر ضجيجا من الأغاني.

لم يفكر أحد في ما سيحدث هذا اليوم، كأن هناك انفصالا عن الزمان وطفوا فوق الأرض. كان ذلك اليوم كذلك، بلا بداية وبلا نهاية. كان الليل قد جنّ لما وصلت الشاحنات إلى مخيّم اللاجئين في حيفا. نامت إستير وإليزابيث بلباسهما، وحقيباتاهما جاهزتان قربهما. صعدتا سريعا إلى الشاحنة، في حين صعد جاك في شاحنة لا يوجد فيها

سوى الرجال، كانوا كلهم مسلحين استعدادا لصد أي هجوم في الطريق، كانت الشمس تسطع عندما دخلت الشاحنات إلى تل أبيب. لذا لم تكن لهذا اليوم أيّة بداية.

لما دخلت الشاحنات تقاطعت مع رتل يسير في الاتجاه المعاكس باتجاه حيفا. نزل كل الرجال إلى الطريق لمشاهدة الموكب. كانوا يصرخون ويصفقون. جاء جاك لملاقاة إستير وعيناه تلمعان وقال: «الانجليز هم الذين سيغادرون، إننا أحرار». المدرعات الانجليزية تسير ببطء في الطريق المغبر. في وسط الموكب سيارة المحافظ السامي كونيتغام. مروا قرب الرجال والنساء واختفوا في سحابة غبار، نحو طرّادة أوراليوس التي كانت بانتظارهم.

بدأ الناس الآن يأكلون على الشاطئ خبزا وزيتونا وفواكه، شوى الشباب خروفين على نار الأخشاب اليابسة ووزعوا قطع اللحم المشوي على الذين من حولهم. ناولت إستير نفسها، وكذلك إليزابيث. أما جاك فقد أخذ بدوره قطعة. كان الولد في الثانية آو الثالثة عشرة، وجه جميل ملفوح، شعر مجعد وعينان واسعتان ولامعتان كاليشب. سألته إستير بالفرنسية: "ما اسمك؟" لكنّه لم يفهم. وترجم جاك، "يوحنان، يقول إنه جاء من المجر، إنه ذاهب إلى أورشليم." ذهب ثانية لتوزيع قطع اللحم على العائلات التي تنتظر في الشاطئ.

عندما انتهوا من الأكل غسلوا أيديهم بالرمل وماء البحر. أخذ جاك بيرجي سفر التكوين وشرع يقرأ ببطء ويترجم أولا بأول، المقطع الذي يتحدث عن الضوء الذي كان معلقا في السماء إلى الصباح كنيزك، والسحابة التي تغطي بيت القربان وترشد أمة موسى في الصحراء.

كانت إستير تستمع إلى الكلمات العجيبة النائية التي ترن بغرابة على هذا الشاطئ، قدام البحر الشديد الزرقة، تحت السماء، مع

اللاجئين الذين ينتظرون أبعد فأبعد والأطفال الذين يلعبون في الرمل، وصوت الهرمونيكا الذي يجيء من مكان مجهول، ورائحة الدخان. فكرت إستير في الأضواء التي شاهدتها في سان مارتان عندما دخلت الكوخ أول مرّة، في الشموع المشتعلة، في الضوء الخافت وفي الشيخ إيزيك سالنتر الذي يرتدي خمارا صوفيا أبيض ويردد الكلمات بتلك اللغة العذبة الحلوة التي لا تفهمها.

ذهبت إستير وجاك إلى المتحف قبيل الرابعة، هناك في المدينة القديمة. سارا مع الحشد الشباب والأطفال. حول المتحف جنود مسلحون وميليشيات بسواعد الدروع. كان النهج الكبير مكتظا بالناس، وكل شيء ساكنا. كان الذين يفدون يتوقفون وينتظرون دون صخب، ودون كلام. نزل من إحدى السيارات رجال ونساء ودخلوا إلى المتحف. رأت إستير من فوق الرؤوس، بعد أن وقفت على أصابع الرجلين، رجلا صغيرا يرتدي الأسود، بوجه راع مسن وشعر كثيف أبيض، شرع بعد ذلك مكبر صوت مثبت في حديقة البيت القديم في بث صوت أجشّ أبحّ. توقف كل واحد عن التنفس لسماع ما يقوله، وحتى الذين لا يفهمون العبرية.

كان جاك يترجم الكلمات منحنيا على إستير: «إسرائيل هي المكان الذي ولد فيها الشعب اليهودي، هنا ولدت عقيدته واستقلاليته وحضارته... هنا كتب الكتاب، له وللكون ليولد...» توقف عن الترجمة لأنه لم يعد قادرا على الكلام، كان هناك سكون عندما توقف الصوت بغتة، ثم شرع صوت يصدي، من بعيد في البداية، ثم أقرب فأقرب، متقدما في الشارع، ثم في الشوارع المجاورة وفي البعاد بحيث يسمعه العالم بأسره.

لم تغنّ إستير لأنها لم تحفظ الكلمات في يوم ما، لكنّ حلقها كان مشدودا وعيناها مليئتين بالدموع. ثم كان سكون، وجاء مكبر الصوت

بالصوت الخفيف البطيء للحاخام الشيخ ميمون الذي منح بركته. انحنى جاك على إستير وقال: «إسرائيل موجودة، لقد أعلنت إسرائيل»، صعدت الراية فوق المتحف على السارية، مع النجمة الزرقاء التي ترفرف في السماء.

كان الفتيان يجرون في الشوارع ويغنون، تلتف الأيادي وتتشكل المواكب الراقصة وتتلوى. أخذت إستير تجري بدورها عبر الشوارع المجهولة إلى حدّ فقدان التنفس ويدها بيد فتاة ترتدي تبانا بحريا محزّزا. بعد الأتعاب جاء الدوران والجنون، حتى جاك كان يجري عبر الشوارع الباهرة ليلتحق بإستير ويبتعد من جديد.

جلسوا في مقهى الشاطئ ليرتاحوا ويشربوا القهوة والجعّة، اسم الفتاة التي بتبان محزّز مريم، واسم الأخرى أليكسيا، ذكر الأطفال أسماءهم كذلك، صمويل، إيفان، داوود، كانوا لا يتكلمون سوى اليدية، الألمانية، وقليلا من الانجليزية. شربوا ودخنوا وضحكوا محاولين الحديث خبط عشواء. لم يعد لأي شيء قيمة، ضم جاك إستير إليه ملاطفا شعرها، كان ثملا قليلا.

استمروا في تيههم عبر الشوارع، ورغم تحضيرات السبت، استمر الفتيان في الرقص والموسيقى، وبمجيء الليل عادوا نحو الشاطئ، هناك حيث نمت أشجار الصنوبر في التراب الصلصالي، وسط التقدم الصخري في البحر. جمع الفتيان الحطب ورؤوس أشجار الصنوبر وأوقدوا النار بين الحجارة لرؤية الضوء يشعّ، مكثوا متحلقين حول النار دون أن يتكلموا كثيرا، كانوا يستمعون إلى طقطقة الشعلة التي كانت تقذف زغفا من حين إلى آخر. لم يحدث لهم أبدا أن رأوا نورا في الليل بذلك الجمال، مع الريح التي تهب من جهة البحر، وإذ انطفأت النار تمددوا بين الأشجار، على أغصان الصنوبر. كانت إستير تحس

بالأرض تدور ببطء من تحتها، مثل طوف جرفه التيار. أحست لصقها بجسد جاك وسمعت نفسه، كانت تسمع أيضا أصوات الأزواج وأجسادهم التي تدعك أغصان الصنوبر وتكسر الأفنان الصغيرة، كانت شفتا الراعي تبحثان عن شفتيها. أحست بجسده يرتعد. نهضت وقالت: «تعال، يجب أن نعود بالقرب من أمي»، سارا لحظة دون أن ينبسا، ثم شدت إستير على يد جاك وذهبا جريا حتى طرف الشاطئ وهما يتعثران في الرمل. وجدا إليزابيث تتدثر في غطائها القديم وظهرها مستند إلى الحقيبتين، عندما وصلا لم تقل سوى: "يجب أن ننام"، وتمددت على الرمل.

بعد يومين كانت إستير وإليزابيث على سطح مؤخرة الشاحنة التي تبحـــر نحو أورشليم. كان الموكب المكوّن من ست شاحنات وسيارة جيب أمريكية يتقدم ببطء في الطريق المحفور، عبر الروابـــي الجرداء في شـــرق رملة. كان في شاحنات المقدمة رجال مسلحون، وكان جاك بيرجـــي معهـــم. كانت الشاحنات الأربع التي في المؤخرة تنقل النساء والأطفال.

لم تبـــصر إســـتير، عـــندما أزاحت الغطاء، سوى الغبار وأضواء الـــشاحنة اللاحقـــة. كـــان الغـــبار يقل في فترات فتبصر الروابـــي، المنحدرات وبعض المنازل. الريح باردة والسماء ذات زرقة ثابتة، مع أن الحرب كانت هنا، في كل جهة من حولهم. تقول الأخبار بأن مزارعين يهودا اغتيلوا في مستعمرة عطاروت، في تل أبيب، وقبل الانطلاق، قرأ جـــاك على إستير تصريح اللواء شيلتيال المثبت على الحيطان: «العدوّ يلفـــت نظره نحو أورشليم، المقر الدائم لشعبنا الخالد، ستكون معركة وحـــشية، ضارية، بلا تراجع، سنقاوم إلى آخر رجل من أجل بقائنا، ومـــن أجل عاصمتنا». قنبل الجيش العربـــي الذي يقوده جون باجو جالـــوب وعبد الله، الطريق بين تل أبيب وحيفا. عبر المصريون الحدود وتقدموا للحاق بالجند على الضفة الجنوبية للبحر الميت.

مـــع ذلك، لم يخف أي أحد في الشاحنات. مازالت هناك نشوة الإعلان عن إسرائيل، الطواف عبر الشوارع المشمسة، الأغاني والأمسية اللطيفة على الشاطئ وسط الصنوبر.

يقـــول الناس، الآن وقد ذهب الانجليز سيكون كل شيء على ما يرام، ويقول الآخرون إن الحرب في بدايتها، ستكون هناك حرب عالمية ثالـــثة، لكـــنّ إليزابيث لا تريد سماع هذا. أحست بدورها بالنشوة، وبالفـــرح، مادام هدف الرحلة وشيكا. كانت عيناها تلمعان، وكانت تـــتحدث وتـــضحك، كما لم تفعل ذلك منذ زمان نظرت إستير إلى وجهها المستقيم المؤطر بالوشاح الأسود، وجدتها شابة وجميلة جدا.

خلال كل هذه الساعات التي انتظر فيها الناس الانطلاق، كانت هـــي الـــتي تتكلم عن أورشليم، عن المعابد والمساجد والقبب اللامعة والحدائق والينابيع. تحدثت عنها كما لو أنها رأتها من قبل، وربّما رأتها في الحلـــم. كانت المدينة أجمل بقعة في العالم، هناك يتّم الحصول على كـــل مـــا نرغب فيه، حيث لا يمكن أن تقوم الحرب، لأن كل الذين طـــردوا وسلبوا في العالم، وهاموا بلا بلد، سيستطيعون أن يعيشوا في سلام.

دخلـــت قافلـــة الشاحنات إلى غابة من الصنوبر والأرز تتخللها ســـيول صـــافية. توقـــف المـــوكب في قرية اللطرون ونـــزل الجنود واللاجـــئون للاستراحة. هناك ينبوع وحوض غسيل، وكان الماء يسيل بصوت هادئ. غسلت النسوة وجوههن وزنودهن بسبب الغبار، وكان الأطفال يرشون نفوسهم ويضحكون. شربت إستير مطولا ماء باردا، وبـــتلذذ. كـــان هـــناك نحل في السماء، وكانت شوارع القرية خالية وساكنة، وكنا نسمع أحيانا زمجرة العاصفة، بعيدا في الجبال.

كـــان الـــرجال واقفين في مداخل الشوارع حاملين بنادقهم لما كانت النساء والأطفال يشربون. وكان السكون متوعدا. تتذكر إستير يـــوم وصلت إليزابيث إلى الساحة في سان مارتان عندما اجتمع الناس للسفر، الشيوخ في معاطفهم السوداء والنساء بوجوههن الملفوفة بوشاح

والأطفال الذين يركضون ولا يعرفون لماذا. إنه السكون نفسه، ما عدا الهزيز الذي كالعاصفة.

انطلق الموكب من جديد، وبعيدا كان الطريق يتخلل المعابر المزدحمة بالصخور، هناك حيث استقر الآن الظلام. خففت الشاحنات السرعة، أزاحت إستير الغطاء ورأت صفّا من اللاجئين. انحنت امرأة بجانبها، "عرب" لم تقل سوى هذا. كان اللاجئون يمشون على حافة الطريق بمحاذاة الشاحنات، كانوا قرابة مئة، وربّما أكثر، فقط نساء وأطفال يرتدون أسمالا، حفاة، ورؤوسهم ملفوفة في خرق. أشاحت النسوة عن وجوههن وهن يعبرن سحابة الغبار، كانت بعضهن منهن من يحملن أثقالا على رؤوسهن، وأخريات بحقائب وعلب كرتون محزومة: وكان لعجوز مدفاع مخلّع مشحون بأغراض خليطة.

توقفت الشاحنات ومرّ اللاجئون ببطء، بوجوههم الحائدة ونظرتهم التائهة. كان ثمة صمت ثقيل، صمت جنائزي على تلك الوجوه الشبيهة بأقنعة من الغبار والصلوات، وحدهم الأطفال كانوا ينظرون والخوف يسكن عيونهم.

نزلت إستير واقتربت، كانت تريد أن تفهم، استدارت النساء، وزجرها بعضهن بكلمات قاسية بلغتهن، انفصلت فجأة فتاة صغيرة عن الفرقة وتقدمت باتجاه إستير، وجهها شاحب ومتعب وفستانها مليء بالغبار، وعلى رأسها وشاح كبير.

لاحظت إستير أن سير نعلها مقطع. اقتربت منها الفتاة إلى أن لامستها، كانت عيناها تشعّان ببريق غريب، لكنّها لم تتكلم ولم تطلب شيئا. بقيت جامدة فترة طويلة ويدها على ذراع إستير، كأنها تريد أن تقول شيئا ما، ثم أخرجت من جيب سترتها كراسا جديدا وغلافا أسود من الورق المقوّى، وكتبت اسمها في الصفحة الأولى، في الأعلى، من

الجهة اليمنى، وبحروف البداية: ن ج م ة. مدّت كراسها وقلم الرصاص لإستير لتدوّن اسمها، بقيت برهة أخرى مسندة الكراس إلى صدرها، كأنه أهم شيء في الدنيا. رجعت أخيرا نحو فريق اللاجئين الذين كانوا يبتعدون، خطت إستير خطوة باتجاهها لمناداتها، لكنّ الوقت فات، صعدت إلى الشاحنة وبدأ الموكب في السير وسط سحابة من الغبار.

بيد أن إستير لم تستطع أن تمحو من ذاكرتها وجه نجمة، نظرتها، يدها الموضوعة على زندها، بطء حركاتها الرزينة وهي تمدّ الكراس الذي دوّنت فيه اسمها. لن تستطيع نسيان وجوه النساء، نظراتهن الحائدة، الخوف في عيون الأطفال، ولا ذلك السكون الذي خيّم على الأرض في ظلّ الوديان، بالقرب من الجدول، طرحت السؤال على إليزابيث، «إلى أين يذهبون؟» نظرت إليها المرأة التي أزاحت الغطاء دون تعليق. كررت إستير «إلى أين يذهبون؟». هزت كتفيها، ربّما لم تفهمها. ردّت امرأة أخرى ترتدي الأسود، وكان وجهها شاحبا جدا: «إلى العراق» قالت ذلك بقسوة، ولم تجرؤ إستير على طلب شيء آخر. الحرب خرّبت الطريق. الغبار يصنع هالة صفراء تحت غطاء الشاحنة وإليزابيث تشدّ على يد إستير كعهدها في الطريق إلى فيستيونا. قالت المرأة كذلك وهي تنظر إلى إستير كأنها تحاول سبر أفكارها: «لا يوجد أبرياء، إنهن أمهات وزوجات أولئك الذين يقتلوننا.» قالت إستير في سرها: «والأطفال؟» كانت العيون التي وسّعها الخوف في بالها، وكانت تعرف أن لاشيء يمحو نظراتهم.

وصل الموكب مساء إلى أورشليم، توقفت الشاحنات في ساحة كبيرة، لم يكن هناك جنود أو مسلحون، ماعدا النساء والأطفال الذين ينتظرون شاحنات أخرى. غابت الشمس، لكنّ المدينة بقيت تلمع. نزلت إستير وإليزابيث بحقيبتيهما. لم تعرفا إلى أين ستذهبان، كان

جــــاك بيرجي قد ذهب إلى وسط المدينة. كان هزيم الرعد قريبا، وكل انفجــــار يزعـــزع الأرض، وكـــنا نرى ومضات الحرائق. أمام إستير وإليزابيث جدار المدينة، الروابـــي المغطاة بالمنازل ذات النوافذ الضيقة، وربّما الأطياف الخرافية للمساجد والمعابد. صعد من قلب السماء التي بلون الرصاص دخان أسود، اتسع مشكّلا سحابة متوعدة حيث يبتدئ الليل.

نجـمـة

مخيّم نور شمس، صيف 1984

هـــذه ذاكرة الأيام التي عشناها في مخيّم عين شمس، كما عزمت علـــى كتابتها، أنا نجمة، ذكرى لسعدي أبو طالب، البدوي، وعمّتنا حورية، ذكرى أيضا لأمي فاطمة التي لم أعرفها، ولأبـــي أحمد.

ألا تـــشرق الـــشمس على الجميع؟ أسمع هذا السؤال كل لحظة. مات الآن من صاغه منذ أكثر من سنة. دفن في قمة الرابية التي تشرف علـــى المخـــيّم. ابـــناه هما اللذان حفرا الأرض بضربات المعزقة وألقيا بالحجـــارة في شكل كومين متساويين من كل جهة، ثم أنـــزلاه مكفنا في غطـــاء سرير قديم خاطاه بنفسيهما، لكنّه كان قصيرا. وكان جسد الشيخ المتصلب غريبا في هذا الغطاء الذي خرجت منه قدماه الحافيتان وهو ينـــزل إلى القبر. أهال ابناه التراب بالمعزقة، وقد ساعدهما الصغار بأقـــدامهم، ثم وضعا فوقه الحجارة الكبيرة حتى لا تنبش القبر الكلاب الضالة.

أمّـــا أنا فأفكر في الحكايات التي كانت تقصها علينا عمتي في الأيام المطـــرة، الأغوال والذئاب الجائعة التي تأكل الأموات. كانت عمّة حورية تحـــبّ روايـــة الحكايات المرعبة عندما تتلبد السماء، حكايات الشياطين والأشـــباح. كـــنت أفكـــر في هذا لمّا توفي العجوز ناس، في صوت عمّة حورية وهي تقص مع نـــزول المطر، قبل أن أشعر بالحزن لموته.

لمّا جاء العساكر إلى بيته لأخذه إلى المخيّم، قال لهم الشيخ ذلك، ولم يتوقف من وقتها عن معاودة السؤال. لابدّ أن العساكر لم يفهموه،

وربّما أضحكهم ذلك لو أنهم فهموه: «ألا تشرق الشمس على الجميع؟».

أخذ مخيّمنا أكثر من نصيبه من الشمس في هذه الصائفة عندما تشققت الأرض وجفت الآبار الواحدة تلو الأخرى. مات الشيخ ناس في نهاية الصيف، عندما بدأت الحصص تشحّ. كان الناس ينتظرون وقتها ساعات على رابية الحجارة، في أعلى المخيّم، وصول شاحنة الأمم المتحدة، لأنّها الجهة التي نرى منها طولكرم بشكل أفضل.

نعرف مسبقا وقت وصول الشاحنة لأننا نرى في أعلى الرابية سحابة من الغبار في جهة الغرب، بناحية زيتا. يبدأ الأطفال وقتذاك في الهتاف والغناء. يهتفون ويغنون الكلمات نفسها دون توقف، «الدقيق!... الدقيق!... الحليب!... الدقيق!...» وبعد ذلك ينزلون الربوة راكضين إلى مدخل المخيّم ويدقون بعصيّ على دلاء البنزين الفارغة، أو على علب المصبّرات القديمة، يحدثون صخبا كبيرا بحيث يلعنهم الشيوخ وتبدأ الكلاب الضالة في النباح.

بمقدور الشيخ ناس سماعهم الآن من أعلى ربوته، إنّه أول من يعلم بقدوم الشاحنات التي تأتي بالدقيق والزيت والحليب واللحم المجفف. ربّما بقي على قيد الحياة لو أنّه صعد مع الأطفال إلى أعلى ربوة الحجارة. أما في الأسفل فالصخب يأتي من كل الجهات، صخب الناس الذين يئسوا، ذاك ما سمعه، وذاك ما أكل قلبه، ولذلك لم يعد يرغب في الحياة. مات تدريجيا، مثل نبتة تجفّ.

جاء ضجيج الكلمات، في بداية الأمر، من جنين، ثم انتشر في كل المخيّمات، في الفارعة، في بلاطة وفي عسكر: الأمم المتحدة تتخلى عنّا، لن يمنحونا مؤونة، ولا أدوية، وسنموت كلنا. سيموت الشيوخ أوّلا لأنهم الأكثر هشاشة، النساء المسنات والرّضع الذين فطموا لتوّهم،

الواضعات والمصابون بالحمى، ثم يموت الشباب، الأقوياء منهم والأكثر شـــجاعة. سيغدون مثل شجيرات جففتها ريح الصحراء، وسيموتون. هكذا قرر الأجانب أن نختفي من سطح الأرض إلى الأبد.

حـــسان وســـعيد، ابنا ناس، قويان ورجوليان، لهما قامة سامقة وأرجـــل عاضـــلة ووجهـــان لفحتهما أشغال الحقول، ولهما نظرات مـــشتعلة. لكنّ الإشاعة ولجت أعماقهما مع صخب الأصوات عندما دفن والدهما في الغطاء بأعلى ربوة الحجارة، ما عادا ينتظران الآن قدوم شاحنات الأجانب، ربّما يكرهانها. ربّما خجلا من وصولهما إلى ما هما عليه، شحاذين يستجديان القوت على أبواب المدن.

بـــدأ مخـــيّم نور الشمس يغرق تدريجيا في الهمّ. لم نكن نعرف، عندما وصلنا في الشاحنة المغطاة للأمم المتحدة، أنّ هذه الرقعة ستكون حياتـــنا الجديدة. كنا نعتقد أننا سنمكث يوما أو يومين قبل الانطلاق مجددا. بمجرد توقف القصف والمعارك سيمنح الأجانب لكل منّا قطعة أرض، حديقـــة نـــزرعها وبيتا يمكننا العيش فيه كما كنا. كان لابني العجـــوز ناس مزرعة في طولكرم. تركا كل شيء، الدواب، الأدوات، وحتى احتياطات الحبوب والزيت، وتركت زوجاتهما الأدوات المنـــزلية وبيضاتهن.

كانا يعتقدان بدورهما أنّهما سيذهبان ليوم أو يومين ريثما تستوي الأوضاع. أوصى ولدا ناس جارهما الراعي، الذي لا ينتمي إلى الموكب الـــذي تمّ تهجيره، بحراسة البيت أثناء غيابهما، بصد الآخرين عن سرقة الدجاج وبسقي الماعز والبقر، ولتعويضه منحاه أكبر عنـــزة في القطيع، تلك العاقر التي جفّ ضرعها.

عـــندما صـــعدا إلى الـــشاحنة نظر إليهما الراعي البدوي وهما يـــرحلان، كانت عيناه ضيقتين كصدعين في وجهه، وعنـــزته المسنة

المغـــبرة مربوطة بحبل تحاول رعي جريدة في الطريق. كانت تلك آخر صورة حملاها عن بيتهما المولدي، ثم أخفت الشاحنة السائرة كل شيء في سحابة من الغبار.

أنظر إلى المخيّم من أعلى ربوة الحجارة وأنا جالسة على صخرة، غير بعيد عن المكان الذي دفن فيه الشيخ ناس. هل كان يفكر في هذه الـــربوة عندما كان يقول: ألا تشرق الشمس على الجميع؟ لا يتوقف الـــضوء هـــنا عن إشعال امتدادات الصحراء. ضوء الشمس من القوة بحـــيث تـــبدو الروابـــي الأخرى، من جهة يعبد وجنين، تتقدم مثل أمواج.

هناك في أعلاي ممرات المخيّم المستقيمة، أصبح مع الأيام سجننا، وقـــد يغـــدو مقبرتنا، من يدري؟ يبدو مخيّم نور شمس، الذي يحدّه من الـــشرق مجرى الوادي الجاف، رقعة معتمة بلون الصدأ والوحل ينتهي إليها طريق الغبار. هنا، في أعلى الربوة، وفي صمت الظهيرة، أحبّ أن أتخـــيل ســـقوف عكا، كل أنواع السقوف المسطحة، القبب، الأبراج العالـــية والأســـوار القديمة في أعلى البحر حيث نرى النوارس تحلق في الـــريح، وأشـــرعة سفن الصيد الرشيقة. أفهم الآن أن لاشيء من هذا سيكون لنا.

عكّـــا، ذات يوم، عندما كان الجنود العرب بأسمال، الرأس مدمى والأرجـــل ملفوفة في خرق، بدلا من الضمادات، مجردين من السلاح وقـــد حفـــر الجـــوع والظمأ وجوههم، كان بعضهم أطفالا، لكنّهم أصـــبحوا رجـــالا جـــرّاء الـــتعب والحرب، وحشد النساء والأطفال والكـــسيحين الـــذي يتمطى إلى الأفق. لم يجرؤوا على عبور الأبواب عندما أدركوا أسوار عكا، لكنّهم تمددوا على الأرض في حقول الزيتون بانتظار أن يمنحوهم الماء والخبز وقليلا من اللبن الحامض.

كـــان الوقت ربيعا، وكانوا يروون ما جرى في حيفا، يتحدثون عن المعارك في الشوارع الضيقة، عبر السوق المغطاة للمدينة القديمة، عن كـــل الأجساد الممددة على وجوهها أرضا. مشى الناس حينها باتجاه عكّا طيلة النهار بمحاذاة البحر، على الشاطئ الرملي الفسيح، إلى أسوار مدينتنا وقد لفحتهم الشمس والريح.

أتذكر بأنّي همت في ذلك المساء مرتدية فستانا طويلا، ملفوفة في خمارات، محنية وفي يدي عصا للإيهام بأنّي عجوز تبحث عن قليل من القـــوت، لأنّهم كانوا يقولون في المدينة إنّ قطاع الطرق يختفون ما ين الفارين ويغتصبون الفتيات.

رأيـــت كلّ أولئك الناس الممددين على الأرض، مابين الجوانب وأشجار الزيتون، الشبيهين بآلاف الشحاذين. كانوا منهوكين، لكنّهم لا يـــنامون وقد اتسعت عيونهم بسبب الحمّى والظمأ. استطاع بعضهم إشـــعال نـــيران تلمـــع على فترات في الضوء الخافت للغسق وتضيء وجوههم المهزومة. شيوخ ونساء وأطفال.

على مرمى البصر، على الرمل والكثبان كان هؤلاء الناس، كأنما ألقـــوا بهـــم على الأرض. لم يكونوا متذمرين، ولم يكونوا يتكلمون. وكان ذلك السكون أكثر رعبا من الصراخ والأنين. كان هناك أحيانا تباكـــي طفل، لا غير، يتهمّع ويسكت، وصوت البحر على الشاطئ، انتشار الأمواج العاتية التي تلامس القوارب الجانحة.

مـــشيت فتـــرة وسط هذه الأجساد، وإذ أشفقت عليها كثيرا، نسيت التظاهر بهيئتي التي تشبه عجوزا متسولة. فقدت الشجاعة بغتة وعـــدت إلى المديـــنة، أراد رجـــل مسلح أن يعترض سبيلي وسألني بقـــسوة: «إلى أيـــن أنـــت ذاهـــبة؟» ذكرت اسمي وبيت أبـــي، أضـــاء وجهي بمصباح يدوي وسخر منّي. قال لي ماذا تفعل خارجا

فتاة في سنك. ذهبت دون الرد عليه. استحيت بسبب كلّ ما شاهدته.

سمعت بعد ذلك فرقعة الأسلحة حول المدينة، طلقات المدفعية التي تلهب الأرض لمّا أعلن الدروز الحرب على الهاغانا قبل الصيف، ليلا نهارا. ذهب حينها الرجال المؤهلون إلى الحرب، وذهب أبي معهم نحو الشمال. فوّضني على البيت، باركني وذهب. اعتقد هو الآخر أنّه سيرجع قريبا، و لم يعد أبدا. علمت أنّه قتل أثناء قصف النهارية.

ثم جاءت الشاحنات المغطاة لتأخذ المدنيين إلى مأمن هناك، وجاء الجنود واستقروا ببيتنا، وركبت أنا في الشاحنة. القوافل المغطاة تسير أمام أبواب عكّا تحت نظرات أولئك الذين لم يرحلوا. كانت الشاحنات تسير في كل الاتجاهات، نحو القنطرة، نحو النبطية، أو نحو جنوب غزة، أو باتجاه طولكرم وجنين ورام الله. قيل إنّ هناك من يذهبون إلى مدينة سات وإلى عمان، في الجهة الأخرى من نهر الأردن.

لم نكن نعرف أنا وعمّة حورية إلى أين سنذهب، لم نكن نعرف أنّنا سنلتحق بالأجساد المطروحة التي شاهدتها على الأرض، وتحت الحواجز ذات مساء.

لابدّ أنّ مخيّم نور شمس هو نهاية الأرض، لأنّي أرى أنّه لا يمكن أن يوجد شيء بعد، وأنّه لا يمكن أن نأمل في شيء مطلقا. لقد تراكمت الأيام. أصبحت أشبهها، الغبار الدقيق الذي لا يأتي من جهة معينة، خفيّ وغير محسوس، لكنّه يغطي كلّ شيء، الملابس، سقوف الخيام، الشعر، البشرة، غبار أحس بعبئه، يختلط بالماء الذي أشربه، غبار أحس بمذاقه في الطعام، وعلى لساني عندما أستيقظ بعد منتصف الليل.

هناك ثلاث آبار في عين شمس، ثلاثة ثقوب حفرت في مجرى الوادي، محاطة بدوائر من الحجارة المسطحة ومغطاة بألواح خشبية

قديمة. أحمل الدلوين فجرا، عندما تكون الشمس مختبئة خلف الروابـــي والـــسماء شاســـعة وصافية، لأبحث عن الماء. ماء الليل لازال باردا، صـــافيا، المـــاء الذي لم يعكره أحد. لقد تشكل الطابور المديد للنساء والأطفال المتوجهين نحو الآبار.

لّمـــا وصـــلنا في البداية إلى المخيّم، كان هناك صخب الأصوات والـــضحكات، كما في أية جهة أخرى من العالم، في بقعة لا حروب فـــيها ولا ســـجون. تحصل النساء على الأخبار من هذه وتلك، يذعن الأقاويل ويخترعن حكايات، كأن شيئا لم يكن، كما لو أهن في رحلة، وكما لو أهن سيرجعن قريبا إلى بيوهن.

كنّ يسألن: «من أين أنت؟» فتذكر الأصوات الجهورية أسماء الجهات الـــتي ولـــدن فيها وحيث تزوجن وولد أبناؤهن: قلقيلية، يافا، قاقون، شفا عمرو، وأسماء الناس اللائي عرفنهم، الطرق القديمة في عكا، القدس، نابلس، حمزة الذي يعيش قريبا من مغارة الأولياء، مليكة، أم الاسكافي التي كانت لها دعامـــة بمحاذاة كنيس الحاخام يوخنان، وعائشة التي كانت لها ثلاث بنات، وكانـــت تعيش قرب كنيسة المسيحيين الكبيرة، قريبا من القلعة التي نصّب فـــيها مدافعـــه كلـــوب الباشـــا. أسمع هذه الأسماء، مخلد، جيبا، قيسارية، الطـــنطورة الياجور، الجعارة، نظيرة، جيت، اللد، رام الله، كفرسابا، راس العين، عسقلان، غزة، طبرية، رمانة، عرعره، كل هذه الأسماء التي ترنّ بغرابة في الهواء البارد حول الآبار، كأهنا غدت في عالم آخر.

كانـــت عمّة من التعب بحيث لم تأت لسماع هذه الأسماء قرب الآبـــار. لما كنت أعود وقتذاك بدلوي الماء أضعهما أمام باب كوخنا وأقـــص عليها كلّ ما سمعته، بما في ذلك الأسماء التي لا أعرفها. كانت تـــستمع إلى كل ذلك وتهزّ رأسها، كأنّ لذلك دلالة عميقة لا أستطيع فهمها. كانت لي ذاكرة استثنائية.

كــان ذلــك في البداية لأنّ صخب الأصوات تناقص فيما بعد تدريجيا، مع تناقص ماء الآبار التي غدت وحلة. يجب أن نترك الآن الماء يتصفى في الدلاء ساعة أو ساعتين قبل صبّه في الجرار بإمالة الدلو بحذر حتى يبقى الحمأ في القاع. كانت الشمس وقتها تشرق على أرض أكثر وعــورة واحمرارا وتفحما، مع أدغال الشوك القاحلة وأشجار السنط الــتي لا تقدر على توفير الظلّ، الوادي الجاف، منازل الألواح الخشبية والورق المقوّى، الخيّام الممزقة، الملاجئ المصنوعة من قصدير السيارات، دلاء البنــــزين وقطع الأطر المطاطية المربوطة بالسلك التي تقوم مقام السقوف.

كانوا كلهم ينظرون، كلهم يتطلعون صباحا إلى شروق الشمس على الروابــي بعد الصلاة، ماعدا العجوز ليلى التي كانت تحمل قدرها في عينــيها لأنّها كانت عمياء، وكانت عيناها البيضاوان لا تستطيعان رؤيــة الشمس. تظلّ جالسة على صخرة كبيرة أمام المغارة وهي تتمتم صــلوات وشتائم منتظرة أن يأتيها أحد بماء وطعام، وكان كل واحد يعــرف أنهــا ستموتِ يوم تنسى. قتل كل أبنائها أثناء احتلال حيفا، وبقيت وحدها في الدنيا.

كــفّ الأطفال عن الجري والصراخ والعراك في ضواحي المخيّم. إنهــم يمكــثون الــيوم جالسين حول الأكواخ في ظلّ الغبار، سغبين وشــبيهين بالكلاب، يتنقلون مع حركة الشمس. ماعدا عندما يقترب وقت توزيع الغداء وقد بلغت الشمس السمت.

كــنت أراهــم آنــذاك، وكــان ذلك مرآة لضعفي وتدهوري الشخصي. جعّدت شيخوخة غامضة ملامح الطفولة لدى كثير منهم، لاســيما الفقــراء ويتامى الأب والأم، أو أولئك الذين فرّوا من قرى الشاطئ تحت قصف القنابل، بلا أموال وبلا مؤونة. الفتيات الصغيرات

النحـــيلات ذوات الأكـــتاف المحدّبـــة والأجساد السابحة في فساتينهن الواســـعة بالنـــسبة إليهن، الأطفال الصغار نصف العراة ذوو الأرجل المقوّسة والرّكب المتورّمة والبشرة الشهباء القاتمة ذات اللون الرمادي، وفروة الرأس التي أكلها القرع، والعيون التي غزاها الذباب الصغير.

الوجوه بخاصة هي التي كنت أنظر إليها، أثبّت بصري عليها لأنّني لم أكـــن أحبّ رؤيتها: التعابير التي لم أستطع فهمها، نظراتهم التائهة، البعـــيدة، الغريبة حيث يشعّ ضوء الحمّى. وإذ كنت أمشي في شوارع نور شمس بلا هدف، بلا تبصر، وأنا أجانب المنازل والحيطان المصنوعة مـــن الـــورق المقوّى المزفت ومن الألواح الخشبية القديمة، أرى وجوه أولئك الأطفال في كل مكان، تلك النظرات التائهة البعيدة التي كانت تتـــسلّط عليّ. أرى وجهي كما في المرآة، ليس وجه فتاة في السادسة عـــشرة بجمـــال غامض تستفهمه عيون الشباب بفارغ صبر، بل وجه امرأة عجوز مجعّد، ذابل، سوّده الهمّ وجففه الموت الوشيك.

ذلك الوجه هو الذي أراه حيث يمت في المخيّم، وجهي ويداي النحيلـــتين حيث تنبثق الأوردة، وطيف جسدي الهش، المائل كالظلّ. الآخرون يغضون البصر، بل العكس، ينعمون النظر دون أن يطرفوا في ظلّ خيامهم، كما من قاع كهف، دون تعليق، ولكن بنوع من الجنون الأخرس.

تـــوقفت النساء عن الحديث حتى في الآبار. لا يشتكين، لم يعدن يتلفظن بأسماء المدن والناس الذين اختفوا، ومع الجفاف انخفض الماء في قيعان الآبار، وكان الدلو المتأرجح في الحبل يكشط قعرا طينيا قريبا من السواد.

أصـــبح الماء من الندرة بحيث لم نعد قادرين على الاغتسال، ولا علـــى غـــسل الملابـــس، كانت ثياب الأطفال ملوثة بالبراز، بالطعام

وبالتـــراب، وغدت فساتين النساء صلبة من الأوساخ، شبيهة باللّحاء. كانـــت تفوح من النساء ذوات الوجوه السود والشعر المشبك رائحة جـــيفة تغثيني، كنا نقتسم وقتها بيتنا مع فلاّحة مسنة من الساحل (من الـــزرقاء). أصـــبحت لا أطيق رائحة المرأة المسنة واعتدت على النوم خارج الدار، في الغبار، ملفوفة في نسيج كتّاني.

لا أشعر بالسعادة إلا عندما أستطيع الابتعاد عن المخيّم. أتسلق في الـــصباح الباكر إلى أعلى ربوة الحجارة، إلى ضريح الشيخ ناس. رأيت في أحـــد الأيام، ولأول مرّة، حيوانا يموت عطشا، كانت كلبة سعيد البيـــضاء، سعيد أصغر أبناء ناس، كنت أعرف الكلبة جيّدا لأن الشيخ ولـــع بهـــا في نهايـــة حياته، كانت كثيرا ما تبقى مستلقية إلى جانبه، القائمتان الأماميتان ممددتان والرأس منتصب. يبدو لي أنها لم تكن تحمل اسما، لكنّها تتبع الشيخ حيث ذهب. عندما مات تبعته الكلبة إلى القبر، في أعلـــى الـــربوة، ولم تنـــزل إلاّ في اليوم التالي، ومنذ ذلك الوقت أصبحت تصعد إلى أعلى الربوة وتنـــزل مع مجيء الليل.

بـــيد أنّ الماء غدا نفيسا، وكانت على وشك الموت إذ صادفتها ذات صـــباح تلهث بقوة لأنّي سمعتها من أسفل الدرب. تشبه بقعة بين أدغـــال الـــشوك في ضوء الشروق، نحيلة ومترّهلة. دنوت منها إلى أن لامـــستها، لكـــنّها لم تميّزني. كانت قريبة من الموت، عيناها كابيتان، تملكّت جسدها قشعريرة وخرج من فمها لسانها المنتفخ.

مكـــثت جالـــسة قـــربها إلى النهاية، في الوقت الذي غدا ضوء الـــشمس باهرا. فكّرت في ما قاله الشيخ ناس، في ذلك السؤال الذي كـــرّره مرارا، مثل لازمة: «ألا تشرق الشمس على الجميع؟» كانت الـــشمس وقـــتها في كبد السماء، تلهب الأرض التي بلا أمل، تلهب وجوه الأطفال، تلمع بقوة على شعر الكلبة التي تحتضر.

لم أشعر أبدا بهذا من قبل، بما يشبه اللعنة، بهذه القوة القاسية على أرض تنكسر فيها الحياة وتهرب، حيث تأخذ كل بداية يوم جديد شيئا من اليوم الذي مضى، حيث المعاناة ثابتة، عمياء، لا يمكن فهمها، كما لا نفهم غمغمات العجوز ليلى في مغارتها.

لهـــذا طلـــب مني سعدي أبو طالب، البدوي، الذي غدا زوجي لاحقـــا، ذاك الذي لا يعرف القراءة والكتابة، لمّا علم بأني درست في مدرسة الجزار، أنّ أكتب كلّ ما نعانيه هنا في مخيّم عين الشمس، حتى يـــصبح معلوما، حتى لا يجرؤ أحد على نسيانه. أنا استمعت إليه، ولذا كتـــبت الحـــياة يـــوما بعد يوم في كراريس المدرسة التي جلبتها معي. والدي أحمد هو الذي كانت له إرادة تعليمي القراءة والكتابة مثل ولد، قبل الذهاب إلى الشمال الذي لم يعد منه أبدا. فعل ذلك لأتعلّم قراءة سور القرآن، ولأحسب وأحلّ تمارين الهندسة كما يفعل ذلك أيّ ولد آخـــر. هل فكر بأنّي سأستعمل الكتابة لملء كراريس ذاكرتي. يبدو لي أنّه كان سيستحسن هذا، لهذا استمعت إلى ما قاله سعدي البدوي.

وأكتب أيضا من أجلها، من أجل تلك التي دوّنت اسمها في أعلى الكـــراس، في طريق نبع اللطرون، إستير جريف، على أمل أن تقرأ هذا وتـــأتي لـــزيارتي. جاءت في ذلك اليوم وقرأت مصيري على وجهها. اجتمعنا لحظة واحدة، كما لو أنّنا كنا نلتقي دائما. لمّا أنتهي من كتابة هـــذه الكراريس سأقدمها لجنديّ من جنود الأمم المتحدة ليسلّمها لها، هـــناك حـــيث وجدت. لهذا أملك قوة الكتابة، رغم الوحدة والجنون اللذين يحيقان بـــي.

تحدثت عن موت الكلبة البيضاء، عن معاناتها المستمرة أثناء صعود الشمس القاسية إلى السماء، في أعلى ربوة الحجارة، لأنّني رأيت الموت لأول مـــرّة. رأيـــت من قبل في عكا رجالا ونساء ميتين، ممددين على

حصائر بيضاء ناصعة، أمواتا يبدون نائمين في أغطية أسرة ناصعة البياض، غاية في النظافة، تلك التي ستخاط عليهم وعيونهم مغمضة. كانوا معلّمين ببقعة باهتة، وكانت شفاههم مشدودة، مثبتة بخيط ناعم يحيط بالفكين ويضلّ في الشعر، مثل عمّتي رايسة وجدّي محمد، الباردين، الجامدين، المرتبكين قليلا، كما لو أنهما لم يتعوّدا بعد على الموت.

ثم التوابيت التي توضع في القبور والرأس إلى الجنوب، وعمل الحفارين والعويل الحاد للندابات المحترفات. في البداية، رحل الشيخ ناس دون أن يكترث له أحد، ولم أر منه سوى ذلك الشكل الملفوف في غطاء قديم وقصير جدا، وقدميه الحافيتين المحنيتين باتجاه عمق التراب.

أمّا الكلبة البيضاء فقد ماتت فعلا، أبصرت رعب نظرتها المائية، عينيها الكابيتين، سمعت جهد نفسها الذي لا يرغب في التوقف، أحسست بقشعريرتها المديدة المؤلمة تحت يدي، ثم سكون جسمها البارد، في الوقت الذي كانت الشمس تضيء بلا شفقة شعرها المليء بالغبار. عرفت عندئذ أن الموت دخل إلى مخيّمها، ستأخذ الآن الحيوانات الأخرى، الرجال، النساء، الأطفال، الواحد تلو الآخر.

جريت وسط الأدغال إلى أعلى الربوة أين نبصر طريق عتيل وطولكرم، روابي جنين، البقعة السوداء للوادي الجاف، وكل ما أصبح عالمنا الآسر. لماذا نحن هنا؟ لماذا لا نذهب، نعبر التلال باتجاه الغرب، نحو البحر علّه ينقذنا؟

قدم أغلب سكان مخيّم نور شمس من الجبال، عاشوا في تلك الروابي المغروسة بالأشجار الشائكة حيث تتقدم ببطء قطعان الماعز التي يرعاها ولد. لم يعرفوا أكثر من هذا، ولم يحدث لهم أن شاهدوا البحر. عمّة حورية نفسها لا تهتم بهذا.

أمّا أنا فولدت في عكّا، أمام البحر، وكبرت هناك على الشاطئ، في جنوب الحيّ، أستحم في الأمواج التي تأتي إلى حدّ الحواجز، قريبا من حصن الإنجليز، أو تحت أسوار حصن الفرنسيين، مترقبة أشرعة الصيادين الماضية، حتى أكون أوّل من تتعرف وسط الأطفال إلى سفينة أبي. يخيّل إلي أنّي لو استطعت رؤية البحر مجددا لما كان للموت قيمة، لما كانت له سلطة عليّ، ولا على عمّة حورية، ولما كانت الشمس بهذه القسوة، ولما نزعت الأيام تنفس الأيام الماضية، لقد حرمت اليوم من كلّ هذا.

عندما أركبنا الجنود الأجانب في الشاحنات المغطاة لنقلنا إلى هنا، إلى طرف الدنيا، إلى هذا المكان الذي لا يمكن أن نذهب أبعد منه، فهمت أني لن أرى أبدا ما أحببته. أين هي أشرعة السفن التي تنزلق على الماء صباحا، محاطة بالنوارس والبجع؟

أبصرت شيخوختي ونهايتي في نظرات الأطفال المرميين تحت ظلّ الأكواخ جامدين، شبيهين بكلاب ضالة لا أحد يهتم بشأنها. وجهي الهزيل المجعد ذو البشرة الباهتة، شعري الذي كان جميلا في ما مضى، الذي كان يغطي ظهري إلى الخاصرة كمعطف حريري وغدا كما هذا الدغل الموحل المليء بالغبار والشوك، الذي أكله القمل، وجسدي الذي أصبح خفيفا، واليدان والقدمان القذرة التي خرجت منها عروق كالتي في أيدي النساء المسنّات وأرجلهن. كل يوم يمرّ في نور شمس، وكل أسبوع يضيف رجالا آخرين ونساء أخريات وأطفالا آخرين.

أتذكر الآن كيف وصلت عمّة حورية، ولو أنّها لم تقدم لي شيئا، لأنّها وصلت بعد أيام مع اللاجئين القادمين من القدس، إلاّ أنّي كنت أناديها عمّة لأنّي أحببتها مثل قريبة حقيقية. وصلت إلى نور شمس مثلي.

في شاحنة مغطاة من شاحنات الأمم المتحدة. كان متاعها الوحيد آلـــة خياطة. ولأنها لا تملك بيتا فقد أخذها إلى كوخ الأخشاب حيث أعـــيش وحـــيدة، في جهـــة المخيّم المقابلة لربوة الحجارة. بدت لي لما نـــزلت الأخيرة من الشاحنة أنّها كما عهدها، إلى النهاية، وقورة ولها هيـــئة جميلة في وسطنا نحن اللائي هدّتنا المحن. طيف مطمئن، مستقيمة جيّدا على أرضية الغبار.

كانـــت تـــرتدي اللباس التقليدي، جلابة الكتّان الطويلة الفاتحة والـــسروال الأســـود. كان وجهها محتجبا بالأبيض، وكانت ترتدي صندلا مرصعا بالنحاس. جمع القادمون الجدد أمتعتهم وشرعوا في السير نحو مركز المخيّم لإيجاد ملجأ يقيهم الشمس. سكن.

عـــادت شـــاحنة الأجانب المغطاة نحو طولكرم في سحابة من الغـــبار. بقـــيت جامدة، واقفة بالقرب من آلة الخياطة، كما لو أنّها تنتظـــر شاحنة أخرى لتأخذها بعيدا. اختارتني من بين الأطفال الذين كانوا ينظرون إليها، ربّما لأنّي كنت أكبرهم. قالت لي: «دليني على الطـــريق ابنتي.» قالت لي ذلك، نطقت اسم بنتي، ربّما سميتها عمّتي لأجـــل ذلك، كأنّها جاءت لزيارتي في نور شمس، كما لو أنّني كنت أنتظرها.

أحبـــبت وجههـــا في أوّل الأمر لّما نـــزعت حجابها في الكوخ، كانت بشرتها بلون النحاس الباهت وعيناها المزرورقتان تلمعان بغرابة، كما لو أنّ فيها شيئا خاصا عندما تنظر إليّ، شيئا مريحا ومربكا في آن

واحد، ربّما كانت تعرف كيف تنظر إلى ما وراء الأشياء والناس، كما يفعل بعض العميان.

استقرت عمّة في الكوخ أين أعيش وحيدة. طرحت آلة الخياطة الملفوفة بخرق بسبب الغبار، اختارت من البيت أقرب مكان إلى الباب، تنام على الأرض في غطاء سرير تلفّه حولها لتختفي كليّا. كانت تستعمل أحيانا خلال النهار، بعد الانتهاء من تحضير الأكل، آلة الخياطة لترقيع ثياب الناس الذين كانوا يجزونها بما تيسر، الطعام أو السجائر. أمّا الآن فهيهات. لأنّ المال هنا في مخيّمنا لم يعد يصلح لشيء. كانت تفعل ذلك ما دامت تملك خيطا، وكانت النسوة يأتينها بالخبز والسكر والشاي أو الحليب. لكنهنّ لم يملكن أحيانا سوى الشكر، وكان ذلك يكفيها.

الأمسيات هي التي كانت جميلة بسبب الحكايات، تشرع عمّتي أحيانا في سرد حكاية جنّ، هكذا، دون أن نعرف لماذا، في نهاية الظهيرة لّما تأفل الشمس وتغيب خلف الضباب، ناحية البحر، أو بالعكس، لّما تطرد الريح السحب وتتألق السماء مع هلال القمر المائل كالسيف. كانت تعرف ذلك، تحسّ به، إنّه المساء الذي تقصّ فيه. تجلس قبالتي وتلمع عيناها ببريق عجيب عندما تقول: «اسمعي، سأقص عليك حكاية جن.» إنّها تعرف الجنّ، لقد رأتها، إنّها شبيهة بلمعان أحمر، ترقص في ليل الصحراء ولا نراها في النهار مطلقا، تختبئ في وهج الضوء، لكنّها تعيد الظهور ليلا. تعيش في المدن مثل الناس، بأبراج وأسوار، مدن بأحواض ماء وبساتين. وحدها تعرف أين توجد هذه المدن، بل إنّها وعدتني باصطحابها إلى هناك بعد انتهاء الحرب.

كانت تبدأ إذن في سرد حكاية. تجلس أمام باب كوخنا ووجهها إلى الخارج، بلا حجاب، لأنها لم تكن تسرد لي وحدي. كنت أجلس داخل البيت، في الظلّ، قريبة جدا منها لأسمع صوتها.

يـــصل عندئذ أطفال الجيرة الواحد تلو الآخر. يتخابرون ويجلسون أمـــام البـــيت وســـط الغبار، أو يظلّون واقفين متكئين إلى جدار الألواح الخـــشبية. كان للعمّة حورية صوت آخر، صوت مختلف عندما تشرع في ســـرد حكاية جنّ. لم يكن صوتها المألوف، بل صوتا مخنوقا، أكثر خفوتا يجعلنا نصمت لنسمعها أفضل. لا يوجد أيّ صوت في المخيّم مساء، كان صـــوتها مثل غمغمة، لكنّنا نسمع كلّ كلمة ولا ننساها. كان وجه عمّة حورية يتبدل بهدوء أيضا، وحتى أسمع جيّدا أتمدد على الأرض قرب الباب وأرى وجههـــا ينـــتعش. عيناها تلمعان أكثر فأكثر وتقذفان بريقا، تومئ عـــباراتها، وتُظهر على وجهها الخوف والغضب والغيرة، تومئ الأصوات، خافـــتة أحيانا وخرساء، أو قصيرة وحادة، أو متأوّهة أحيانا. كانت يداها تشوّران، كما لو أنّها ترقص وهي تفخّم رنات الخلاخل النحاسية، بيد أنّ بقية الجسد تظلّ جامدة أثناء تربّعها على فتحة الباب.

كانت حكايات جميلة تلك التي تقصها عمّة حورية وهي جالسة في الغـــبار قدّام الباب في الوقت الذي يلين ضوء الشمس ويخف عبء الـــنهار. حكايـــات تخيفنا، رجال يمسخون وهم يعبرون الوديان، أو أموات يخرجون من قبورهم للتنفس، حكايات الأشباح ومدن الأموات الضائعة في جهة ما من جهات الصحراء، والمسافر التائه الذي يغامر إلى هـــناك ولا يعـــود أبدا. حكايات الجانّ الذي يصبح زوج امرأة أوجنة تـــسطو على رجل وتجره إلى بيتها، في أعالي الجبال. هناك جانّ شرير يـــدخل في أجساد الأطفال عندما تهبّ الريح ويجعلهم يفقدون العقل، يجعلهم يصعدون فوق البيوت كما لو أنّهم عصافير، أو يجعلهم يقفزون إلى قيعان الآبار كما لو أنّهم ضفادع.

كانـــت تقـــص علينا كذلك حكايات اللامة، لمّا فتنت الساحرة بيروت أمّ شاب وأوهمتها بأنها خالتها.

غابت المرأة لحظة واستولت بيروت على ابنها لتضع بدله في المهد حجرا كبيرا ملفوفا في خرق، ثم طبخت الابن وقدّمته لأمه. كانت توضح لنا وقتها كيف نقاوم العين الشريرة بوضع اليد أمام الوجه وكتابة اسم الجلالة على الجبين بماء ممزوج بالرماد. كانت توضّح لنا كيف نخيف الساحرات بنفث قليل من الرمل في اليد المفتوحة، كما كانت تقص حكايات عائشة الأفريقية، القاسية السوداء المتنكرة في هيئة آمة، تلك التي تأكل قلوب الأطفال لتخلد.

وإذ كانت عمّة حورية تأخذني من يدي وتجلسني قربها أمام البيت وتقول: «ماذا أقص عليك هذا المساء؟» أجيبها في الحال: «حكاية من حكايات العجوز عائشة الخالدة.»

أنسى من أنا وأين أنا، أنسى الآبار الثلاث الجافة، الأكواخ البائسة حيث ينام الرجال والنساء على الأرض بانتظار الليل، بانتظار المجهول، أنسى الأطفال الجياع الذين يترقبون وصول شاحنات الأمم المتحدة في أعلى الربوة ويهتفون إذ يبصرون سحابة الغبار في الطريق: «الخبز! الدقيق! الحليب! الدقيق!» وذلك الخبز الذي يتمّ توزيعه آنذاك، يابس ومرّ، بمعدل قطعتين للشخص يوميا، وأحيانا قطعة واحدة، أنسى الجراح التي تغطي أجساد الأطفال، لدغات القمل والبرغوث، الأكعاب المتشققة، الشعر الذي يسقط في شكل لفائف، الرّمد الذي يلهب الجفون.

حكايات عمّة حورية ليست دائما من أجل تخويفنا، كانت تقول حين تلاحظ أنّنا مرهقون، وأنّ الأطفال متعبون وقد حفر الجوع وجوههم، وأنّ لهب الشمس لا يطاق: «اليوم يوم حكاية ماء، حكاية حديقة، حكاية مدينة ذات ينابيع تغني وبساتين مليئة بالطيور.»

كان صوتها أكثر دفئا، وكانت عيناها تلمعان بوميض أكثر غبطة حينما تبدأ الحكاية: تعرفون، لم تكن الأرض في قديم الزمان كما هي

الآن. كانت الجنّ تعمر الأرض مع الناس، والأرض مثل حديقة كبيرة محاطة بنهر سحري يستطيع الجري في اتجاهين، يسيل من ناحية باتجاه الغروب، ومن الناحية الأخرى باتجاه الشروق. وكان ذلك المكان رائعا، لذلك سميّ الفردوس، الجنّة. تعرفون، لم يكن بعيدا من هنا كما قيل لي. كان على شاطئ البحر، قريبا جدا من مدينة عكّا. هناك قرية صغيرة لازالت إلى اليوم تحمل هذا الاسم، الجنة، ويشاع أنّ كلّ سكان هذه القرية من سلالة الجن. هل هي حقيقة، هل هي وهم، ليست لي إجابة. يبقى أنّ هذا المكان ربيع خالد، حدائق مليئة بالزهور والفواكه، بالينابيع التي لا تنضب أبدا. لم يكن الغذاء ينقص الناس. كانوا يعيشون بالفواكه والعسل والأعشاب، لأنّهم لم يعرفوا طعم اللحم. كان في وسط هذه الحديقة الكبيرة قصر رائع بلون السحب، وكان الجان يعيشون هناك لأنّهم أسياد هذه الأرض التي أوكلها الله لهم. كان الجان آنذاك طيبين، لم يكونوا يسيئون إلى أحد، وكان الرجال والنساء والأطفال يعيشون في الحديقة حول القصر. كان الهواء منعشا، والشمس من الرحمة بحيث لم يحتاجوا إلى بيت للاحتماء. لم يحدث أن وجد شتاء أو صيف.

سأحكي لكم الآن أيها الأطفال كيف ضاع كل شيء، هنا وجدت قديما تلك الحديقة ذات الاسم الناعم، الفردوس، الجنة، لأنّ تلك الحديقة المليئة بالأزهار والأشجار حيث تغني الجداول والعصافير دون توقف، تلك الحديقة التي عاش فيها الناس في وئام، لا يأكلون سوى الفواكه والعسل، هي الآن هذه الأرض التي بلا ماء، الأرض الوعرة العارية، التي لا شجرة فيها ولا زهرة، الأرض التي أصبح فيها الناس أشرارا يشنّون حربا وحشية ضارية، دون أن تساعدهم الجنّ.

تتوقف عمّة حورية عن الكلام ونبقى جامدين بانتظار الآتي. تذكرت حين كانت تقص الحكاية لّما جاء الشاب البدوي، سعدي أبو

طالب أوّل مرّة إلى الخيمة، جلس على عقبيه، على الحياد قليلا لسماع ما تقوله عمّتنا. لزمت هذه المرّة عمّة حورية الصمت طويلا حتى نسمع نبضات قلوبنا، الأصوات الخفيفة التي تأتي من البيوت الأخرى قبل الليل، أصوات الرّضع ونباح الكلاب. كانت تعرف قيمة الصمت.

وأردفت: «تعرفون، الماء هو الذي كان جميلا في الحديقة. ماء لم يحدث أن شاهدتموه أو تذوقتموه أو حلمتم به. ماء من البرودة والصفاء بحيث يحافظ من يشربونه على شبابهم، لا يشيخون ولا يموتون أبدا. كانت الجداول تسيل عبر الحديقة وتذهب إلى النهر الكبير الذي يحيط بها ويسيل في اتجاهين، من الغروب إلى الشروق ومن الشروق إلى الغروب. كذلك كانت الأشياء في ذلك الوقت، وكان بإمكانها أن تستمر كذلك، كان يمكن أن نكون اليوم تحت ظلّ الأشجار، في هذه الساعة وأنا أحدثكم، نستمع إلى موسيقى الجداول وزقزقة العصافير لو لم يغضب الجان، أسياد هذه الحديقة، على الناس ولم ينضبوا الينابيع ويلقوا الملح في النهر الكبير الذي أصبح على ما هو عليه اليوم، مرّا وبلا نهاية.»

تتوقف حورية قليلا ونرى السماء تقتم تدريجيا، تصعد أدخنة هنا وهناك مابين سقوف الأكواخ القصديرية، بيد أنّها غرّارة ووهمية، كنّا نعرف ذلك جيّدا. أشعلت النساء المسنات النار لغلي الماء، لكنّهن لا يملكن شيئا آخر لإلقائه فيها، ماعدا بعض الأعشاب والجذور التي أخرجنها من الأرض في الروابي. لم يكن لأخريات ما تطبخنه، غير أنهن يشعلن النار بفعل العادة، كأنّهن سيتغذّين بالبخار، مثل أشباح الحكايات التي تقصها علينا عمّة حورية.

تستمر في حكايتها، وخفق قلبي فجأة بسرعة لأنّي أدركت أنّها كانت تقصّ علينا حكايتنا الحرفية، هذه الحديقة، هذه الجنة التي أضعناها لّما ضربنا حنق الجنّ.

«كـــيف غضب الجان على البشر، كيف خرّبوا هذه الحديقة التي كـــنا ســـنعيش فيها ربيعا أبديا؟ هناك من يقول إنّ ذلك بسبب امرأة أرادت الدخول إلى قصر الجان، وحتى تقوم بذلك أوهمت الناس بأنّهم أقوى من الجان، وبمقدورهم طردهم بسهولة من قصرهم ماداموا أكثر مـــنهم عددا. وقال آخرون إنّ ذلك بسبب أخوين، اسم الأول سواد واســـم الـــثاني صـــافي، ولدا من أب واحد ومن أمين مختلفين، وكانا يتباغضان. كان كل واحد منهما يريد الاحتفاظ لنفسه بحصة الحديقة. يحكـــى أنهمـــا كانـــا يـــتعاركان بالأيدي منذ الطفولة. وكان الجان يضحكون لرؤية جهودهما ككبشين صغيرين يتجاهان في الغبار. ثم كبرا وتقاتلا بالعصي والحجارة، واستمر الجان يضحكون عليهما ويسخرون مـــنهما مـــن أعلـــى أســـوار قصرهم، قريبا جدا من السحب، كانوا يشبّهانهما بقردين.

لكـــنّهما أصبحا يافعين، واستمر الآن القتال بالسيوف والبنادق. كـــان كـــلا الرجلين قويّا وماكرا، يجرحان بعضهما بوحشية ويسيل دمهمـــا على الأرض دائما، دون أن يعترف أيّ منهما بالهزيمة، وكان الجـــان دائمـــا ينظـــرون إليهما من أعالي القصر ويقولون: ليتصارعا وليستنفدا قواهما، سيصبحان بعد ذلك صديقين.

لكـــنّ عجـــوزا تدخلت آنذاك، يقولون ساحرة ذات وجه أسود ترتدي ثيابا رثة، وقد تكون عائشة لأنّها كانت مسنّة جدّا وتعرف كل أســـرار الجـــن، ذهب الأخوان لاستشارتها الواحد تلو الآخر ووعداها بمنحها ذهبا كثيرا لنصرتهما، فتشت الآمة العجوز في أغراضها وأعطت لكل منهما هدية. أعطت لسواد، أكبرهما، قفصا صغيرا به حيوان برّي ذو وجـــه أحمـــر يـــسطع بشكل غريب أثناء الليل، لم يحدث أن رأى أحـــدهم حـــيوانا يشبهه في تلك الحديقة. وأعطت للثاني الذي يسمىّ

صافي حقيبة كبيرة من الفرو بها سحابة خفية وقوية، لأنّه لم يكن آنذاك، في تلك الحديقة، لا نار ولا ريح.

وفي أوج الحقد، ودون تفكير، ألقيا على بعضهما هذين الشيئين المسحورين، عندما فتح القفص الصغير من كان يملكه، وثب الحيوان البرّي ذو الوجه الأحمر خارجا واستولى في الحال على الأشجار والأعشاب وأصبح كبيرا جدا. فتح حينها الأخ الآخر حقيبة الفرو فخرجت من الحقيبة الريح التي نفخت في النار وحوّلتها إلى حريق عظيم أشعل المدينة كلها. أحرق اللهب الأحمر كل شيء، الأشجار، الطيور والناس الذين كانوا في الحديقة، ماعدا من وجدوا ملجأ في النهر الكبير. لم يعد الجان الآن يضحكون في قصرهم المحاط بالدخان الأسود. قالوا: «اللعنة عليكم أيها الناس، واللعنة على أجيالكم.» ثم هاجروا الحديقة المتلفة إلى الأبد، وقبل أن يذهبوا سدوا كل الينابيع والجداول ليتأكدوا من أن لاشيء سينمو على هذه الأرض، ثم رموا جبلا كبيرا من الملح الذي أنكسر وانتشر في النهر. هكذا تحوّلت حديقة الفردوس إلى هذه الصحراء الجافة. وهكذا أصبح النهر الدائري مرّا وتوقف عن السيلان في الاتجاهين، هنا تنتهي حكايتي، منذ ذلك الوقت لم يعد الجان يحبون البشر، لم يغفروا لهم بعد، ولازالت العجوز عائشة تهيم على هذه الأرض، الآمة العجوز التي تمنح السلاح والموت لمن يستمعون إلى كلماتها. حفظنا الله من ملاقاتها في طريقنا يا أولاد.»

جاء الليل، قامت الآن عمّة حورية واتجهت نحو الآبار لإقامة الصلاة، وعاد الأطفال كلّ إلى بيته. بقيت أسمع، وأنا ممددة على الأرض، في مكاني قرب الباب، صوت عمّة حورية، خفيفا ومنتظما كتنفسها. أشمّ رائحة الدخان في السماء، ورائحة الجوع، فكرت في الجان، كم بقي من وقت وهم يهملون البشر؟

قــدمت رومية إلى مخيّم نور شمس في أواخر الصيف. لّما وصلت كانت حاملا منذ أزيد من ستة شهور. كانت امرأة شابة، فتاة تقريبا، ذات وجـه ناصع البياض عليه آثار التعب، لكنّها حافظت على شيء طفـولي يقوّيه شعرها الأشقر المقسم إلى ضفيرتين متناسقتين، وكانت عيـناها اللـتان بلون الماء، تنظران إليك بنوع من البراءة الخائفة، على طـريقة بعض الحيوانات. تكفلت بها عمّة حورية في الحين. قادتها إلى بيتـنا وأقامـت هـناك، في مكان العجوز التي وجدت مكانا في جهة أخرى. كانت رومية إحدى ناجيات ديريس. توفي زوج رومية هناك، وكذلك أبوها وأمها وحمواها.

عثـر عليها الجنود الأجانب تائهة في الطريق فقادوها إلى مشفى عـسكري لأنّهم اعتقدوا أنّها مجنونة، وربّما أصبحت مجنونة منذ ذلك الـيوم لأنّها اعتادت الجلوس في زاوية لمدة ساعات. أخذها الجنود إلى المخيّمات قريبا من أورشليم، إلى الجلزون، إلى معسكر، إلى دير عمار، ثم إلى طولكرم وبلاطة، وهكذا انتهى بها الأمر إلى أن قادها الطريق إلى مخيّمنا.

لم تـرغب في بداية الأمر، عندما وصلت عندنا، في التخلي عن حجابهـا، ولـو في البيت. كانت تظلّ جالسة قرب الباب بلا حركة، بحجابهـا الطويل الملطخ بالغبار الذي يلفّها إلى الركبتين، وكانت تنظر إلى الأمام مباشرة بعينين تائهتين. كان أطفال الجيرة يقولون إنّها مجنونة، وإذ يمرّون على الباب، أو يصادفونها في طريقهم، بمدخل المخيّم، ينفثون الغبار في راحة اليد اتقاء سيء الطالع.

يـتحدثون عنها وهم يتمتمون، «**هابله، هابله**» أصبحت مجنونة، ويقولـون أيـضا، «**خايفـي**» نوعا ما. في حين وجدت عمّة حورية الطـريق. آنّست رومية يوميا. هي التي كانت تقدّم لها الطعام. كانت

تأتيها في أول الأمر بجفنة من عجين الدقيق بحليب **كليم**، مثل صبيّ، تمرّر إصبعها المبللة باللعاب على شفتيها اليابستين لتشرع في الأكل. تحدثها بهدوء، تهدهدها، ومع الوقت استيقظت رومية وبدأت تنتعش.

أتذكر لمّا نزعت حجابها أوّل مرّة، وجهها الأبيض الذي يسطع تحت الضوء، أنفها الدقيق، فمها الطفولي، الأوشام الزرقاء على خدّيها وعلى ذقنها، وخاصة شعرها الطويل السميك المليء بلمعان من النحاس والذهب. لم أشاهد جمالا مماثلا، وفهمت لماذا سميت رومية، لأنّها لم تكن من سلالتنا.

توقفت نظرتها برهة عن إظهار الخوف، نظرت إلينا، عمّة حورية وأنا، ولكن، دون أن تتكلم، ودون أن تبتسم. إنّها لا تكاد تتحدث، ماعدا بعض الكلمات لتطلب ماء أو خبزا، أو جملة مفاجئة ترددها دون أن تفهمها، جملة لم يكن لها معنى بالنسبة إلينا جميعا. أملّها أحيانا وأملّ نظرتها التائهة فأصعد إلى أعلى الربوة الحجرية، هناك حيث دفن الشيخ ناس، وحيث يعيش الآن البدوي في كوخ صنعه من الأفنان والحجارة، أبقى مع الأطفال الآخرين، كأنّي أترقب وصول شاحنات التموين. ربّما كان جمال رومية هو الذي يطاردني، جمالها الهادئ الذي يبدو أنّه يعبر كل شيء ويفرغه من معناه.

عندما تصعد الشمس إلى كبد السماء وتسخن حيطان بيتنا مثل جدران فرن، تغسل عمّة حورية جسد رومية بمنشفة مبللة بالماء. تذهب كل صباح لإحضار الماء من الآبار لأنّ الماء كان نادرا وبلون الحمأ، وكان يجب تركه طويلا ليصفى. كانت تلك حصتها للشرب والطبخ، لكنّ عمّة حورية تستعمله لغسل بطن المرأة الشابة دون أن يعلم أحد. كانت عمّة حورية تقول إنّ الصبي الذي سيولد لن ينقصه الماء لأنّه يعيش من قبل، يسمع صوت الماء الذي يسيل على البشرة كالمطر.

تأتـــيها في أول الأمر بجفنة من عجين الدقيق بحليب **كليم**، مثل صبيّ، تمـــرّر إصبعها المبللة باللعاب على شفتيها اليابستين لتشرع في الأكل. تحدثها بهدوء، تهدهدها، ومع الوقت استيقظت رومية وبدأت تنتعش.

أتذكر لمّا نـــزعت حجابها أوّل مرّة، وجهها الأبيض الذي يسطع تحت الضوء، أنفها الدقيق، فمها الطفولي، الأوشام الزرقاء على خدّيها وعلى ذقنها، وخاصة شعرها الطويل السميك المليء بلمعان من النحاس والـــذهب. لم أشاهد جمالا مماثلا، وفهمت لماذا سميت رومية، لأنّها لم تكن من سلالتنا.

توقفت نظرتها برهة عن إظهار الخوف، نظرت إلينا، عمّة حورية وأنـــا، ولكن، دون أن تتكلم، ودون أن تبتسم. إنّها لا تكاد تتحدث، ماعدا بعض الكلمات لتطلب ماء أو خبزا، أو جملة مفاجئة ترددها دون أن تفهمها، جملة لم يكن لها معنى بالنسبة إلينا جميعا. أملّها أحيانا وأملّ نظرتها التائهة فأصعد إلى أعلى الربوة الحجرية، هناك حيث دفن الشيخ ناس، وحيث يعيش الآن البدوي في كوخ صنعه من الأفنان والحجارة، أبقـــى مع الأطفال الآخرين، كأنّي أترقب وصول شاحنات التموين. ربّما كان جمال رومية هو الذي يطاردني، جمالها الهادئ الذي يبدو أنّه يعبر كل شيء ويفرغه من معناه.

عـــندما تصعد الشمس إلى كبد السماء وتسخن حيطان بيتنا مثل جدران فرن، تغسل عمّة حورية جسد رومية بمنشفة مبللة بالماء. تذهب كـــل صباح لإحضار الماء من الآبار لأنّ الماء كان نادرا وبلون الحمأ، وكان يجب تركه طويلا ليصفى. كانت تلك حصتها للشرب والطبخ، لكنّ عمّة حورية تستعمله لغسل بطن المرأة الشابة دون أن يعلم أحد. كانت عمّة حورية تقول إنّ الصبـــي الذي سيولد لن ينقصه الماء لأنّه يعـــيش مـــن قبل، يسمع صوت الماء الذي يسيل على البشرة كالمطر.

تنظيفها. لازالت الشمس باهرة خارجا، كان على المخيّم عبء الغبار والسكون. كنت قبل الليل في أعلى الربوة وأذناي مليئتان بخرير الماء وطنين صوت العجوز. ربّما توقفت عن مشاهدة المخيّم بعينيّ. كأنّ كل شيء تبدّل، كأنّي وصلت في الحال و لم أعرف بعد هذه الحجارة، هذه البيوت السوداء، الأفق الذي تسده الروابي، وهذه الربوة الجافة التي غرست فيها أشجار محترقة، إلى حيث لا يأتي البحر أبدا.

منذ وقت طويل ونحن مسجونون في هذا المخيّم، أجد صعوبة في تذكر ما كانت عليه الأحوال سابقا، عكّا، الحرّ، رائحة البحر، صياح النوارس، القوارب المنزلقة عبر الخليج فجرا، الآذان غسقا في الضوء الخافت عندما أمشي قرب الأسوار وفي حقول الزيتون، كانت العصافير تحلّق، طيور الترغل الكسلانة، طيور الحمام ذات الأجنحة الفضية التي تعبر السماء معا، تدور، تتأرجح ثم تذهب إلى الجهة الأخرى. كانت الشحارير ترسل أصواتا قلقة في الحدائق مع اقتراب الليل. ذاك ما فقدته.

يجيء الليل إلى هنا فجأة، بلا آذان، بلا صلاة وبلا عصافير. تتغيّر السماء الباهتة اللون، تغدو حمراء، ثم يصعد الليل إلى أسفل الوديان. لما وصلت في الربيع، كانت الليالي حارّة وروابي الحجارة تنفث حرارة الشمس أثناء الليل. إنّنا الآن في الخريف، الليالي باردة، نحسّ بالبرد يصاعد من الأرض بمجرد اختفاء الشمس خلف الروابي. يتدثر الناس قدر استطاعتهم في الأغطية التي وزعتها الأمم المتحدة، في المعاطف الوسخة، بأغطية الأسرة، أصبح الحطب من الندرة بحيث لم نعد نشعل النار ليلا. كل شيء أسود، ساكن، بارد، إنّنا مهملون، بعيدا عن العالم، بعيدا عن الحياة. تبرز النجوم بسرعة في السماء، تصنع رسوماتها الرائعة، أتذكر في ما مضى وأنا أمشي في الشاطئ، رفقة أبي، أنّني كنت أرى رسومات نجوم تبدو لي أليفة. كانت كأضواء المدن المجهولة المعلقة في السماء. يُظهر الآن ضوءها الشاحب البارد مخيّمنا أكثر عتمة

وأكثر إهمالا. تقول عمّة حورية لما يكون القمر دائريا في الأماسي، وعندما تنبح الكلاب: «الموت هو الذي يعبر.» في الصباح يذهب الرجال لرمي جثث الكلاب التي ماتت ليلا.

الأطفال يصخبون أيضا في الليل. أحس بقشعريرة تسري في جسدي. هل يجب الذهاب صباحا للبحث عن جثث الأطفال الذين ماتوا ليلا؟

استقر البدوي، المسمّى سعدي، في ربوة الحجارة، قريبا من المكان الذي دفن فيه الشيخ ناس منذ أكثر من سنة خلت، بنى ملجأ بأغصان قديمة وقطعة من قماش الكتّان. يظلّ هناك ليلا نهارا ينظر إلى طولكرم، ولا يكاد يتحرك. يصعد الأطفال كل صباح لرؤيته، ومعهم يحرس الطريق التي تأتي منها شاحنة التمويل. لكنّه لا ينزل عندما تصل الشاحنة، يبقى جالسا قرب ملجئه، كأنّ ذلك لا يعنيه. لا يذهب أبدا لأخذ حصته، وإذ يشتد به الجوع أحيانا، ينزل إلى منتصف طريق الربوة، ولأنّ بيتنا هو أوّل بيت يصادفه، يبقى واقفا ومنعزلا قليل. تأخذ عمّة حورية قليلا من الخبز أو ظلمية من الحمص صنعتها بنفسها، تضعها على حجر وتعود أدراجها إلى البيت. يقترب سعدي، يحدّق فيّ بنوع من الخجل والصلابة فيخفق قلبي. الكلاب التي تتسكع في الروابي حول المخيّم ذات عيون بلون واحد. يحدثها هناك في أعلى الربوة، الأطفال يروون ذلك، وإذ سمعته عمّة حورية قالت إنّه أبله، ولهذا مخيّمنا محفوظ.

أذهب كل صباح إلى أعلى القرية لمشاهدة وصول شاحنة الأمم المتحدة. ذاك ما قلته، لكنّي أذهب أيضا لمشاهدة بدوي جالسا على حجره أمام كوخه المصنوع من الأغصان وهو ملفوف في معطفه القطني. شعره طويل ومنفوش، بيد أنّ وجهه وجه شاب أمرد،

بشوارب خفيفة. وإذ اقتربت نظر إليّ، أبصرت لون عينيه الشبيه بلون عـــيون الكـــلاب الضالة. لا ينـــزل من الربوة إلاّ للذهاب إلى الآبار ليـــشرب. ينتظـــر في الطابور، وإذ يحين دوره، يستسقي الماء من البئر بـــيده، ثم لا يـــشرب إلى المساء. الفتيات يسخرن منه، لكنّهن يخشينه قلـــيلا، يقلن إنّه يختبئ في الأدغال ليرقبهن لّما يذهبن لقضاء حاجاتهن، يقلن إنّه حاول جرّ فتاة فعضته. لكنّه مجرد اغتياب.

يجـــيء أحـــيانا ليستمع عندما تقص عمّة حورية حكاية جنّ، لا يجلس مع الأطفال، يبقى منعزلا ورأسه مائل نحو الأرض ليسمع، قالت عمّة حورية إنّه وحيد في الدنيا ولا عائلة له. ولكن لا أحد يعرف من أين جاء ولا كيف وصل إلى هنا عبر الطريق إلى نور شمس. ربّما كان هنا قبل الجميع بقطيع من الماعز. ولما ماتت الحيوانات لم يعرف إلى أين يذهب وبقي هنا. ربّما ولد هنا.

اقترب منّي وكلمني. كان صوته لطيفا، ذا نبرة لم أسمعها من قبل. عمّـــة حورية هي التي قالت إنّه يتكلم مثل ناس الصحراء، مثل بدوي. لهذا سميناه كذلك.

كـــان ينظـــر إليّ بعينين صفراوين، قال لي من أنت ومن أين جئت، وعـــند ما حدّثته عن عكا وعن البحر رغب في معرفة البحر، لم يحدث أن رآه. لا يعـــرف سوى البحيرة الكبيرة المالحة ووادي غور الفسيح والمجيب حـــيث قـــصر الجـــنون كما يقول. أما أنا فحكيت له ما رأيته، الأمواج المنـــتظمة الـــتي تنتهـــي على جدران المدينة، الأشجار التي جنحت على الـــشاطئ، والسفن ذات الأشرعة التي تعبر الضباب صباحا وسط تحليقات الـــسجع، رائحة البحر، مذاق الملح، الريح، الشمس التي تدخل إلى الماء كل مـــساء، إلى آخـــر ألـــق. أحببت طريقة إصغائه، نظرته اللامعة، ذراعيه المتصالبين على معطفه، قدميه الحافيتين المتخذتين وضعة أفقية على التراب.

لا أتحدث مثل عمّة حورية لأنّي لا أعرف الحكايات الشعبية. لم أكـــن أعـــرف أن أحكي سوى ما شاهدته، هو بدوره يتحدث عما يعـــرفه، عـــن الجبال حيث كان يرعى القطعان، بالقرب من البحيرة المالحـــة، وهي تأكل الأعشاب والأدغال يوما بعد يوم بمحاذاة الوديان الـــتي تجـــري تحت الرمل. لم يكن له رفقاء، ماعدا الكلاب التي تجري قدّامه. مخيّمات البدو، رائحة النار، أصوات النساء، إخوته الذين قدموا من بعيد مع قطعانهم، يلتقون ثم يفترقون.

عـــندما كـــنت أحدثـــه أو كـــان يحدثني، كان الأطفال يأتون ليـــستمعوا، وسّـــعت الحمّى عيونهم ونُفش شعرهم، وكانت بشرتهم تـــسطع مـــن خـــلال ثيابهم الرثة. لكنّنا كنا نشبههم. أنا ابنة المدينة الساحلية، وهو، البدوي، لاشيء يميزنا، كانت لنا النظرة ذاتها للكلب الضال. نتحدث كلّ مساء عندما يليّن الشفق قيظ النهار ونحن ننظر إلى أعمدة الدخان الدقيقة التي تصعد من المخيّم، لاشيء يبعث عندئذ على القنوط، نستطيع الهرب، نصبح حرّين.

لم أعـــد بدوري أنتظر الآن شاحنة التموين، أرى من أعلى الربوة وأنـــا جالـــسة بالقـــرب مـــن سعدي، سحابة التراب بعيدا في طريق طولكـــرم، وأسمع نداءات الأطفال الهائجين وهم يترنمون: «الدقيق!... الحليب!... الدقيق!...»

كانـــت عمّـــة حورية هي التي تذهب لإحضار الحصص، أما أنا فأبقى لأستمع إلى سعدي، محاولة أن أتذكر أفضل كيف كانت الأيام في مـــا مـــضى، على شاطئ عكا، لمّا كنت أنتظر عودة سفن الصيد، وأحاول أن أكون أوّل من تشاهد عودة الأب.

توبّخني عمّة: «سحرك البدوي! سأشبعه ضربا بالعصا.» كانت تـــسخر مني. الحرب بعيدة جدا. لم يحدث أن هدأت، كان الأطفال في

بدايـــة الأمر يلعبون بقطع الخشب، أو يتراشقون بالحجارة وينبطحون أرضـــا، كما لو أنّها قنابل يدوية. لم يعودوا الآن يقومون بذلك، لقد نسوا. «لماذا لا نتجاذب أطراف الحديث، لمَ لا نعود إلى بيتنا؟» كانوا يسألون، لكنّهم نسوا الآن. آباؤهم وأمهاتهم يغضون الطرف.

هـــناك في عـــيون الرجال ما يشبه الدخان، سحابة، وذاك يطفئ نظرتهم، يجعلها سطحية، غريبة، لا يوجد لا غلّ ولا غضب، لا دموع ولا رغـــبة، ولا قلق. ربّما بسبب النقص الكبير للماء، الماء، النعومة. هـــناك إذن هـــذه الـــودقة، كما في نظرة الكلبة البيضاء عندما بدأت تحتضر.

لهـــذا أحبّ عينيّ سعدي، لم يفقد ماء نظرته، قزحيتاه الصفراوان تلمعـــان كتلك التي للكلاب المتسكعة في الروابـــي، حوالي المخيّم. ثمة ضـــوء في عينيه لما آتي لألتقي به. يضحك، ولكنّه يفعل ذلك في سرّه، دون تحريك الشفتين، بالعينين فحسب، يبدو ذلك واضحا.

يتحدث أحيانا عن الحرب، يقول لّما ينتهي كلّ شيء سيذهب إلى الجـــنوب، ناحـــية البحيرة الكبيرة المالحة، إلى ربوة طفولته. سيذهب للـــبحث عـــن أبيه وإخوته وأعمامه وعمّاته. يظن أنّه سيعثر عليهم، وسيتمكن من المشي مجددا مع حيواناته بمحاذاة الأنهار الخفية.

يذكر أسماء لم أسمعها من قبل، أسماء بعيدة كبعد النجوم: سويمة، باشا، صفد، مداسا، كماك، ووادي السرّ الذي ينتهي إليه الجميع.

الأرض هـــناك وعرة برأيه، والريح من القوة بحيث يهرب الناس كالغـــبار. عندما تأتي الريح تتجه البهائم نحو نهر الأردن، وقد تذهب أحـــيانا إلى غايـــة مديـــنة القدس الكبيرة، تلك التي يسميها العبريون أورشـــليم، وإذ تهـــدأ الريح تعود الحيوانات إلى الصحراء. يقول مثل الشيخ ناس: أليست الأرض للجميع؟ ألا تشرق الشمس على الجميع؟

وجهـــه فـــتيّ، لكنّ نظرته مليئة بالمعرفة. ليس سجين مخيّم نور شمس، يستطيع تركه وقت ما شاء، يقطع الروابـــي، يذهب إلى القدس وأبعد، إلى الجهـــة الأخرى من النهر، إلى مدن الذهب وعرق اللؤلؤ التي قالت عنها عمّة حورية بأن الملوك كانوا يسكنوها في ما مضى، أولئك الذين كانوا يتحكمون حتى في الجن، في بغداد وأصفهان والبصرة.

تألمـــت ذات لـــيلة وتمنيت الرحيل، أحسست كأنّ حجرا على صدري. خرجت. كان كل شيء هادئا في الخارج، وعمّة حورية تنام ملفوفة في غطاء السرير قرب الباب. لكنّ رومية لم تكن نائمة. كانت عيناها مفتوحتين جيّدا. أبصرت نفسها يحرك جسدها، بيد أنّها لم تقل شيئا لما مررت أمامها.

رأيت النجوم، وبدأ كل شيء في الليل يلمع بقوة، آلمني اللمعان. كان الهواء حارا، والريح التي تهبّ تشبه نفس فرن. مع أنّه لم يكن أحد في الخارج، حتى الكلاب كانت مختبئة.

نظـــرت إلى ممـــرات المخـــيّم المستقيمة، سقوف البيوت المزفّتة، الـــصفائح المعدنية التي تهتز في الريح، كأنّ الناس كلهم ماتوا، كأنّ كل شـــيء اختفـــى إلى الأبد. لا أدري لم تصرفت كذلك: خفت فجأة، كـــنت أتألم كثيرا بسبب ضيق الصدر، بسبب الحمّى التي تلهبني حدّ العظام، شرعت حينها في الجري عبر ممرات المخيّم، دون أن أعرف إلى أين أذهب، وكنت أصرخ: «استيقظوا!... استيقظوا!...» بدأ الرجال يخرجون، ثم النساء الملفوفات في معاطفهن رغم الحرارة. أركض وأسمع باحتـــشام مـــا يقولونه. نفس ما قالوه مع وصول رومية: «إنها مجنونة، جـــنّت.» استيقظ الأطفال، جرى معي كبارهم وظلّ الآخرون يبكون في الظلام. والحال أنّي لم أستطع أن أتوقف. كنت أجري وأجري عبر المعسكر. أعبر الطرقات ذاتها جيئة وذهابا، مرّة من جهة الربوة، ثم من

الأســـفل باتجاه الآبار وبمحاذاة الأسلاك الشائكة التي وضعها الأجانب حول الآبار، أسمع نفسي يصفّر في الرئتين، أسمع خفقان قلبـــي، أشعر بنار الشمس على جبهتي، على صدري، وأصرخ بصوت لم يعد صوتي: «اســـتيقظوا!... استيقظوا!...» ثم خانني النفس دفعة واحدة. وقعت أرضـــا قرب الأسلاك الشائكة، لم أعد قادرة لا على الحركة ولا على الكلام. اقترب الناس، النساء والأطفال، كنت أسمع وقع خطاهم، أسمع نفسهم بوضوح، كلماتهم. جاء أحدهم بماء في إناء حديدي، سال الماء قـــرب فمـــي، علـــى خدّي، مثل الدم. أبصرت وجه عمّة قريبا مني. ذكـــرت اسمهـــا، كانت هناك ويدها على جبهتي، تتمتم بكلمات لم أفهمهـــا. ثم فهمـــت أنها صلوات، وأحسست بأنّ الجنّ تبتعد عنّي، تهجرني. شعرت فجأة بأني خاوية، ضحية وهن شديد.

اســـتطعت المشي مستندة إلى ذراعي عمّة، سمعت الأصوات تخفّ وأنـــا ممددة على حصير بيتنا، استمرت الكلاب في النباح مدة طويلة، ونمت بنومها.

جـــاء ســـعدي إليّ لمّـــا صعدت صباحا إلى ربوة الحجارة وقال: «تعالي، أريد أن أكلمك.» ذهبنا قريبا من قبر الشيخ ناس، كان الوقت باكـــرا و لم يكن هناك أطفال. لاحظت أن سعدي تغيّر. غسل وجهه ويديـــه عند ذهابه إلى الآبار وقت الصلاة، وكانت ملابسه نظيفة رغم أنّها ممزقة، ضغط على يدي في يده بقوة ولمعت نظرته ببريق لم أعرفه، قـــال لي« نجمة، سمعت صوتك هذه الليلة. لم أنم عندما بدأت تنادين. فهمـــت أنّ ذلـــك جاءك من الله. لم يسمعك أحد، أمّا أنا فسمعت نداءك، ولهذا جهزت نفسي.»

أردت أن أســـحب يدي وأذهب، لكنّه كان يشدني بقوة بحيث لم أســـتطع الإفـــلات. كانـــت الرابية خالية، ساكنة، وكان المخيّم بعيدا. خفـــت، واختلط الخوف بشعور لم أفهمه بسبب بريق نظرته. قال لي: «أريـــد أن تـــأتي معي إلى الربوة التي ولدت فيها، إلى المجيب. ستكونين زوجـــتي، وسيكون لنا أطفال إن شاء الله.» كان يتحدث بهدوء، بنوع من الفرح الذي يضيء نظرته، ذاك ما كان يفتنني ويخيفني في آن واحد، «سنذهب اليوم إن شئت. نأخذ معنا الخبز وقليلا من الماء ونعبر الجبال.» كان يشير إلى جهة الشروق. وكانت الروابـــي لا تزال معتمة.

الـــسماء فارغـــة، بدأت الشمس في الصعود واستضاءت الأرض ببريق جديد. في الأسفل، في أسفل الربوة، هناك المخيّم الذي يشبه بقعة مظلمة يصعد منها بعض الدخان، كنا نرى أطياف النساء قرب الآبار، والأطفال الذين يركضون في الغبار.

« نجمة، كلّميني. يكفي أن توافقي لنذهب اليوم. لن يستطيع أحد منعــنا.» قلت: «سعدي، هذا غير ممكن، لا أستطيع الذهاب معك.» أظلمـــت نظرته، أطلق يدي وجلس على صخرة. جلست قربه، كنت أسمع خفقان قلبـــي في الصدر لأنّي رغبت في الذهاب، وحتى لا أسمع خفقان قلبـــي تحدثت. تحدثت عن عمّة حورية، عن رومية التي ستلد قريبا، تحدثت عن مدينتي عكّا حيث يجب أن أعود. كان يستمع دون أن يجـــيب وهو ينظر إلى الربوة المديدة والمخيّم الشبيه بسجن، وهؤلاء الناس الذين في غدوّ ورواح عبر الشوارع كالنمل. قال لي: «ظننت أنّي فهمـــت نداءك، النداء الذي أرسله الله هذه الليلة.» قال ذلك بصوت غـــير مكتـــرث، لكنّه كان حزينا، أحسست بالدموع في عينيه، وبدأ قلبــــي يخفق أكثر لأنّي أردت الذهاب. أمسكت بدوري بيديه ذات الأصـــابع الطويلة الدقيقة حيث تكوّن الأظافر بقعا صافية على البشرة السوداء. أحسست بالدم في يديه. «سعدي، ربّما سأذهب في يوم ما، لكنّي لا أستطيع الذهاب الآن. هل أنت غاضب عليّ؟» تأملني مبتسما وشعّت عيناه من جديد: «كانت هذه إذن رسالة الله التي أرسلها لك؟ أنا أيضا سأبقى.»

مـــشينا قلـــيلا في الربوة، وإذ وصلنا إلى مخبئه لاحظت أنّه جهّز كيـــسا للـــسفر، غـــذاء ملفـــوفا في قماش وقنينة ماء مربوطة بخيط: «ســـآخذك معي إلى عكا لما تنتهي الحرب، توجد جداول كثيرة هناك، ولن نحتاج إلى نقل الماء.»

فـــسخ الكيس وجلسنا على الأرض لنأكل قليلا من الخبز. كان ضوء الشمس يبدّد نداوة الصباح. سمعنا ضوضاء المخيّم والأطفال الذين يصلون، وكان هناك طيران سريع لعصفور يرسل زقزقة حادة، انفجرنا ضـــحكا نحن الاثنين لأنّنا لم نر طائرا منذ وقت طويل. وضعت يدي

علـــى كـــتف ســـعدي ورحت استمع إلى صوته المتردد الغنائي الذي يـــتحدث عـــن الربوة التي كان يتعقب فيها القطيع مع إخوته، بمحاذاة وادي المجيب الجوفي.

جاء فصل الشتاء بعد ذلك وأصبحت الحياة صعبة في نور شمس، مـــرت سنتان تقريبا ونحن في المخيّم، أصبحت شاحنة التموين تأتي أقلّ فأقـــلّ، مـــرّتين أسبوعيا، أو مرّة واحدة، ويحدث أن يمرّ أسبوع كامل دون أن تأتي الشاحنة إلى المخيّم. كانت هناك إشاعات الحرب، أشياء مـــرعبة تحكى، يقال إنّ المدينة القديمة في القدس احترقت وأنّ المقاتلين العـــرب يلقـــون بالأطر المطاطية في الأقبية والمحلات. يصل لاجئون في الـــشاحنات، رجال ونساء وأطفال بوجوه شاحبة. لم يعد الأمر يتعلق بـــالفلاحين الفقراء كما في البداية. إنّهم ناس حيفا ويافا الأكثر ثراء، تجـــار، محامون، وطبيب أسنان كذلك. كان الأطفال ذوو الثياب الرثة يحـــيطون بهـــم إذ ينـــزلون من الشاحنة ويترنمون: «فلوس! فلوس! » يتعقبون القادمين الجدد ويضايقونهم إلى أن يمنحهم هؤلاء قطعا نقدية. لكـــنّهم لم يكونـــوا يعرفون أين يستقرون في المخيّم. هناك منهم من يـــنامون في الهواء الطلق وحقائبهم مشدودة إلى أقدامهم وهم ملفوفون في أغطيـــتهم. تأتـــيهم الشاحنة بالسجائر والشاي وبسكويت **ماري**. السائقون هم الذي يبيعونهم ذلك خفية في الوقت الذي يقف الفقراء في الطابور للحصول على حصص الدقيق وحليب **كليم** واللحم المجفف.

وإذ كـــان القادمون الجدد ينـــزلون من الشاحنة يحيق بهم الناس ويـــسألونهم: «من أين أنتم؟ ما هي الأخبار؟ هل صحيح أنّ أورشليم تحترق، من يعرف والدي، الشيخ سرايس، في طريق عين كريم؟ أنت، هل رأيت أخي؟ يسكن في البيت الكبير لسليغمان، هناك حيث يوجد

محـــل للأثاث؟ ومحلي لبيع الأقمشة، أمام باب دمشق، هل نجا؟ ومحلي لبيع الأواني الخزفية قرب مسجد عمرو؟ وبيتي في الأقصى، بيت أبيض جمـــيل بنخلتين أمام الباب، بيت مهدي أبوطراش؟ هل لكم معلومات عن حيّي، قرب المحطة؟ هل صحيح أنّ الانجليز قنبلوه؟» كان القادمون الجدد يتقدمون وسط الأسئلة وقد بلّدهم السفر، يطرفون العيون بسبب الغبار وقد اتسخت ثيابهم الجميلة بالعرق. وشيئا فشيئا تتوقف الأسئلة ويعـــود الصمت، يتوزع ناس المخيّم أمامهم محاولين قراءة إجابة على أسئلتهم في عيونهم التائهة، في أكتافهم الخائرة، في عيون الأطفال حيث يلمع الخوف كرشح سيّء.

حـــدث ذلـــك وقت وصول سكان المدن الأوائل الذين طردهم القنابل، لم يعد مالهم يصلح لشيء هنا، حاولوا عبثا توزيعه أثناء الطريق في شكل قبضة من الأوراق، من أجل رخصة مرور، من أجل الحق في الـــبقاء في البـــيت أطول مدة، من أجل مكان في الشاحنة المغطاة التي أوصلتهم إلى المخيّم عبر الطريق.

ثم أصـــبحت الحـــصص أكثر فأكثر قلّة بسبب كل هؤلاء الناس الـــذين دخلـــوا إلى المخيّم. أصبح الموت الآن يضرب في كل الجهات. عـــندما أذهب إلى الآبار صباحا يكون معبر الأسلاك الشائكة مكدّسا بجـــثث الكـــلاب التي يتنازع عليها الناجون وهم يهرّون كحيوانات مفترســـة. لم يعـــد الأولاد قادرين على المغامرة بعيدا عن البيوت، وإذ أصعد إلى أعلى ربوة الحجارة لألتقي بسعدي، كان عليّ أن أحمل عصا لإبعاد الكلاب. أما هو فلم يكن يخاف. يريد البقاء هناك. نظرته تشعّ دائمـــا، يـــشدّ يدي ليحدثني، وكان صوته ليّنا. لكنّني لم أعد أمكث مطـــوّلا. بلغـــت رومية مرحلة الوضع، و لم أكن أودّ البقاء بعيدا وقت حدوث ذلك.

كانــــت عمّــــة حورية متعبة. لم تعد قادرة على تنظيف رومية. أصـــبحت الآبار على وشك الجفاف رغم الأمطار. أولئك الذين يأتون في الأخير لا يستخرجون سوى الطين. يجب انتظار الليل كله ليعود الماء إلى قعر الآبار.

الغــــذاء الوحيد هو عجين الخرطال الممزوج بحليب **كليم**. يذهب الأطفال الذين في سنّ العاشرة أو الحادية عشرة، وحتى النساء، يذهبون تـــباعا نحو الشمال، باتجاه لبنان، أو نحو الشرق باتجاه الأردن. يقولون إنّهـــم يذهبون إلى هناك للالتحاق بالفدائيين، يسمّوهم العائدين لأنّهم ســـيرجعون في يوم ما. سعدي لا يريد الذهاب إلى الحرب، لا يريد أن يكـــون عائدا. ينتظر أن أذهب معه إلى ربوة طفولته، في الجهة الأخرى من البحيرة المالحة.

لا تكاد رومية تخرج من البيت، ماعدا لقضاء الحاجة في المنحدر، خـــارج المخيّم. لا تذهب إلاّ معي، أو مع عمّة حورية، مترنّحة على طول الطريق وهي تشد بطنها بين يديها.

الآلام تـــبدأ هـــنا، في المنحدر. كنت في أعلى الربوة لأنّ الوقت باكـــر، وكانـــت الشمس في الأسفل تضيء الأرض من خلال ضبابة، كـــان وقـــت للجـــن، وقتا لمشاهدة الشعل الحمراء ترقص حول آبار زعـــرون يعقوب، كما رأت عمّة حورية، قبل وصول الانجليز بوقت قصير.

سمعـــت صوتا حادا، صوتا ثقب سكون الفجر، تركت سعدي وشرعت في نـــزول الربوة جريا، سالخة قدماي الحافيتين على الحجارة الحـــادة. أصدى الصوت مرّة واحدة وتسمّرت بحثا عن مصدره، وإذ دخلت إلى البيت أبصرت أغطية السرير ملقاة جانبا. مازالت الجرّة التي ملأتها صباحا على حالها. ذهبت نحو المنحدر غريزيا. كان قلبـــي يخفق

لأنّ الصرخة ولجت أعماقي، فهمت أنّ الوقت قد حان، ستضع حورية مولودها. جريت إلى المنحدر عبر الأدغال، سمعت الصوت من جديد. لم تصرخ، لم تشتك، كانت تتأوّه أكثر فأكثر، ثم تتوقف وكأنّها تلتقط الأنفاس.

رأيتها لّما وصلت إلى المنحدر. كانت ممددة على الأرض، رجلاها مثنيتان، ملفوفة في حجابها الأزرق، مغطاة الرأس. كانت عمّة حورية جالسة بجانبها تلاطفها وتحدثها. لازال المنحدر في الظلّ، وثمة نداوة الليل التي تخفف من رائحة البول والغائط. لأول مرّة أرى في نظرتها علامات الاضطراب. قالت: «يجب أخذها، إنّها ليست قادرة على المشي.»هممت الذهاب بعيدا بحثا عن المساعدة، لكنّ رومية أبعدت الحجاب واستقامت. شوّه وجهها ألم القلق، وكان شعرها مبللا بالعرق. قالت: «أريد البقاء هنا، ساعديني.» ثم استمرّت في التأوهات تحت إيقاع تشجنات الرحم. بقيت واقفة أمامها، غير قادرة على الحركة، غير قادرة على التفكير. كلّمتني عمّة حورية بقسوة: «اذهبي لإحضار الماء والأغطية!»، وإذ لم أتحرك قالت: «اذهبي بسرعة! إنّها بصدد الولادة.» ذهبت حينها جارية وصوت دمي في أذناي ونفسي يصفّر في حلقي. أخذت من بيتي أغطية السرير وجرّة الماء، ولأنّني كنت أسرع، انبثق الماء من الجرّة وبلّل فستاني. تعقبني الأطفال، وحين وصلت إلى مدخل الجرف أمرتهم بالذهاب. غير أنّهم مكثوا هناك، تسلقوا جوانب المنحدر ليروا، رميتهم بحجارة فابتعدوا، ثم عادوا من جديد.

كانت رومية تعاني كثيرا وهي ممددة على الأرض، ساعدت عمّة في رفعها للفّها في غطاء. كانت المياه تبلل فستانها، وعلى بطنها الأبيض الموسّع. كانت التشنجات تحدث ما يشبه الموجات على سطح البحر.

لم أر ذلـــك مطلقـــا. كان مرعبا وجميلا في آن واحد، لم تعد رومية نفسها، تبدّل وجهها. ولّما كانت مقلوبة إلى الوراء، في مواجهة السماء المـــضيئة. بدا وجهها قناعا، كأنّ شخصا آخر يسكنه. وكانت رومية تـــنهج فاتحة فاها، والتأوهات تخرج أحيانا من حلقها ولا تشبه صوتها. تجاســـرت واقتـــربت منها ووضعت على وجهها ماء مستعملة قماشا مـــبللا، فـــتحت عينـــيها ونظرت إليّ، كما لو أنّها لم تتحقق مني، ثم تمـــتمت: «بـــــي ألم، بـــي ألم.» عصرت القماش على شفتيها حتى تستطيع أن تشرب.

عـــاد الموج إلى بطنها، صعد إلى الوجه، قوّس ظهرها إلى الخلف، ضـــغط علـــى الـــشفتين وكأنّه يمنع خروج الصوت، كبر الموج أيضا وانـــزلق الأنين إلى الخارج، أصبح صراخا، ثم تحطم، غدا نفسا لاهثا. وضـــعت عمّـــة حورية يديها على بطنها وضغطت بكل قواها، بقوة كبيرة وكأنّها تريد التخلص من وسخ بياض على حافة مغسل. أبصرت ذلك برعب، كان وجه العجوز مكشّرا وهي ترضّ بطن رومية، وخيّل إليّ أنّي أحضر جريمة.

وفجـــأة بـــدأ المـــوج يتحرك بسرعة، ثبتت رومية رجليها على الكعبين، الكتفان لصق حجارة الجرف والوجه باتجاه الشمس، وبصراخ غـــير طبيعي دفعت المولود خارج الجسد. هناك الآن هذا الشكل، هذا الكـــائن الملفـــوف في الدم والسخد، وحول الجسد حبل حيّ. أخذت عمّة حورية المولود وشرعت في تنظيفه، وفجأة أطلق صراخه الأول.

نظرت إلى رومية وهي ممددة، إلى فستانها المشمّر على البطن الذي رضّـــته لكمات عمّة، وإلى نهديها المنتفخين اللذين بحلمتين بنفسجيتين. أحســـست بالغثـــيان، بدوار كبير، لأوّل مرّة تنظر إليّ بوجه مرتاح. عرضـــت عليّ الوليد الصغير المدعوك: إنّها بنت، «بنت جميلة جدا.»

قالـــت ذلـــك بصوت مرتخ، كأن شيئا لم يكن في واقع الأمر، كأنّها وجـــدت الوليد في قفة. وضعته برفق على صدر أمّه حيث بدأ الحليب يسيل، ثم غطتهما بغطاء نظيف وجلست قربهما مدندنة. صعدت الآن الـــشمس إلى الـــسماء وبدأت النساء يصلن إلى الجرف. بقيّ الرجال والأطفـــال بعيدا، وكان الذباب يحوّم. كأنّ عمّة حورية تذكرت فجأة الرائحة الرهيبة، «يجب العودة إلى البيت.»

أحـــضرت النـــساء غطـــاء، وحملت خمسة منهنّ رومية وبنتها مضمومة إلى صدرها، ثم نقلنها ببطء، مثل أميرة.

تغـــيرت الحياة الآن مع وجود الصبية في بيتنا، ورغم نقص الغذاء والمـــاء فإنّ هناك أملا في دارنا، حتى الجيران يحسون بذلك. يأتون كل صـــباح إلى الباب ويحضرون ما تيسر، سكّرا، قماشا نظيفا، قليلا من الحلـــيب المسحوق الذي يجهدون في أخذه من حصصهم. أمّا العجائز اللائـــي لا يجـــدن ما يهبنه فإنّهن يأتين بالحطب الجاف لإشعال النار، بجذور وأعشاب عطرية.

رومـــية نفـــسها تبدّلت منذ مجيء الصبية، لم تعد لها تلك النظرة الغريبة، وما عادت تتستر خلف حجابها. أطلقت اسم لولا على ابنتها، لأنّهـــا كانت المرّة الأولى، وأظن ذلك صحيحا في مخيّمنا البائس حيث قذفنا العالم، بعيدا عن كلّ شيء.

لا تتعب عمّة حورية من سرد حكاية الولادة للنساء اللائي يأتين في زيـــارة، كـــأنّ ذلك أعجوبة.. كانت تقول: «يجب أن نتخيل أنّي أخـــذت رومية إلى الجرف لقضاء حاجتها قبل فترة قصيرة من شروق الـــشمس، وهناك شاء الله أن تولد البنت، كأنّه أراد أن يبيّن أنّ الشيء الأجمـــل يمكن أن يظهر في الجهة الأكثر وضاعة، في وسط الأوساخ.» تغالي في الموضوع كثيرا، حتى أصبح خرافة تناقلتها النساء من فم لأذن. تحني الزائرات رؤوسهن في البيت ويمسكن بحجاباهن لإلقاء نظرة على هـــذه الآية. صحيح أنّ الخرافة التي أبدعتها عمّة حورية كانت تحيطها بـــضوء خـــاص، بفستانها الأبيض النقيّ وشعرها الطويل المنسدل على كتفيها. سيبدأ شيء ما حقا. كانت تلك المرّة الأولى.

كــان الفصل شتاء عندما عرف مخيّمنا اليأس والجوع والإهمال. الأطفــال والمسنون يموتون من الحمى والأمراض الناتجة عن مياه الآبار، خاصــة في الجهــة السفلى حيث استقرّ القادمون الجدد. كان سعدي يبــصر مــن أعلى القرية الناس الذين يدفنون الأموات. لم تكن هناك توابيت، كانوا يلفّون الميت في غطاء سرير قديم، دون خياطته حتى، ثم يحفــرون بسرعة ثقبا في جنب الربوة ويضعون بعض الصخور الكبيرة حتى لا تنبشه الكلاب الضالة. لكنّنا كنا نقنع نفوسنا بأنّ ذلك يحدث بعيدا جدا، ولن يحدث لنا أي شيء من هذا بفضل لولا.

الــبرد حاليا، الريح تعصف ليلا على امتدادات الحجارة، تلهب الأجفان وتخدّر الأطراف. يحدث أحيانا أن أستمع أثناء سقوط المطر إلى صــوت الماء الذي يجري على الألواح الخشبية والورق المقوّى المقطرن، ورغــم تعاستنا، كان ذلك يبدو لي أفضل من وجودنا في بيتنا، بجدران عالية جافة وحوض في الساحة يعزف فيه المطر موسيقاه. وضعت عمّة حــورية تحــت المزراب لجمع ماء المطر، كل الأوعية التي استطاعت الحصول عليها، القدور، الأباريق، علب الحليب المسحوق الفارغة، بما في ذلــك غطــاء محرك سيارة عثر عليه الأطفال في مجرى النهر. كنت أسمع حينها المطر يدق على كل الأوعية وأستعيد سعادتي الماضية في بيتنا لمــا كــنت أسمــع المــاء يجري على السقف وزجاج الساحة ويسقي شجيرات البرتقال التي غرسها أبــي في الأصص. كان صوتا يدفعني إلى البكاء لأنّه يحدثني، يقول لي لن يكون أيّ شيء على ما كان عليه، لن ألتحق ببيتنا، ولا بأبــي والجيران، ولا بشيء آخر عرفته.

تأتي عمّة حورية للجلوس بقربــي، كأنّها سبرت حزني. تحدثني بهدوء، ربّما كانت تقص عليّ حكاية جنّ، أتكئ عليها دون إزعاجها لأنّ الخصاصة أوهنتها. مزحت مساء أثناء سقوط المطر: «بمقدور النبتة

الذابلـــة أن تخضرّ الآن.» بيد أنّي كنت أعرف أنّ المطر لن يعيد إليها قواها، كانت شاحبة ونحيلة، وما تخلّى عنها السعال.

رومـــية هـــي التي تهتم اليوم بها، أمّا عمّة حورية فتصون البنت الملفوفة في البياض، تغنّي لها تهويدات.

لم تـــأت شـــاحنة الأمم المتحدة منذ وقت طويل. كان الأولاد يذهـــبون إلى الروابـــي بحثا عن الجذوع لأكلها، عن الأوراق وفاكهة الـــريحان. يعـــرف ســـعدي الصحراء جيّدا، يعرف كيف يقبض على الغنائم، طيور صغيرة ويرابيع يقوم بشيّها واقتسامها معنا. لم أتصور أبدا أنّ أكـــل هذه الحيوانات الصغيرة يمنح كلّ تلك المتعة، وكان يأتي أيضا مـــن الخلجـــان الـــبرية بثمار القطلب التي يلتقطها من بعيد، من وراء الروابـــــي. وإذ كـــان يأتي بمحصوله في خرقة ويضعها باحترام على الحجـــر المسطح أمام الباب، كنّا نهرع نحو الفواكه لأكلها وامتصاصها بـــشراهة، وكـــان يسخر بصوت غير مبال: «لا تعضوا أصابعكم! لا تأكلوا حجارة!»

هـــناك أمـــر غريب حاليا ما بين بدوي ورومية، هي التي كانت تغـــض الطـــرف، في ما مضى، لحظة اقتراب سعدي من البيت، غدت الـــيوم تـــسدل الحجاب على وجهها كأنّما تبغي التستر، لكنّ عينيها الصافيتين تحدقان في الرجل.

لم أعـــد بحاجة، عندما أعود صباحا، من الآبار، إلى الذهاب إلى أعلى الربوة لملاقاة سعدي. كان هناك جالسا على الحجر المسطح قرب البيت. لا يحدّث أحدا، يبقى معزولا قليلا كما لو أنّه ينتظر شخصا ما. لم يعـــد بمقدوري الآن وضع يدي في يده، ولا وضع رأسي على كتفه للاســـتماع إليه. يحدّثني بنفس الصوت اللين الغنائي، لكنّي كنت أفهم أنّـــي لم أعـــد أنا من ينتظرها، بل طيف حورية المختبئة في فيء البيت،

رومية التي تمشط عمّة حورية شعرها الطويل بالتفصيل، رومية التي ترضع ابنتها، أو التي تحضر الوجبة بالدقيق والزيت. كانا يتحدثان أحيانا. تجلس حورية على عتبة الباب ملفوفة في حجابها الأزرق، ويجلس سعدي في الجهة الأخرى من الباب ويتكالمان، يضحكان.

أصعد وقتها إلى أعلى الربوة والعصا في يدي لإبعاد الكلاب، لم يعد هناك أطفال، أترقب وحدي شاحنة التموين، وكان ضوء الشمس مبهرا والريح تذرو الغبار في عمق الروابي، وكان الأفق البعيد رماديا، أزرق، غير محسوس. أستطيع أن أتخيّل نفسي في البحر، على الشاطئ أترقب في الغسق عودة قوارب الصيد لأكون أوّل من تشاهد ذاك الذي أعرفه جيّدا، بشراعه الأحمر، وعلى جؤجؤه اسمي في النجمة الخضراء التي يأخذها أبي معه.

جاء إلى مخيّمنا ذات صباح أجنبي ومعه جنود. كنت في أعلى الربوة عندما صعدت سحابة الغبار الكبيرة في طريق زيتا، وفهمت أنّها ليست شاحنات التموين. أخذ قلبي يخفق من الخوف لأنّي تصوّرت أنّ الجنود هم الذين جاءوا لقتلنا.

بقيّ جميع الناس مختبئين وقت وصول القافلة لأنّهم خافوا، ثم خرج الرجال من الأكواخ ومعهم النساء والأطفال، ونزلت من الربوة راكضة.

توقفت الشاحنات والسيارات في مدخل المخيّم ونزل الرجال والنساء، عساكر، أطباء وممرّضات، ألتقط بعضهم صورا وتحدّثوا مع الرجال ووزعوا الحلوى على الأطفال.

اقتربت من الحشد لأسمع ما يقولون. كان الرجال الذين يرتدون الأبيض يتحدثون بالانجليزية، و لم أكن أفهم سوى كلمة أو كلمتين في الهواء. سألتني امرأة بحيرة: «ماذا يقولون؟ ماذا يقولون؟» كانت تحمل

بين ذراعيها طفلا ضامر الوجه جزّ القرع شعره، قلت لطمأنتها. «إنّهم أطباء جاءوا لعلاجنا.» لكنّها واصلت التطلع: «ماذا يقولون؟»

كـــان هـــناك وسط الجنود رجل غريب، طويل ونحيف ورشيق يـــرتدى الـــرمادي. كان الآخرون بخوذات، في حين كان هو عاري الـــرأس، كان وجهه لطيفا، أحمر قليلا، وكان يميل برأسه جانبا لسماع مـــا يقوله الأطباء. فكّرت بأنّه مسؤول الأجانب، ودنوت لأراه أكثر. كنت أودّ أن أذهب إليه، أن أكلمه، أن أقول له إنّنا نعاني هنا، الأطفال الـــذين يموتـــون كلّ ليلة، الذين يدفنون صباحا في سفح الربوة، بكاء النـــساء اللائي يغمغمن من طرف المخيّم إلى طرفه، ويجب سدّ الآذان والجري إلى الربوة لتفادي سماعهن.

بدأ قلبـــي يخفق بسرعة إذ طفقوا يمشون في الشوارع مع الجنود، جـــريت نحوهم دون أن أخجل، رغم فستاني الممزق وشعري المشبك ووجهـــي المـــبقع بالأوساخ. لم يشاهدني الجنود في الحال لأنّهم كانوا يحرســـون الجوانب في حالة الهجوم عليهم. لكنّ الرجل الطويل الذي يرتدي ملابس فاتحة شاهدني، توقف عن السير وعيناه تحدقان فيّ، كأنّه يـــسألني. رأيـــت جـــيّدا وجهه الوديع الذي خضبته الشمس وشعره الفـــضي. أوقفني الجنود وأمسكوني، شدّوا على ذراعيّ بقوة وتألمت. أدركت أنّي لن أصل إلى المسؤول ولن أكلمّه، تظلّمت حينئذ بكل ما أملكـــه مـــن إنجليزية: «صباح الخير سيدي!صباح الخير سيدي!...» صحت بكل قواي متمنية أن يفهم من هذه الكلمات وحدها ما وددت قـــوله. غير أنّ الجنود أبعدوني ومرّ الفريق الذي يرتدي الأبيض برفقة الممرضـــات. الـــتفت المسؤول ونظر إليّ مبتسما، قال شيئا لم أفهمه، وأظنه ببساطة، «صباح الخير»، استأنف جميعهم السير معه، رأيته يبتعد عـــبر المخـــيّم بطيفه المنيف ورأسه المائل إلى الجنب قليلا، رجعت مع

الآخـــرين، النساء والأطفال، وكنت متعبة ممّا فعلته بحيث لم أشعر بألم الذراعين، ولا بعجزي عن عدم القدرة على قول شيء.

عـــدت إلى بيتنا. كانت عمّة حورية ممددة تحت الغطاء. لاحظت كـــيف كانـــت شاحبة وهزيلة. طلبت منّي إن كانت شاحنة التمويل وصلت أخيرا، قلت لها لطمأنتها إنّ الشاحنة أحضرت كل شيء، خبزا وزيـــتا وحليـــبا ولحمـــا مجففا، تحدّثت أيضا عن الأطباء والممرّضات والأدوية. قالت عمّة حورية: «رائع، رائع.» وبقيت ممدّدة على الأرض تحت الغطاء ورأسها مسند إلى الحجر.

قـــدم الممرض إلى المخيّم رغم زيارة الأطباء. لم يعد الأمر خاصا بالموت الخفيّ الذي يقضي على الأطفال الصغار والشيوخ ليلا، بذلك البرد الذي يدخل إلى أجساد أوهنهم ويطفئ حرارة الحياة. كان طاعونا يجـــوب مـــسالك المخيّم زارعا الموت في وضح النهار، في كلّ لحظة، وحتى بالنسبة إلى الأصحاء.

بـــدأ ذلك بالجرذان التي كنا نراها تموت في أزقة المخيّم والشمس في السمت، كأنّها طردت من أعماق الأجراف، كان الأطفال يلعبون بالجرذان الميتة في بداية الأمر. أمّا النساء فكنّ يجمعنها بعصا ويلقين بها. قالت عمّة حورية يجب حرقها، والحال أنّه لم يكن هناك بنـــزين، ولا خشب لتحضير محطبة.

خرجت الجرذان من كل الجهات. كنا نسمعها تركض ليلا على ســـقوف البيوت، وكانت براثنها تصرّ على صفائح الحديد والخشب. كـــذلك كانت تهرب من الموت. وإذ أذهب فجرا لإحضار ماء اليوم أجد حواشي البئر مكتظة بالجرذان الميتة، حتى الكلاب الضالة لا تقربها.

مـــات الأطفـــال أوّلا، أولئك الذين لعبوا بالجرذان. انتشرت الإشـــاعة في المخـــيّم لأنّ أطفـــالا، أشقاء الموتى أو أترابهم، كانوا

يركضون عبر المخيّم ويصرخون. كانت أصواهم الحادة تردّد كلمات مرعبة، عجيبة، هم أنفسهم لا يفهموها، كأسماء العفاريت: «**حبوبة!... كحولة!...**» كان صراخ الأطفال يصدي كأصوات العصافير المنكوبة في الهواء الجامد للظهيرة. خرجت في الشمس الحارقة ومشيت في ممرات المخيّم. لا أحد. يبدو كلّ شيء نائما، مع أنّ الموت في كل مكان. كان الناس متجمعين أمام بيت، ناحية الطرف الشمالي حيث القادمون الجدد، أثرياء القدس ويافا وحيفا الذين فرّوا من الحرب. كان هناك رجل مهندم مثل إنجليزي. إنّه طبيب أسنان حيفا. هو الذي استقبل الأطباء ومسؤول الأجانب في المخيّم. شاهدته مع الجنود. أبصرني لّما كنت أجري أمامهم محاولة أن أكلّم الرجل الذي بلباس فاتح.

كان واقفا أمام الباب وعلى وجهه منديل، وبقربه نساء منهارات، حجابهن على الفم والأنف وهنّ يبكين، كان في ظلّ البيت جسد طفل صغير ممددا على الأرض، على بشرة جزئه العلوي وبطنه آثار زرقمية، وعلى وجهه وراحتي يديه بقع مخيفة.

الشمس تسطع بقوة في السماء الصافية والحرارة ترج روابي الحجارة من حول المخيّم. أتذكر أنّي سرت بتؤدة في الأزقة، أسمع خفقان القلب فيما السكون يحيق بي تحت هذا الضوء الساطع، كأنّ الموت مسّ العالم كلّه.

الناس في بيوهم مختبئون في الظلّ، لا تسمع أصواهم، لكنّي كنت أعلم أنّ الطاعون أصاب، هنا أو هناك، أطفالا آخرين، نساء ورجالا تلهبهم الحمّى ويئنون بسبب الألم القادم من غددهم المنتفخة المتسيبة، تحت الزنود وفي الرقبة والأربية. فكرت في عمّة حورية، كنت متأكدة بأنّ العلامات ظهرت على جسدها، كنت اشعر بالغثيان ولم أستطع

الدخول رغم القيظ. تسلقت منحدر الحجارة إلى أعلى الربوة، إلى غاية قبر الشيخ ناس.

لا وجـــود للأطفال، و لم يكن البدوي في مخبأ الأغصان، لم يعد هـــناك أحد يترقب وصول شاحنة الغذاء، والحال أنّها قد لا تأتي أبدا، سيمحو الطاعون كل أحياء نور شمس. ربّما مسّ الأرض بأسرها، وباء أرســـلته الجن للناس بأمر من الله ليتوقفوا عن الحرب. وبعد ذلك، بعد أن يموت الجميع ويغطي العظام رمل الصحراء، ستعود الجنّ وتسود من جديد في القصر، على حديقة الجنة.

انتظـــرت طوال النهار في ظلّ الشجيرات المحترقة متمنية لا أدري مـــاذا، ربّمـــا تمنيت مجيء سعدي. لكنّه لم يعد يأتي إلى جهة القبر منذ إقامـــته قـــرب بيتنا، وإن ذهب فلعدة أيام، من أجل صيد الأرانب أو الحجـــل في جبال الشرق، أو في جهة الغرب، في بدوس، هناك حيث آثار قصر الجن، كما يروي، كما في ربوة طفولته.

لبثت طيلة النهار أترقب في أعلى الربوة طيف رجل أو طفل وأنا أستمع إلى أصوات النساء البعيدة.

نـــزلت قبل غروب الشمس بسبب الكلاب الضالة التي تأتي مع اللـــيل، لم تكـــن عمّة حورية هي المريضة في بيتنا المظلم، بل رومية، كانت ممدّدة على الأرض في غطائها وقد استبد بها الألم. نفخت الحمّى وجههـــا واحتقـــنت عيناها. كانت تتنفس سريعا محدثة صوتا مؤلما، وكانت قشعريرة ترج جسدها في شكل موجات. كانت عمّة حورية ســـاكتة بجوارها، تنظر إليها وهي ملفوفة في حجابها الأزرق. لم تكن المولـــودة هناك، أوكلتها عمّة حورية إلى جارة. ومثلما كنت أفعل في الجـــرف أثناء وضع حورية، كانت عمّة حورية تغطس قماشا في جرّة المـــاء وتعـــصره ببطء على جبهة المرأة، وكان الماء يسيل على شفتيها

ويبلل عنقها وشعرها. لم تعد عينا حورية تبصران. لم تعد تسمع، ولم تشعر بالماء الذي كان يسيل على شفتيها المتيبستين.

بقيت عمّة حورية هذه الليلة جالسة إلى جنب حورية، وفي الخارج كان البدر رائعا، وحده في كبد السماء الزرقاء المائلة نحو السواد. نمت خارجا حتى لا أسمع صوت النفس، ملفوفة في غطائي ورأسي مسند إلى حجر العتبة المسطح. وصل سعدي فجرا، أتى بالحجل والتمر البري، بدا طويلا جدا ونحيفا وهو يقف أمام باب البيت، وكان وجهه الأسود يلمع كالمعدن.

دخل سعدي إلى البيت ورصدتُ السكون كما في أزقة المخيّم. خرج سعدي، خطا خطوات قليلة وجلس قرب الباب منهكا من التعب. تناثرت الطيور الميتة والثمار في الغبار. دخلت إلي البيت. كانت عمّة حورية جالسة في المكان نفسه والقماش في يديها. رأيت في الظلّ جسد رومية، كان وجهها مقلوبا وعيناها مغمضتين وشعرها الأشقر مبلّلا على كتفيها. كانت تبدو نائمة، فكرت في وصولها إلى المخيّم منذ زمان بعيد، بدا لي بعيدا جدا.

إنّه سكون الموت، لم أشعر بأية دمعة في عينيّ. بيد أنّه كان موتا كما في الحرب، موت يثلج ما حولها، لم يتأثر وجه رومية بالألم، كان أبيض، بدائرتين حول العينين. لن أنسى ذلك أبدا. وإذ مكثت جامدة، واقفة قرب الباب، نظرت إليّ عمّة حورية، كانت نظرتها قاسية. قالت لي بصوت لم يحدث أبدا أن سمعته من قبل، صوت يشبه الغلّ «اذهبي، اذهبي من هنا. خذي البنت واذهبي. سنموت كلّنا.» أغمضت عينيها هي الأخرى، كما لو أنّها مقبلة على النوم. طأطأت حينها رأسي ومضيت.

جهّزت صرة في بيت جارتنا، وضعت فيها خبزا ودقيقا وأعواد ثقاب وعدة علب من حليب **كليم** للولا، وضعت فيها كذلك

كراريسي حيث كتبت حياتي كلّ يوم. ذاك فقط ما أخذته من المخيّم. حـــافظ ســـعدي على قنينة الماء جاهزة. ثم حزمت البنت بوشاح على ظهري، أخذت الصرة وخرجت من المخيّم باتجاه الطريق الذي تأتي منه شاحنات التموين.

كانت الشمس لا تزال في الأسفل، على مستوى الروابـــي، لكنّ الأفـــق بدا يرتعش، استدرت في لحظة ما لرؤية المخيّم. لم يعلّق سعدي الذي كان بجانبـــي، كانت نظرته ضيقة وحادة، وضع يده على عنقي وقادني في الطريق.

كانـــا يسيران يوميا من شروق الشمس إلى منتصف النهار باتجاه الجـــنوب، عـــبر التلال المتيبسة، وإذ نفد حليب كليم قالت نجمة يجب العـــثور على الحليب وإلاّ ماتت البنت. كان العساكر يحتلون طولكرم، ترقب سعدي طوال اليوم من أعلى شناخ، دون حراك، كما كان يفعل في أعلى ربوة الحجارة، قرب قبر الشيخ ناس. كانت عيناه ثاقبتين بحيث يمكنه رؤية الأسلاك الشائكة التي تسيّج المدينة، وحتى مراكز الرشاشات المخبأة تحت الحجارة. هناك من الجهة الأخرى للسكة الحديدية السوداء الـــتي تعـــبر حقولا خصبة، وبعيدا أيضا، أدخنة ميناء مخلّد ومدّ البحر الخافت الوهمي.

ذاك مـــا أحـــبّت نجمة سماعه لحظة رجوعه: البحر، بعيد، منيع. تمـــددت في ظلّ شجرة لتعطي الماء للولا في رضّاعة أذابت فيها الملاعق الأخـــيرة مـــن الحليب المسحوق. بدأت البنت تنوح بعد أن شربت، وذهب سعدي ثانية.

مكـــثت هـــناك قرب الشجرة ما تبقى من النهار، ثم طوال الليلة الـــباردة، ثم اليوم التالي وهي لا تكاد تتحرك، ماعدا لقضاء حاجتها، متـــنقلة مع ظلّ الشجرة. لم يبق سوى قليل من الماء المحلّى للولا، وقليل من بسكويت ماري. سنموت إن لم يعد سعدي.

كانـــت البـــنت تعاني العطش والحرارة، ورغم قطع القماش التي كانـــت تلّفها، فقد أحرقت الشمس بشرتها وانتفخت شفتاها، وحتى تهـــدئها غـــنت لها نجمة أغاني الطفولة، لكنّها لم تعد تتذكر الكلمات

جـــيّدا. مكـــثت معلقة، نظرها في الفراغ وهي تستمع إلى نفس لولا، صوت غريب في سكون الروابـــي.

أبصرت عدّة مرات أطيافا يمرون وخفق قلبها بقوة لأنّها ظنت أنّ سعدي هو الذي رجع، لكنّهم كانوا ناسا هاربين بدورهم إلى الجنوب، مـــرّوا دون أن تحدثهم قلوبهم بوجود نجمة، دون سماع لولا تتباكى في الظلام.

في اليوم التالي، وبعد أداء الصلاة وتمرير يدها على وجهها وعلى وجه البنت، لأنّها كانت تستعد للموت، وصل سعدي. جاء بهدوء إلى غاية الشجرة، وقال لنجمة: «تعالي وانظري.» كان صوته نافد الصبر. ساعد نجمة على المشي: «تعالي بسرعة.» رأت نجمة في الأسفل هيئتين واضحتين مربوطتين في شجيرة: عنـــزة وجديها. أحست بفرح عارم لم تشعر به منذ الطفولة، وجرت نحو الحيوانين اللذين انتفضا. سحبت العنـــــزة الحبل مقاومة وشرع الجدي في الجري بين الأدغال. وضعت نجمـــة البـــنت على الأرض واقتربت من العنـــزة حاملة في راحة يدها إحـــدى أواخـــر قطع البسكويت. حاولت نجمة حلب العنـــزة وقت هدوئها، لكنّ يديها كانتا واهنتين.

البدوي هو من حلب العنـــزة في صحن معدني. كانت الحلمات المنـــتفخة تقـــذف حليـــبا خثرا عطرا. أفرغت نجمة في الحال الحليب الـــساخن في الرضّـــاعة وقدّمتها للولا، شربت البنت دون استرجاع الأنفاس، ثم نامت، أرقدتها نجمة أمام جذع الشجرة. بقيّ هناك حليب. شـــرب سعدي أوّلا، وشربت نجمة مباشرة من الصحن. كان الحليب الدافئ المالح يجري في حلقها ناشرا الحرارة في أعماقها. «جيّد». لأوّل مرّة تستعيد نجمة الأمل. قالت لنفسها بصوت خفيض: «لن نموت الآن أبدا»، ونظر إليها سعدي دون أن يردّ.

سقط الليل وناما على الأرض ولولا بينهما. كانت نجمة تستمع لـيلا إلى الجدي الذي يتعثر في الحجارة، ثم سمعت ضربات الرأس وهو يرضع أمّه.

كانت النجوم تشع في السماء المعتمة. مرّ وقت طويل دون أن تنظر إليها نجمة. كانت جميلة في جهة الجنوب، ليست تلك التي تشعّ في أعلى المخيّم.

جاء البرد، أخذت نجمة يد البدوي فانتقل إلى جوارها متخطيا جسد البنت النائمة. أحست نجمة باهتزاز حياته، رائحته ورأسها مسند إلى صدره. بقيا وقتا طويلا بلا حراك وعيونهما مفتوحة في الظلام. نمت الرغبة في جسد الولد وفكّ أزرار لباسه. أحست نجمة بدوار وبدأت ترتعش. سألها سعدي دون تهكّم، وبلطف: «هل خفت؟» التحمت به وأحاطته بذراعيها ورجليها ضاغطة عليه بصدرها. تصاعد نفسها كما لو أنّها ركضت، لم تخطر ببالها أفكار أخرى، ماعدا الليل البارد في الخارج، والنجوم اللامعة والجسد الحار لسعدي، وذكره الذي يلجها ويفض بكارتها.

سارا يوميا، أبعد قليلا، باتجاه الجنوب عبر الروابي، كانا يشاهدان من حين إلى آخر البحر المعتّم، ثم صعدا مجاري الأنهار المتيبسة، إلى جمّال. وكانت العنزة والجدي يتعقبانهما، يشربان ماء الآبار نفسها، يأكلان الجذور نفسها. يشربان كل مساء، بعد أن تشبع لـولا، الحليب الدافئ الذي يمنحهما قوة. وضّح سعدي لنجمة كيف يجب عصر الحلمات المنتفخة ليتدفق الحليب.

كانا يأكلان ثمار الآس والقطلب، لا يدخلان إلى المدن خوفا من العساكر. الحرب في كل مكان ودويّ المدافع يقصف كالرعد، لكنّهما لا يشاهدان المعارك. هناك في بعض الجهات بيوت خربة، هياكل

عظمـــية لأحصنة وحمير، ثقوب القذائف في الأرض. وإذ اقتربا في أحد الأيـــام من عزون، في الجبل، كان هناك صوت مرعب في السماء. بقيّ سعدي ونجمة جامدين، في حين تقدمت الطائرات، وكان ظلّها يجري على الأرض. عبرت الكوكبة السماء ببطء راسمة نصف دائرة، وبدت نجمـــة وســـعدي مْركزا. هربت في تلك الآونة العنـــزة وصغيرها عبر الأدغـــال لّما اختفت الطائرات خلف الأفق. كانت ترتعد بقوة بحيث جلست على الأرض وهي تضمّ البنت التي كانت تبكي، قال سعدي: «لاشيء»، «إنّها ذاهبة نحو الجنوب»، إلى أورشليم. بيد أنّه لم يرها عن قـــرب أبدا. جرى للّحاق بالعنـــزة، وحتّى يمسك بالحبل كان عليه أن يتحايل ويقابل الريح، كما لو أنّه يصطاد أرنبا.

ثم ســـارا باتجـــاه هوارة، نحو الشرق، إلى غاية المساء. وصلا إلى وادي عـــزون مـــع سقوط الليل واستقرّا على حافة النهر تحت أشجار الـــسنط. كـــان المـــساء ندّيا والريح تحفّ في الأوراق، وكانت هناك خفافيش في السماء، وبعيدا قليلا كان حقل زيتون يرسل رائحة زكية. هنا، مع ماء النار الذي يسيل ببطء، مع رائحة الشجر، صرير الريح في الـــسنط وأشجار النخيل القصيرة، ننسى الجوع، العطش، الحرب، كلّ ما يجعل النساء والأطفال يموتون، كلّ ما يطرد الناس من بيوهم، وهذا المـــرض الذي يخلّف علامات على أجساد المراهقين ووجوههم. المرض الذي أحرق جسد رومية. كانت نجمة تسمع صوت عمّة حورية وهي تردّد: «اذهبـــي! اذهبـــي من هنا. سنموت كلنا».

ذهـــب سعدي ليغتسل في النهر قبل الصلاة. استدار نحو المجيب، وادي طفولته ولامس رمل الشاطئ بجبهته. وإذ أظلم الليل، نـــزع كل ملابـــسه ودخـــل إلى النهر وسبح قليلا ضد التيار. التحقت به نجمة محافظـــة على سروالها، ضامة البنت إلى صدرها، ودخلت النهر. كان

الماء البارد يلفّها، يحدث تيارات في ظهرها. صرخت لولا، لكنّ نجمة كانت تحدّثها بهدوء وقد أثار فيها الماء رغبة في الضحك. كان النهر يلمع بين الضفاف السوداء تحت ضياء النجوم الخافتة، والريح تأتي في شكل هبوب، مصوّتتا في أوراق السنط.

كان سعدي قد حلب العنزة وقت خروج نجمة. أعطى الرضّاعة للولا، ثم شربا بالتداول في الصحن المعدني. كانت نجمة تريد إشعال النار لتتدفأ، لكنّ سعدي خشيّ لفت أنظار العساكر. أكلا ثمار الآس والتين البرّي وحبات زيتون مرّة. كانت البنت قد نامت ملفوفة في حجاب نجمة، في حفرة رمل.

نام سعدي ونجمة في ثيابهما، وكانا يستمعان إلى صرير الريح في أوراق السنط والانزلاق المستمر للماء في الوادي. مال سعدي على وجه نجمة ولمسه بشفتيه، ذاقت حرارة النفس، كحالة نشوة، ولمّا ولجها لم تشعر بالألم مجددا، ضغطت برجليها وذراعيها على جسده وطوّقت خصره بيديها، سمعت صوت النفس يزداد ودقات القلب ترتفع أكثر فأكثر.

استقرا للإقامة في أسفل الوادي، هناك حيث كوّن النهر حوضا من المياه الجوفية، أزرق كالبحر، الحوض الذي تلامسه الطيور، وكانت هناك على الضفاف أشجار الآس والطرفاء والزيتون البرّي. اكتشف سعدي في إحدى الروابي، في أعلى الوادي، آثار مزرعة، بعض الجدران العالية المبنية بالحجارة والآجر، وبقايا سقف متفحّم. أتلف الحريق المزرعة من كلّ جهة، إلى حدّ الزريبة. لم ترغب نجمة في الدخول. قالت إنّه منزل أموات. أغلق سعدي على العنزتين في الزريبة وبنى في الأسفل ملجأ من الأغصان، على حافة النهر.

كانت الأيام طويلة وجميلة هنا، في هذا الوادي. كانت نجمة تنظر صباحا إلى ضوء الشمس التي تولد في تقويرة الروابي، في أعلى ماء

الوادي. الماء يلمع كدرب من الشعل بين الضفاف التي لا تزال معتمة. تستضيء السماء وتخرج من الليل الروابي الحجرية. تمشي نجمة إلى الحوض وتترك لولا نائمة في الخمارات في أسفل المخبأ، تغسل جسدها، وجهها وشعرها وهي مستديرة نحو الشمس. تشعل النار، بعد الصلاة بالأغصان اليابسة التي يحضرها سعدي. تسلقُ في قصعة المعسكر لحية التيس البيضاء، الجزر البري وجذورا أخرى لا تعرفها نجمة، حامضة ومرّة. لا يوقدان النار إلاّ فجرا لأنّ سعدي يؤكد أنّ الطائرات لا تستطيع رؤيتهما بسبب الضباب.

فكرت نجمة بأنّ الحرب قد تكون انتهت ومات الجميع في مخيّمات طولكرم ونور شمس، وربّما عاد العساكر من حيث أتوا.

لّما انتهت لولا من شرب رضّاعتها مكثت نجمة إلى جانبها تحت ظلّ شجر الطرفاء وهي تنظر إلى الماء يسيل في الحوض العميق. لم تعرف هذا الهناء منذ وقت طويل. يمكنها أن تحلم بعينين نصف مغمضتين بحركة الماء على الصخور، بأصوات النوارس وقت مجيء قوارب الصيادين نحو مُكسر الأمواج.

كان سعدي يبحث عن الغذاء حافي القدمين، مرتديا كساءه القطني، مغطيّا الوجه والشعر بالنقاب الأبيض الطويل وهو يجوب الروابي بحثا عن الجذور وثمار الريحان.

عثر مرّة، في شجرة سنط، على خلية نحل معلّقة في الأغصان مثل فاكهة الشمس. أشعل النار بالأوراق الجافة إلى أن أخرج الدخانُ النحلَ. تسلّق حينها الشجرة وفلق الخلية لأخذ أقراص العسل. أكلت نجمة بلذة العسل الصافي الممزوج بالنخروب، وحتى لولا امتصت الأقراص.

مرّت الأيام هكذا، من شروق الشمس إلى غروبها، مع خرير النهر الرتيب، صراخ لولا ودموعها والثغاء العذب للعنزة والجدي. سعدي

يـــنادي نجمة: «زوجتي» وكان ذلك يضحكها. كانت لا تضاجع إلاّ مـــساء في أغلب الأحيان، عندما ينتهي كل شيء. يستدير سعدي نحو الليل لذكر الله، ثم يأتي للجلوس بالقرب من نجمة، يتحدثان في الوقت الذي تكون نجمة نائمة.

كمـــا لـــو أن لا أحد يعيش في العالم، كما لو أنّهما الأولان، أو الأخـــيران، الأمـــر سيّان، تظهر الخفافيش في السماء، تلامس بدورها حـــوض المـــاء الجوفي لتصطاد الناموس. يشرب سعدي ونجمة حليب العنـــــزة الفاتر، يغطسان شفتيهما في الصحن المعدني بالتناوب. تلمع الـــنجوم أمامهمـــا في تقويرة الروابـــي، وتشرع ريح الليل الباردة في التصويت في أوراق أشجار الطرفاء.

وإذ يـــصبح الجـــوّ باردا فعلا فيما بعد، ينحني سعدي ببطء على شفتي نجمة. كانت لحظة من التأجج بحيث بدا لها أنّها لم تعش أبدا إلاّ مـــن أجـــل هذا. لمّا يتحد جسداهما، عندما يختلط نفسهما وعرقهما ويختفي كلّ شيء من حولهما، وإذ تحس نجمة لاحقا بالنعاس يخدّر كل حواســـها، ينشد سعدي بصوت يكاد يكون خفيضا، وقريبا جدّا من أذنهـــا، قـــصيدة، أغنية تتحدث عن واده المولدي، عن أبيه وأمه، عن إخـــوته وعـــن القطعان التي كان يسوقها نحو الوادي أين يجري النهر الكبير. يغنيها لها، وله أيضا، ثم ينام بدوره ملفوفا في معطفه.

أيقظهمـــا في أحد الليالي ناس كانوا يقتربون منهم: ظلال تسير علـــى حافـــة النهر وتتوقف أمام الحوض. كان سعدي حذرا، مستعدا للـــدفاع. سمعا وقتئذ أطفالا يبكون، كانوا فارّين مثلهما، يمشون ليلا ويختبئون نهارا. ذهبت نجمة إلى النهر ليلا حاملة لولا في حجابها ورأت القـــادمين: لم يكن هناك سوى نساء وأطفال جاءوا من مخيّمات عتيل، طولكـــرم، مـــن قلنـــسوة، أو مـــن المـــدن الساحلية، من يافا ومخلد

والطنطورة. حكت النسوة أشياء مرعبة عن القرى المخرّبة، المحترقة، والحيوانات التي قتلت، والرجال الذين سجنوا أو فرّوا إلى الجبال، والنساء والأطفال الذين يمشون في الدروب حاملين حزم الأغذية على رؤوسهم.

أمّا من كانوا محظوظين فقد ركبوا الحافلات للذهاب إلى العراق. كان العساكر في كل مكان. يجوبون الطرق في المدرّعات ويذهبون إلى القدس، وأبعد أيضا، إلى البحيرة المالحة. كانت النساء ينغّمن، يردّدن أسماء أبنائهن الذين قتلوا. سألت بعضهن سعدي: «وأنت؟ لماذا لم تذهب إلى المعركة؟ لماذا تهرب مع النساء عوضا عن حمل بندقيتك؟» لم يجب سعدي، وإذ أبصرن نجمة تحمل صبية تخلين عن قدحهن. «هل هو ابنك؟» سحبن الحجاب ولاحظن أنّها بنت، كذبت نجمة: «إنّها ابنتي الأولى، اسمها لولا، أوّل مرّة.»

انفجرت النسوة ضحكا. «أنجبت هذه البنت بمجرّد أن نمت معه لأوّل مرّة!» رغب سعدي في الرحيل. قال سيأتي آخرون، سيأتي العساكر. قال ذلك بهدوء، كان يرى الرحيل طبيعيا. مذ كان صغيرا وهو يحزم أمتعته ويمشي في الصحراء خلف القطعان، لكنّ نجمة نظرت بحزن إلى كل الجهات. كانت المنطقة الوحيدة التي استطاعت العيش فيها دون التفكير في الحرب، كما في عكّة في ما مضى، تحت الأسوار حيث لا حاجة لها بالمستقبل.

رحلا مع شروق الشمس يسوقان أمامهما العنزة والجدي ويصعدان الوادي إلى أن يغدوّ النهر سيلا من الماء الصافي الذي يجري في الصخور، وإذ وصلا ذات صباح إلى قمّة جبل، قريبا من هوارة، دلّها سعدي على ظلّ أخضر في الأفق: «إنّه الغور، النهر الكبير.» ولتفادي الأجراف سلكا طريق الجنوب، نحو ياسوف، بوبلان،

وجلجولية، ثم نحو الشروق من جديد، إلى مجدل. كان سعدي ينظر إلى الوادي الكبير قلقا. هناك سحب من الغبار تملأ الفضاء. «لقد وصل العساكر سلفا.» لكنّ نجمة لا تستطيع رؤيتهم. الرّمد يشوّش بصرها، وكانت من التعب بحيث نامت على الأرض دون أن تسمع بكاء البنت.

ناما في خرائب سمرا، قبل النزول باتجاه النهر. لاحظ سعدي، عندما استيقظ صباحا، بأنّ الجدي مات، وكانت العنزة واقفة بجانبه وتدفعه بقرنيها، دون أن تفهم. حفر سعدي ثقبا في الأرض ودفن الجدي، وحتى لا تنبشه الكلاب الضالة وضع على القبر حجارة من الأثر الروماني، ثم حلب العنزة، لكنّ حلماتها المفلّعة لم تمنح سوى قليل من الحليب الممزوج بالدم.

وصلا إلى النهر الكبير قبل المساء. الماء المتوحل يسيل في الوادي، نحو أريحا، في الحدود. التقيا في الغسق بهاربين آخرين. كانوا رجالا، هذه المرّة، وقد قدموا من عمّان. كانوا هزيلين، محروقين، بثياب بالية، وكان بعضهم يمشي حافي القدمين. تحدّثوا عن المخيّمات حيث يموت الناس من الجوع والحمّى. الأطفال يموتون بعدد كبير، وكان عليهم الإلقاء بجثثهم في القنوات المتيبسة، أما الذين لهم الجاه فإنّهم ذهبوا نحو الشمال، نحو البلد الأبيض، لبنان، ونحو سوريا.

عبر سعدي ونجمة النهر قبل الليل، عبر جسر يحرسه جنود الملك عبد الله. مكثا طوال الليل على حافة النهر. كانت الحرارة ديماسية، وكانت هناك نار تحرق الأعماق. شاهدت نجمة بحر لوط لأول مرّة، البحيرة الكبيرة المالحة، وفوق الماء سحب عجيبة تتجه ببطء نحو الأجراف. وهناك قرب الضفة زبد أصفر في شكل حاجز يهتز في الريح. نظرت نجمة إلى البحر بعينيها الملتهبين.

لم تكن الشمس قد ارتفعت إلى السماء، لكنّ هبوب الريح كان ساخنا. دلّها سعدي على الجبال التي غطاها الضباب، باتجاه الجنوب. «إنّه المجيب، وادي طفولتي.» كانت ثيابه مزقا وقد أدمت الحجارة قدميه الحافيتين وجففت الشمس وجهه الذي تحت النقاب وسوّدته. نظر إلى نجمة وإلى لولا التي كانت تئن ووجهها ملتصق بالحجاب بحثا عن ثدي ترضعه. «لن نصل إلى المجيب أبدا، لن نشاهد قصر الجنّ أبدا. ربّما رحلت هي الأخرى.» قال ذلك بصوته الهادئ، لكنّ الدموع كانت تجري من عينيه وترسم خطوطا على خدّيه وتبلل طرف النقاب المغبر.

شرعت النسوة والأطفال في عبور الجسر. كان الفارون يسيرون في الطريق باتجاه الشروق، نحو مخيّمات عمّان، ووادي السر، مداسا وجبل حسين، وكان الغبار من تحت أرجلهم سحابة رمادية تدوّم في الريح. كانت الشاحنات المغطاة تعبر الطريق من حين إلى حين بأضوائها المشتعلة. ربط سعدي حبل العنزة إلى مرفقه ووضع يده اليمنى حول كتفي زوجته وشرعا معا يسيران في طريق عمّان. لقد وضعا خطاهما على خطى من سبقوهما. وكانت الشمس تسطع عاليا في السماء، تسطع للجميع، ولا حدّ للطريق.

ابن الشمس

رامات يوحانان، 1950

عثـــرت على أخي، يوحانان، ذاك الذي أعطانا لحم الخروف في الشاطئ أوّل مرّة. وجهه وديع جدا، له دائما نفس العينين الضاحكتين والشعر الأسود المجّعد كشعر الغجر. هو الذي دلّنا على الديار والمرابط والـــبرج والمخازن لّما دخلنا إلى الكيبوتز. سرت معه إلى حافة الحقول، رأيــت الـــبركة تلمع ما بين أشجار التفاح، على الربوة. هناك بيوت الدروز في الجهة الأخرى من السهل.

لا زال يـــوحانان لا يـــتحدث حاليا سوى المجرية وبعض الكلمات الإنجليـــزية، لكـــنّ ذلك لا أهمية له. كنّا نتحدث بالأيدي، أقرأ عينيه، لا أدري إن عـــرفنا. كان حيويّا وخفيفا، يجري عبر الأدغال، مع كلبه دائما. يقوم بلفّة ويعود نحوي لاهثا. يضحك مجانا. هو الذي كان راعيا، يذهب فجـــر كـــل يوم مع قطيع الماعز والأغنام. يأخذ الحيوانات ترعى في الجهة الأخرى من السهل، نحو الروابـــي. يتقلّد جرابا به خبز وفواكه، جبن وما أمكن شربه. يحدث أحيانا أن آتيه بوجبة ساخنة. أعبر مزارع التفاح، وإذ أصل إلى السهل أستمع إلى أصوات الخرفان لمعاينة القطيع.

دخلـــنا كيبوتـــز رامات يوحانان في مطلع الشتاء، كان جاك في المعركة، في الحدود السورية بناحية طبرية. يأتي في كل إجازة مع بعض الأصـــدقاء في **باكار** قديمة زرقاء محدّبة، ذات زجاج أمامي مكوكب. نـــذهب معـــا إلى البحر ونسير في شوارع حيفا، نتفحّص المحلات، أو نذهب إلى رأس كرمل ونظلّ جالسين تحت أشجار الصنوبر.

كانت الشمس تسطع على البحر، والريح تحدث صوتا في الرؤوس، وكانت هناك رائحة نسغ. يأتي معي في المساء إلى المخيّم، نستمع إلى الموسيقى، أسطوانات الجاز. يعزف يوحانان على الأكورديون في قاعة الأكل وهو جالس على مقعد في وسط القاعة. يجعل ضوء المصباح الكهربائي شعره لامعا، ترقص النساء رقصات عجيبة مسكرة. كنت أرقص مع جاك، أشرب من كأسه نبيذا أبيض وأسند رأسي إلى كتفه، ثم نذهب للسير خارجا، دون كلام. كان الليل صافيا، الأشجار تشعّ بهدوء، وكانت هناك خفافيش حول المصابيح. نمسك بأيدينا، مثل عاشقين، وكنت أحسّ بحرارته، برائحة جسده. لا يمكن أن أنساه. سنتزوج. قال جاك لا أهمية لذلك، مجرّد طقس لإرضاء أمّي. سنتزوج في الربيع عندما يعود من الجيش.

عندما تنتهي الإجازة يعود إلى الحدود في السيارة مع أصدقائه، لا يريد أن أذهب إلى هناك. يقول إنّ الأمر خطير جدا. أبقى عدّة أسابيع دون أن أراه. أتذكر رائحة جسده. نورة هي التي كانت تعيرنا غرفتها لممارسة الحب، ولم أكن أريد أن تعرف أمي، لم تسأل، لكنّي أظن أنّها كانت مرتابة.

كانت الليالي عذبة، بلون المخمل، وكنا نسمع أصوات الحشرات في كلّ مكان. تصل موسيقى الأكورديون في أمسيات السبت، في شكل نفحات، مثل نفس. كنت أضع أذني، بعد الجنس، على صدر جاك وأسمع نبضات قلبه. أظن أنّنا كنا طفلين، بعيدين جدا، حالمين جدا. ظننت كل ذلك أبديا، الليل الأزرق، غناء الحشرات، الموسيقى، حرارة جسدينا على فراش الميدان الضيق، النوم الذي يرفرف من حولنا، أو كنّا نتكلم وندخن السجائر. كان جاك يريد دراسة الطب في مونريال، أو ربّما في فانكوفر، سنذهب عندما ينهي جاك خدمته العسكرية. نتزوج ونرحل. كان الخمر يصيبنا بدوار.

الحقول شاسعة، يتمثل العمل في نـــزع براعم الشمندر للحفاظ على بـــرعم واحد في كل خمسة وعشرين سنتيمترا، الأطفال والبنات يشتغلون معـــا، يـــرتدون الـــسراويل نفسها وبزات الكتان الغليظ وينتعلون أحذية عـــسكرية ذات نعـــال سميكة. كانت الحقول مجمّدة جرّاء برد الصباح، وهـــناك بخـــار حليبـــــي يلتصق بالأشجار والروابـــي. نتقدم مقرفصين لنـــــزع بـــراعم الـــشمندر، ثم تصعد الشمس إلى الأفق وتصبح السماء شديدة الزرقة. كانت أخاديد الحقول مليئة بالعمال الذين يحدثون ضوضاء عصافير، ومن حين إلى آخر يتسرب أمامنا تحليق طيور الدوري.

تمكـــث إليـــزابيث في الحقل، تمّ تعيينها في البيّاضة لغسل ملابس العمل وتحضيرها، كانت تحس أنّها مسنة بحيث لا تستطيع البقاء خارجا طيلة النهار. أما بالنسبة إلى إستير فكان ذلك شاقا ورائعا. لم تتعب من الـــشعور بحـــرقة الشمس على وجهها، على يديها وعلى كتفيها، عبر قمـــاش القمـــيص. إنّهـــا تعمل مع نورة، تتقدمان بنفس الإيقاع عبر الأخاديد، تملآن الأكياس بالبراعم المقتلعة. كانتا تثرثران في بداية الأمر، تضحكان على مشيتهما كالبط، تتوقفان أحيانا للاستراحة، تجلسان في الطـــين وتشتركان في تدخين سيجارة، لكنّهما تكونان من التعب في نهايـــة النهار، بحيث لا تقدران على المشي، لا تطيق أرجلهما المخدّرة علـــى حملهما، تنهيان العمل وهما تجرجران نفسيهما. تدخل إستير إلى غـــرفتها حوالي الرابعة، تنام على سريرها في الوقت الذي تذهب أمها لتناول العشاء، ثم تستيقظ من جديد. إنّه الصباح، بداية يوم آخر.

تحمل في ذاتها حرقة الشمس. كان ذلك من أجل السنين الضائعة، السنين المنطفئة. نورة أيضا تحمل الحرقة إلى حدّ الجنون، تتمدّد على الأرض أحيانا، تربّع يديها وتغمض عينيها طويلا بحيث تضطر إستير إلى تحريكها، ترغمها على النهوض: «لا تفعلي هذا، ستمرضين.» تذهب إستير ونورة، عندما لا يكون هناك عمل لأخذ الغذاء إلى الراعي في جهة الروابي. يخرج يوحانان الهرمونيكا بمجرد رؤيتهما، ويبدأ في عزف نفس ألحان الأكورديون، رقصات مجرية. يصل أطفال القرية، ينزلون عبر تلال الحجارة ويقتربون بحياء. كانوا فقراء جدا، وكنا نرى بشرتهم السمراء من خلال ملابسهم الممزقة، كانوا يطمئنّون نوعا ما عند رؤية إستير ونورة، ينزلون أكثر ويجلسون على الحجارة للاستماع إلى يوحانان وهو يعزف على الهرمونيكا.

تأخذ إستير الغذاء في الحقيبة، الخبز والتفاح والموز، تقدم لهم الفواكه وتقتسم الخبز، تدنو إستير من البنات، تتسلق إلى أن تصل، تحاول أن تكلمهن، بعض الكلمات العربية التي تعلّمتها في المخيّم: **خبز، أعطاني، كل!** كان ذلك يضحك الأطفال فيعيدون الكلمات نفسها، كما لو أنّها بلغة أخرى مجهولة.

ثم جاء رجال كانوا يرتدون كساء الدروز الطويل الأبيض، معتمرين منديلا أبيض يخفق على القفا، مكثوا في الأعلى، في خط الروابي، وكانت أطيافهم تنطلق نحو السماء كعصافير. توقف يوحانان عن العزف وأومأ لهم أن يأتوا، لكنّ الرجال لم يقتربوا. اجترأت إستير على الصعود إلى حدّ الصخور، أتت بالخبز والفواكه التي قدّمت للنساء. كان هناك صمت مرعب. قدّمت الغذاء ونزلت من جديد بالقرب من نورة ويوحانان، كان الأطفال ينزلون في الأيام التالية بمجرّد وصول القطيع بالقرب من الرابية. نزلت معهم امرأة في

ســـنّ إستير تقريبا، وكانت ترتدي فستانا طويلا أزرق، وكان شعرها مـــشبوكا بخيوط مذهبة. قدمت إبريقا من الخمر. بللت إستير شفتيها، كـــان الخمر حديث العهد، خفيفا وحامضا نوعا ما، شرب يوحانان بدوره، وشربت نورة. ثم أخذت المرأة الإبريق وصعدت عبر الصخور إلى أعلـــى الرّبوة. لم يكن سوى هذا، السكون، نظرة الأطفال، مذاق الخمر في الفم وبريق الشمس، لأجل ذلك قالت إستير كل شيء دائم، كمـــا لو لم يكن هناك شيء من قبل، كما لو أنّ أباها سيظهر ويمشي بين الصخور في أعلى القرية.

عـــندما تقتـــرب الـــشمس من الأفق، باتجاه ضبابة البحر، يجمع يـــوحانان حـــيواناته، ينادي كلبه مصفّرا، يحمل عصاه، وتشرع الماعز والخرفان في السير إلى وسط الربوة، نحو البركة التي تشعّ بين الأشجار.

تذهب إستير أحيانا، مع أفول الشمس عصرا، للجلوس مع نورة في مزرعة شجر المحامي. كان ظلّ الأشجار نديا، وكانتا تمكثان هناك مطولا، تتجاذبان أطراف الحديث، وكانت إستير تنام أحيانا مسندة إلى رأسها خصر نورة. المزرعة على مرتفع بحيث نشاهد الوادي كله. وبعيدا، هناك الروابي المعتمة في جهة طبرية، والبقع السوداء للقرى العربية، وبعيدا أيضا، هناك الحدود حيث يحارب جاك. يحدث أحيانا أن نرى بريق مدافع الهاون، كوميض العاصفة، لكنّنا لم نكن نسمع الدويّ مطلقا.

نورة إيطالية، من ليفورنو، اختفى أبوها وأمها وأختها الصغرى، اقتادهم الفاشيون. كانت عند إحدى صديقاتها وقت مجيء الميليشيا. نجت أثناء الحرب ببقائها مختبئة في قبو: «إستير، انظري، هناك دم في كل مكان.» كانت تقول أشياء عجيبة، وكانت لها نظرة تائهة وتجعيدة محزنة من جهتي الفم. ترتدي الأسود مثل صقلية متى تخلت عن ثياب العمل. «هل ترين الدم الذي يسطع على الحجارة؟» تقتلع الحجارة المسطحة وتتسلى بإخراج العقارب التي تهرب على الأرض المغبرّة بحثا عن مخبأ آخر. تشدها نورة بين عسلوجين دون أن تؤلمها، تنظر إلى غدة السم المنتفخة والشوكة المنتصبة. تقول إنّها تستطيع ترويضها وتعليمها بعض الحيَل.

تشتغل في حقل الشمندر مع إستير، تكشف في الحين عن العناكب المختبئة تحت السيقان. تحملها بعشب، على مهل، وتطرحها

بعيدا حتى لا يؤذيها الآخرون. تترك العناكب تنسج خيوطها في غرفتها. كانت تُظهر نجوما رمادية غريبة تهتزّ في مجرى الهواء. استنفر جاك ذات يوم أثناء دخوله أوّل مرّة إلى غرفتها، أراد كنس الخيوط، لكنّ إستير صدّته: «لا يحق لك فعل هذا، إنّها صديقاتها.» ثم اعتاد جاك. يعتقد هذا الآخر بأنّ نورة مجنونة نوعا ما. بيد أنّ ذلك لا أهمية له. كان يقول: «مهما يكن من أمر يجب أن نكون مجانين قليلا لنفعل ما نفعله ها هنا.»

وإذ كانت نورة في العمل ذات يوم، تمّ طلاء الغرفة بأكملها بالأبيض الهلامي، من الأرض إلى السقف. سعرت نورة، وكانت تجوب المخيّم متذمرة، شاتمة من فعل ذلك، وكانت تبكي بسبب العناكب التي طردوها.

كان لإستير ونورة مخبأ في طرف العمارات، تحت خزان الماء. نورة هي التي عثرت على المخبأ، وكانت تلجأ إليه في الظهيرة وقت اشتداد الحرّ. وجدت نورة تحت الخزان المفتاح الذي يفتح الباب، غرفة كبيرة فارغة تضيئها كوّتان، ولا وجود لشيء آخر، ماعدا بعض الصناديق وأكياس الجوتة والحبال والقرب الخاوية، وكان الجوّ معتما هناك وباردا، كما في المغارة.

لا وجود لأيّ صوت، ما عدا خرير الماء الذي يجري في الأنابيب وقطرات الماء التي تنزل بانتظام في جهة ما. عثرت نورة على عقارب بيضاء، شفافة تقريبا، وأخرى سوداء كالحة. كانت تدلّ إستير على حلقات الذّيل التي تبيّن قوّة السّم. تقول إنّها أصبحت تسكن هنا مذ صبغوا غرفتها، تريد أن تمثل. تمشي تحت الخزان طولا وعرضا وتردد أشعارا بصوت مرتفع، كانت أشعارا تشبهها. قصائد حادة ومأساوية تترجمها لإستير، هتافات، نداءات. تقرأ قصائد لغارسيا لوركا،

لمايا كوفـــسكي، ثم تقرأ أبياتا بالإيطالية، مقاطع لدانتي وبترارك، مقاطع لبافيـــز، **يأتي الموت ويستولي على عينيك**. تستمع إليها إستير، كانت جمهورها الوحيد، وكانت نورة تقول: «هل تعرفين ما سيكون رائعا؟ الإتيان بالأطفال إلى هنا وسماعهم يغنون ويلعبون.»

كـــان هناك صمت ثقيل كالانتظار. انتهى. كانت إستير تريد أن يبقـــى كل شيء ممتلئا، أن لا يكون فراغ الذاكرة. نقلت قصائد حاييم ناحمان بياليك في كراسها الأسود، الكراس نفسه الذي كتبت فيه نجمة اسمها في طريق المنفى، وقرأت:

« أخي، أخي
اشفق على العينين السوداوين اللتين في أسفلنا،
لأنّنا متعبون، لأنّنا نقتسم الألم.
لم أعثر على ضوئي في دروس الحرية،
لم آخذه من أبـــي،
نهشته من لحمي،
جذمته من قلبـــي.»

كان منـــزل الأطفال في وسط الكيبوتز، وكانت قاعات الطعام تحـــلّ محـــلّ المدرسة. كانت طاولاتهم وكراسيهم على مقاسهم، لكنّ الحيطان عارية، مطلية بالأبيض الهلامي نفسه.

كان ذلك يتجاوزها. لم تعد نورة تحتمل البقاء وحدها في الخزّان مع خرير الماء، وهذا الضوء المعمي خارجا. تمشي خارجا في الأعشاب الطـــويلة الـــتي تنمو حول الخزّان، تبحث عن الثعابين، وكان وجهها الـــشاحب مـــضاء كقناع فوق فستانها الأسود. تلتقي بإستير دون أن تميـــزها. لقد ضاعت في عمق ذاكرتها. كانت في ليفورنو، أخذ رجال الميليـــشيا أختها فيرا. كانت تائهة كالمجنونة وتنادي هذا الاسم: «فيرا،

فـــيرا، أريـــد رؤيـــة فيرا فورا!» تذهب إلى بيت الأطفال، تدخل إلى الـــساحة، يبقى المعلم واقفا وجملته العبرية معلقة في السبورة السوداء. تجـــثو نـــورة أمـــام فتاة صغيرة وتضمها إليها، تخنقها بالقبل، تحدثها بالإيطالـــية إلى أن تنفجر البنت المرعوبة بالبكاء. تكتشف نورة فجأة مكان وجودها. تخجل وتعتذر بالفرنسية والإيطالية لأنّها لا تعرف لغة أخـــرى. تأخـــذها إســـتير من ذراعها وتقودها إلى الغرفة، ترقدها في ســـريرها بهدوء، مثل أخت. تجلس إستير على السرير بجانبها، دون أن تكلمهـــا. تنظـــر نورة إلى الأمام طولا، إلى الحائط الأبيض، ثم تنام في حينها.

كان هناك عيد الأنوار. انتظره الجميع. كان ذلك لأول مرّة، كما لو أنّ كل شيء سيصبح جديدا. كما لو أنّ كل شيء سيبدأ من جديد. تتذكر إستير أنّ أباها كان يقول ذلك، يجب أن نبدأ كل شيء من البداية. أرض الخراب، الأنقاض، السجون، الحقول اللعينة حيث مات الناس. غسل نور الشتاء كلّ شيء، برد الصباح عندما كنا نشعل الحنوكة، النار الجديدة مثل ولادة. تتذكر إستير أيضا سفر التكوين لّما اشتعلت النجوم في اليوم الثالث. تتذكر شعل الشموع في كنيسة فيستيونا.

كان جاك وقتئذ لا يزال معها، عليه الذهاب بعد الأعياد مباشرة. لكنّ إستير لا ترغب سماع هذا الحديث. بدأ جني الليمون الهندي. يشتغل جاك وإستير جنبا إلى جنب. المزرعة ضاجة بالأيدي التي تجني الفاكهة. كان صباحا رائعا. الشمس ملتهبة رغم برودة الهواء. عادا بعد الظهر إلى غرفة نورة وناما ملتصقين، مختلطي الأنفاس. قال جاك ببرودة: «سأذهب بعد قليل.» شعرت بالدموع تملأ عينيها. كان ذلك في أول يوم أشعلت الحنوكة.

تلك الليلة هي التي لن تنساها، قاعة الأكل مزدحمة بالناس، كانت هناك موسيقى، وكنا نشرب الخمر. جاءت الفتيات إليها وقلن لها بالإنجليزية: «متى ستتزوجين؟» كانت إستير مع نورة، ثملة لأول مرّة. شربت الاثنتان نبيذا أبيض من نفس القنينة. رقصت إستير دون أن تعرف من راقصت. شعرت بفراغ كبير ولم تعرف لماذا. لم يذهب

جـــاك إلى الحـــدود للمـــرّة الأولى. ربّما بسبب الشمس التي لفحت وجهيهما في المزرعة. كانت لحية جاك تلمع كالذهب.

كانـــت نـــورة تضحك، ثم أجهشت بالبكاء فجأة، بلا سبب. أحـــست بالغثيان، كل هذا النبيذ ودخان السجائر. رافقتها إستير مع إليزابيث إلى الخارج ليلا. ساعدتاها وهي تقيء، ثم ساعدتاها في المشي إلى الغرفة، لم تكن ترغب في البقاء وحدها. كانت خائفة. تتحدث عن إيطالـــيا وليفورنو، عن الأسماء التي اقتادت أختها فيرا. بلّلت إليزابيث قماشا ووضعته على جبهتها لتهدأ. نامت، لكنّ إستير لم ترد العودة إلى الحفل. ذهبت إليزابيث كي تنام وبدأت إستير تكتب رسالة تحت ضوء ســـراج اللـــيل الباهت، على السرير بالقرب من نورة. لم تكن تعرف بالـــضبط لمن تكتبها، إلى جاك أو إلى أبيها، وربّما إلى نجمة، في نفس الكراس الأسود الذي أخرجته في طريق الغبار، حيث كتبا اسميها.

كـــان ذلك صباحا عندما عرفت إستير لأوّل مرّة أنّها تنتظر مولودا، حـــتى قـــبل أن تعرف الدليل المادي، عرفت ذلك، أحست بذلك التوتر، بـــذلك الـــثقل في بطـــنها، شيء حدث و لم تستطع فهمه. سعادة، وهو كذلك، سعادة لم يحدث أن أحست بها من قبل. كان الوقت فجرا، نامت والباب مفتوح لتشتمّ نداوة الليل، أو ربّما بسبب رائحة الخمر التي تسرّبت إلى الغـــرفة وأغطـــية السرير. كانت إليزابيث لا تزال نائمة، بلا صوت. الوقت باكر ولاشيء يتحرك في المخيّم، ماعدا بعض عصافير الدوري التي كانـــت ترفرف بين الأشجار، وصياح الديك الذي يأتي من حين إلى آخر من جهة الكيبوتز، صياح أبحّ. كان كل شيء رماديا، جامدا، مشت إستير إلى الخزان، ثم تابعت طريقها إلى مزرعة أشجار المحامي، حافية القدمين في خفهـــا البدوي الذي اشترته مع جاك من سوق عكا. تسمع الأرض تصرّ تحـــت خطاهـــا، وكان النهار يطلع شيئا فشيئا كلّما تقدمت. هناك الآن ظلال، ظلال أشجار تبرز في قمم الروابـــي. العصافير تحلّق أمامها، أسراب من طيور الزرزور تحوّم في أعلى الحقول وتنـــزلق باتجاه البركة.

ابـــتدأت الأصـــوات تدريجـــيا، عرفتها إستير الواحد تلو الآخر. تـــصوّرت أنّهـــا لها، كما تعرض كلمات جملة من الأمام إلى الوراء، ضـــاربة بجذورها في أبعد الذكريات. تعرفها، لقد سمعتها دائما، كانت هـــناك وقـــت وجودها بنيس، أو في الجبل بروك بيليي وسان مارتان. صـــرير العـــصافير، ثغاء الخرفان والماعز في الإسطبل، أصوات النساء والأطفال، خرير مضخة الماء، اهتزازات المصفاة والمحركات الهوائية.

سمعت في لحظة ما، دون أن تراه، قطيع يوحانان يبتعد في المراعي، من جهة قرية الدروز، ثم الراعي الذي يفتح باب الزريبة ليأخذ الأبقار تشرب في البركة.

تابعت إستير المشي عبر الحقول، ظهرت الشمس في أعلى الروابي الحجرية، أضاءت قمم الأشجار وأوقدت انعكاسات حمراء على البركة. كانت هذه الشمس بداخلها، تلك النقطة الحارقة الحمراء التي لا تعرف اسمها.

فكّرت في جاك، لن تخبره، ليس الآن. لا تريد أن يتغير أيّ شيء. لا تريد أن يكون هناك أيّ كان. قبل أن يذهب جاك إلى الحدود قال إنّهما سيتزوجان هناك، لّما يكونان في كندا، وسيدرس الطبّ في الجامعة. لهذا لا تريد إستير الحديث عن شيء آخر، لا مع جاك ولا مع آخر. لم تكن تريد التفكير في المستقبل كثيرا.

كانت تمشي عبر الحقول التي لا تزال خالية، تذهب بعيدا إلى الروابي، بعيدا بحيث لا تسمع ضوضاء الناس، ولا أصوات القطيع. تتسلق في وسط مزارع أشجار المحامي. الشمس الآن في الأعلى، تضيء البركة وقنوات الريّ. وبعيدا جدا، في الجنوب، كان هناك الشكل المقبب لرأس الكرمل، في أعلى سحابة البحر. لم يحدث أبدا أن وهبت الطبيعة لإستير شيئا كهذا، كانت واسعة جدا وصافية، واهنة جدا وقديمة. لم تنظر إستير بعينيها، بل بعيون كل أولئك الذين حلموا بها، أولئك الذين انطفأت عيونهم على هذا الأمل، عيون الأطفال الذين ضاعوا في وادي ستورا، أولئك الذين اقتيدوا في قاطرات بلا نوافذ. خليج حيفا، آكو، الكرمل، خط الروابي الباهت كما رأته إستير وإليزابيث ينبثق من الأفق أمام جؤجؤ **الإخوة السبعة** منذ أمد بعيد.

هناك شيء ما ينمو بداخلها، ينتفخ في بطن إستير، يعيش فيها، لا تعـرفه ولا يمكن أن تعرفه، كان قويا جدًا، ترتعد بسببه. لم تعد قادرة على المشي، جلست على حجر في ظلّ شجرة وتنفست ببطء.

يـأتي ذلـك من النؤى، كانت مخترَقة. تتذكر كلمات جويل في سـجن تولون، كلمات اللغة الغريبة التي تجري في حلقه وتملأ جسده. تمـنت لـو أنّها التقت الآن بكل واحد منهم على هذه الأرض، تحت الـشمس. تتذكر عندما لامست إليزابيث هذه الأرض أوّل مرّة، رمل الشاطئ، عندما قدمتا في السفينة بلباس وسخ، مبلل بملح البحر، وبصرر الملابس القديمة.

شـرعت في المشي من جديد، خرجت من المزرعة وتقدمت في وسط الأدغال، كانت بعيدة عن الكيبوتز، في حقل العقارب والثعابين. أحـست بالخـوف فجـأة. كان ذلك كما في المرّة السابقة في طريق روكبيلـيير لـمّـا أحسّت بالموت يحطّ على أبيها، وبالفراغ الذي انفتح أمامها، يوم ركضت إلى أن أصبحت غير قادرة على التنفس.

شرعت إستير في الجري، كان وقع خطاها يصدي في الروابـي، وصـوت دمهـا في الصدغين، وخفقان القلب، كل شيء كان فارغا بغـرابة. بدت الحقول مهجورة والأخاديد المنتظمة تسطع بقسوة تحت ضـوء الـشمس، كآثار عالم تبدّد، ولم تكن في السماء طيور. وبعيدا قليلا تقاطعت إستير مع قطيع الماعز والخرفان. كانت البهائم متوقفة في عمـق أحد الأجراف، منتشرة على طول الحقل، تسلقت مجموعة من الماعـز المـنحدر وبدأت تأكل براعم الشمندر، وكان ثغائها الضعيف ينادي.

وإذ وصـلت إلى الكيبوتز رأت إستير الرّجال والنساء متجمعين أمام البيوت. لم يذهب الأطفال إلى المدرسة، وضعوا جسد يوحانان في

ظلّ العمارة المركزية، على إسمنت الرّصيف. رأت إستير وجهه الناصع البياض المنتكس إلى الخلف. كان ذراعاه مشدودين على طول الجسد، وكانت يداه مفتوحتين، وكان الضوء المنعكس على الحائط يلمّع عينيه وشعره الأسود. كان ذلك مرعبا، يبدو نائما في حرارة منتصف النهار، لـــيس إلاّ، وكانت هناك بقعة داكنة على قميصه، هناك حيث ضرب القاتل.

في الـــيوم نفـــسه علمت إستير بموت جاك الذي قتل في الحدود، قـــريبا مـــن بحيرة طبرية. لم تقل إستير أيّ شيء عندما جاء العساكر لإعلان الخبر. كانت عيناها جافتين. قالت في سرها ببرودة: هكذا، لن يعود، لن يرى ابنه.

مونريال، شارع نوتردام، شتاء 1966

أنظـــر مـــن خلال نافذة الشرفة الموصدة إلى الشارع الثابت. السماء والبياض، كأنّنا في أعلى المناطق المرتفعة للجوّ. الشارع مبقّع بالـــثلج. أرى علامات الأحواق التي تتعرّج، آثار الخطى. هناك قدام عمـــارتي، حديقة ذات أشجار عارية، منتصبة باتجاه السماء الشاحبة، في طرف هذه الحديقة خطا ميشال خطاه الأولى. لا تزال القمم بيضاء ناصعة. الغربان وحدها هي التي خلّفت آثارا. ثمة مرايا كبيرة عاكسة مقوّســـة على حافتي الطريق، تشكل ليلا غدرانا من الضوء الأصفر، السيارات متوقفة على طول الأرصفة المغطاة بالثلج. لم تتحرّك بعض السيارات منذ أيام، غطى الثلج المجمد سقوفها وزجاجها. يمكنني رؤية ســـيارة لولا التي تلفت بطاريتها في بداية الشتاء. كأنّها حطام أسره الجليد.

كانت أضواء السيارات الخلفية، في طرف الطريق، تشتعل عندما تـــضغط علـــى المكابح في مفترق الطرق. وكانت الحافلات البرتقالية والبيضاء تدور حول البستانة وتنـــزل مع الطريق باتجاه مفترق الطرق، هناك التقيت بلولا أوّل مرّة، كانت تتابع دروس المسرح، تنتظر مولودا هـــي الأخـــرى، لذلك تحدثنا. كنا نذهب يوم الأحد في سيارتها إلى لونغـــوي، أو إلى مقبرة مون-روايال لمشاهدة السناجب التي تسكن في القبور، كل هذا من البعد بحيث يبدو خياليا. الشقة الآن مفرغة، لم يبق سوى بعض الورق المقوّى، وبعض الكتب والزجاجات.

الـــرحيل صعب، لم أتوقع بأنّي خزّنت كلّ هذه الأشياء. استلزم ذلـــك الرّزم، الإهداء والبيع. كان هناك البارحة، في الساحة، بيع أمام بـــيت لولا. فيليب هو الذي نقل مع ميشال وزوي، ابنة لولا، الأواني، الأدوات المنـــزلية وأكداس الجغرافية القومية. كان هناك ما يشبه الحفل بعـــد البيع. شربنا قنينات جعّة ورقصنا، وكان فيليب يتحدث بصوت مـــرتفع نـــوعا ما. ذهب ميشال وزوي بسرعة، بدا عليهما نوع من الخجل، ذهبا ليلعبا البولنغ مع الأصدقاء.

إنّـــه الأحـــد، كان الثلج يسقط، أرادت لولا أن تعودا معا إلى المقبرة، كما كان الأطفال في الصغر. كان البرد شديدا. بحثنا كثيرا و لم نعثر على السناجب التي تسكن في القبور.

العودة صعبة. أنظر إلى الطريق بانتباه مؤلم لأسجل في ذاكرتي كلّ تفـــصيل. وجهـــي قريب جدّا من الزجاج بحيث أشعر ببرودة جبهتي، وبنفسي الذي رسم دائرتين من البخار. الطريق لا يحدّه حدّ. نـــزلت مـــع الأشـــجار غـــير المتناهية وعمارات الآجر الصاعدة إلى السماء الـــشاحبة، كأنّه يمكن ركوب أية حافلة للوصول إلى هناك، إلى الجهة الأخرى من المحيط، إلى أمي إليزابيث.

وجه ترستان هو الذي يتراءى لي الآن وأنا على أهبة الرّحيل، وجهه الوديـــع جـــدا، كـــوجه طفل، كما رأيته في الضوء الباهت عند أشجار القـــسطل بـــسان مارتـــان يوم بدأنا هيامنا عبر الجبال. قبل أكثر من سنة عـــرفت أنّ ترستان في هذا البلد، يبدو أنّه يشتغل في تورنتو، في صناعة أو في فندقة، لم أفهم جيّدا. تحدّث عنه أحدهم مع فليب، رقم هاتف مخربش على علبة كبريت، فكرت فيه لحظة ثم ضيّعت الرقم. نسيت.

أرى الآن مـــن جديـــد وجهه لحظة الذهاب، ولكنّه في الجانب الآخـــر من حياتي، إنّه المراهق الذي كان يستفزني لأنّني أصادفه في كلّ

الطرق التي أسلكها، وكنت أعاتبه لتجسسه عليّ. ليس رجل الأربعين سنة ذاك الذي أحبّ رؤيته، المتكرّش الأشيب، مع أشغاله في تورنتو، بل طفل سان مارتان، عندما لم يكن أيّ شيء قد تبدّل في مجرى العالم، لّما كان أبي وقتها هناك، واقفا على عتبة الباب وترستان يصافحه بوقار، أو في أسفل المضيق الهادر بماء السيل، يضغط ترستان بأذنه على صدري العاري ويستمع إلى نبضات قلبي، كأنّها أهمّ شيء في العالم. كيف حدث خراب كل هذا؟ أتألم في أعماقي، لا أستطيع أن أنسى.

العودة أسهل من الذهاب. أعود من أجل ميشال ليعثر أخيرا على أرضه وسمائه، ليكون أخيرا في بلده. أدركت فجأة أنّه في سنّي لّما ركبت سفينة **الإخوة السبعة**، الفرق الوحيد أنّ ذلك بالطائرة في يومنا هذا، تكفي ساعات قليلة لعبور الهوّة التي تفصلنا عن أرضنا. أنظر إلى هذا الشارع، أحس بالدوران. ظننت أنّ كل شيء بعيد جدا، يكاد يكون منيعا في ظلّ رحلة طويلة ومؤلمة كالموت. تصوّرت أنّ وصولي يستغرق حياتي كاملة. سيكون ذلك غدا، هاهنا. تماما في طرف هذا الشارع. في الجهة الأخرى من الملوّحة، هناك حيث الحافلات البرتقالية والبيضاء تدور ثم تختفي ما بين أجراف العمارات الحمراء.

أفكّر الآن فيها، نجمة، أختي ذات الجانبية الهندية والعينين الشاحبتين، هي التي لم ألتق بها إلا مرّة واحدة، مصادفة، في طريق سلوام، بالقرب من أورشليم. ولدت من سحابة غبار واختفت في سحابة غبار أخرى، فيما كانت الشاحنات تنقلنا إلى المدينة المقدسة. أتصوّر أحيانا أنّني أشعر بوزن يدها الخفيفة على ذراعي، أحس باستفسار نظرتها، أنظر إليها وهي تكتب اسمها ببطء، بالحروف اللاتينية في الصفحة الأولى من كراسها الأسود. اليقين الوحيد الذي أحتفظ به عن نجمة، بعد كلّ هذه السنين، في وسط الغبار الذي لفّها، هو هذا الكراس الأسود الذي كتبت فيه اسمي، أنا أيضا، كأنّما من أجل تحالف عجيب.

حلمت بهذا الكراس، رأيته ليلا مغطى بكتابة دقيقة، مدوّنة بقلم الرصاص نفسه الذي استعملناه بالتناوب. حلمت بأنّي أعرف تلك الكتابة، وأنّني أعرف ما كانت تقوله لي، لي وحدي، حكاية حبّ وهيام كان يمكن أن تكون حكايتي، حلمت بأنّ الكراس وصل إليّ، أو أنّ رسولا غريبا وضعه أمام باب شقتي في مونريال، كأولئك الأطفال الذين يتمّ هجرهم في زمان ديكنز.

اشتريت بدوري، وقتذاك، كراسا أسود وكتبت اسمها في الصفحة الأولى، نجمة. لكنّي دوّنت فيه حياتي، شيئا من حياتي اليومية، دراساتي في جامعة ميشال، صداقة لولا، لقائي ببرينيس اينبرج، حبّ فيليب، وكذا رسائل إليزابيث، انتظار العودة، الروابي الجميلة، رائحة

الأرض، ضـــوء البحـــر الأبـــيض المتوسط. كانت هي، كنت أنا. لا أعرف. سأعود في يوم ما إلى طريق سلوام، وسينفتح طريق الغبار وتأتي نجمـــة إليّ، ســـنتبادل كرّاسينا لإلغاء الزمن، لإطفاء الأوجاع وحرقة الأموات.

كـــان فيليب يسخر منّي. «تكتبين مذكراتك؟» ربّما اعتقد أنّها مجـــرد مذكـــرات فتاة متأخرة ذهنيا تدوّن علاقاها العاطفية وقضاياها الحميمة.

بحثت عن نجمة هنا. ترقبتها في هذا الطريق المثلوج. فتشت عنها بعينيّ في أروقة المشفى، مابين المسكينات اللائي يجئن من أجل العلاج. تتجلى واقفة أمامي في الأحلام، كما لو أنّها تفتح الباب، وكنت أشعر بالجاذبـــية نفسها، وبالغلّ ذاته. كانت تنظر إليّ، وأحس بلمسة يدها الخفـــيفة علـــى ذراعي. كان هناك السؤال ذاته في نظرها الشاحبة. لم يتبدل أيّ شيء فيها منذ لقائي ها. تلبس الفستان نفسه، السترة نفسها المغطـــاة بالغـــبار، الوشاح نفسه الذي يحجب وجهها نصفيا، وخاصة يـــديها، يديها الواسعتين المشققتين كأيدي فلاحة. كانت وحدها على الدوام. اختفت النساء والأطفال الذين كانوا يمشون بمحاذاها. جاءت من المنفى، من بلدان الجفاف والنسيان لتجلّي.

انكـــسرت بـــوفاة جاك و لم أعد أحلم. أخذتني إليزابيث إلي بيتها، كانت مقيمة في حيفا، في بناء مشرف على البحر، لم أكن أعرف أين أنا. همت في الطرق إلى غاية الشاطئ الذي نـــزلنا فيه منذ أمد بعيد. ألتقي في الطـــريق بالمرأة ذاها، طيف لا سنّ له. كانت ترتدي مزقا، وكان وجهها مـــستورا بقماش مبّقع بالغبار، تسير بخطى عملاقة لمحاذاة الينبوع، في هيئة عفـــريت والأطفـــال يرموها بالحجارة. أراها أحيانا جالسة قرب الحائط، مختبئة من الشمس، غير مبالية بحركة السيارات والشاحنات.

اقتــربت منها ذات يوم. أحببت قراءة عينيها، معرفة ضوء نجمة، وإذ دنــوت مــدّت إلي يــدها، يد نحيفة لامرأة مسنة، بأوردة ناتئة كالجــبال. ابــتعدت وقد أصابني دوار، بصقت عليّ المرأة ذات النظرة المعتوهة وهربت عبر ظلال الأزقة.

كــنت أشبه نورة، أرى الموت والدم في كل مكان. الوقت شتاء وقــد ألهبت الشمس الروابــي، ألهبت الشوارع، وكان في بطني هذا الثقل، كرة النار هذه. لم أعد أستطيع النوم ليلا، ينتفخ جفناي، وهناك ملــح في عيناي. لم أستطع أن أفهم، بدا لي أنّي مرتبطة بجاك أبعد من المــوت، بهذه الحياة التي وضعها فيّ. أكلّمه كما لو أنّه كان هنا، كأنّه يــستطيع أن ينتظر. تسمعني إليزابيث وتربّت على شعري، تظنّ ذلك حزنا. «ابك إستيرليتا، ستشعرين فيما بعد بأنّك أفضل.» لم أكن أودّ أن أحدثها عن الطفل.

أمــشي في الأزقــة نهارا بلا هدف. كانت لي هيئة المجنونة التي تتــسول ناحية السوق. ثم قمت بهذا الفعل الجنوني. ركبت في إحدى هــذه الــشاحنات التي تنقل العتاد والمئونة. أفلحت في إقناع الجنديين الشابين اللذين لا يزالان طفلين بأنّي ذاهبة لزيارة خطيبــي في الجبهة. ذهــبت إلى طبرية، وهناك بدأت أمشي في الروابــي، دون أن أعرف وجهتي، لأمشي على الأرض الذي توفي فيها جاك، ليس إلا.

الــشمس ملتهبة، أشعر بعبء الضوء على كتفيّ وعلى ظهري. تــسلّقت ردوم أشــجار الزيتون ومررت أمام المزارع المهجورة ذات الجــدران المخرّقة بالرصاص. لم تكن هناك أية ضوضاء، كما في طريق فيــستيونا حــيث كــنت أذهب لسبر الجبل الذي سيأتي منه أبــي. الــسكون والريح يجعلان قلبــي خافقا، وضوء الشمس يبهرني، لكنّي أستمر في المشي، في الجري عبر هذه الروابــي الساكنة.

رأيت في لحظة ما دبّابة متوقفة. لم تعد سوى هيكل نصف متفحم، بسلاسل ثبتتها الأرض، لكنّي خفت كثيرا و لم أجرؤ على التقدم. وصلت لاحقا إلى الممرات المتعرجة، كانت عبارة عن خنادق معززة بحطب أسطواني تنعطف في جنب الربوة، شبيهة بملتقى ممرّات غزاها العليق الشوكي. مشيت عبر الخنادق، ثم جلست على الحافة الناتئة ونظرت مطوّلا إلى جهة بحيرة طبرية.

هناك عثر عليّ العساكر. أخذوني إلى مركز القيادة لمساءلتي، لأنّهم اعتقدوا أنّي جاسوسة لفائدة السوريين، ثم أعادتني شاحنة إلى حيفا.

أعدّت إليزابيث كل شيء، بتّت في كلّ شيء. سأرحل إلى كندا، سأذهب إلى مونريال، إلى جامعة ماك جيل لدراسة الطب. ذاك ما كان يرغب فيه جاك بيرجي. قبلت بسبب الطفل. كان ذلك سرّي. كنت أتمنى أن يولد بعيدا، أن لا تعلم إليزابيث. أبحرت في نهاية مارس في **بروفيدانس**، سفينة نقل صغيرة كانت تأتي بمؤونة وأدوية الأمم المتحدة للاجئين العرب وتنقل المسافرين إلى مرسيليا. ركبت في مرسيليا **نيا هيلاس** التي تنقل المهاجرين إلى العالم الجديد.

ولـــدت شمسي في نهاية أيلول. حلمت بولادته في أرضي، هناك، في الضفة الأخرى من المحيط، في الشاطئ الذي نـــزلنا فيه أنا وإليزابيث بعـــد أن نقلتـــنا سفينة **الإخوة السبعة**. كانت شهور الحمل الأخيرة قاســـية. تـــوقفت عـــن الذهاب إلى الدروس وضاع السداسي. كان الأســـاتذة غـــير مبالين، ماعدا سلفادوري، أستاذ علم الأمراض، شيخ بـــشارب ونظارات دائرية صغيرة مثل غاندي. قال لي: ارجعي لاحقا بعـــد انقضاء الأمر. أخذ في الحسبان مشقتي، دون إجراء الامتحان من جديد.

لـــولا هي التي اعتنت بـــي كأخت، كانت هي الأخرى حاملا، لكنّ مولودها لن يأتي قبل عيد الفصح. كنا نتعاضد، نتبادل الحكايات، وكانـــت تسخر من هيئتي المكوّمة، كانت هي الأخرى وحيدة. ذهب خطيـــبها دون أن يتـــرك عنوانا. كنا نعيش جلّ الأوقات معا. تعلمني الـــيوغا. تقـــول إنّها مهمة لنا. التنفس، الدفع بالبطن، تربيع الرجلين، إغمـــاض العيـــنين والتأمل. كانت لولا غريبة، شجاعة وعصبية، ذات وجـــه طفـــولي وعيـــنين زرقاوين وشعر مجعد قليلا ولون شبيه بدمية هولـــندية، اسمها فان فالسون. لم أعرف أبدا لمّ أطلق عليها والدها هذا الاسم المكسيكي.

كـــنا نتحدث عن السماء. كانت ترغب في بنت، تحدّد الأسماء وتغيّـــر الترتيب يوميا، ليونورا، بيرجيت، رومين، ألبرتين، كريستينيا، كارلـــوتا، سونيا، ماريز، ماريك أومارت، زوّي، وتضيف دائما هيلين

بسببي. رأيت أنّ زوّي يناسبها جيّدا، خاصة إذا كانت تشبه أمّها. «وابنك؟» قررت أن يكون ولدا، شمسي. لكنّي تظاهرت بعدم التفكير فيه. خفت من المستقبل، لم أجرؤ أن أقول لها إنّه سيكون الشمس. قلت لها إن كان ولدا سيحمل اسم أبي ميشال. «وإن كانت بنتا»؟ «أنت التي ستسمينها.» لم تستفسر لولا مطلقا عن والد ابني. ربّما اعتقدت أنّي مثلها، أن رجلا هجرني. كنا نعرف أنّنا لن نلتقي مرّة أخرى.

سيكون ابن الشمس، دائما فيّ، مجبولا من لحمي ودمي، من أرضي وسمائي. ستحمله أمواج البحر إلى الشاطئ الرملي حيث غادرنا السفينة، حيث ولدنا. ستكون عظامه الحجارة البيضاء لرأس الكرمل، وصخور برج الزجاج والأرض الحمراء وروابي غاليلي لحمه، وسيكون دمه ماء السواقي، ماء الشلال في سان مارتان والماء الموحل في ستورا، ماء بئر نابلس الذي سقت به المسيح امرأة السّامرة. ستكون في جسده قوة الرعاة ومهارتهم، وفي عينيه تسطع شمس أورشليم.

كنت أحسّ بهذا من قبل، بهذا الحضور، بهذه القوة وأنا أهيم على وجهي في روابي رامات يوحانان، على أرض أشجار المحامي المعفرة. كما قطعة من شمس، ملتهبة جدا وصعبة الحمل. كيف يمكن أن يفهم الآخرون؟ كانت لهم عائلة وكان لهم مكان ولادة، مقبرة تمكّنهم رؤية أسماء أجدادهم، وكانت لهم ذكريات. أمّا أنا فلم أكن أملك إلاّ كرة في البطن وجب أن تظهر. لهذا أصاب بالدوار، أحسّ بالغثيان على الشفتين، بفراغ كبير يتجوّف بداخلي، بثقب ينفتح على عالم آخر، على حلم.

أتذكر كلمات الحاخام جويل في سجن تولون عندما كان يتحدث بلغته العجيبة عن خلق حواء. كانت الكلمات تهزني وأضغط

علـــى يد جاك ليشرح لي بسرعة. أشعر الآن بالقوة ذاتها في أعماقي. تعبر جسدي، كأنّ تلك الكلمات هي التي تحققت. تمرّ الجمل، وكانت هناك موجات تتقدم كأثر الريح في الماء.

لم أعـــد أعـــرف أيـــن أنا. قاعة العمل بالمشفى، الحيطان المطلية بالأصـــفر اللامـــع، النقالات المتحركة التي كانت النساء ممددة عليها، وهذا الباب البنّي المرعب الذي يصطفق في اتجاهين لمّا تصطحب القابلة نفساء، والسقف الذي بأعمدة النيون الستة التي تصرّ، والنوافذ الكبيرة المـــسيّجة، المطلـــة على الليل، السماء المكفهرة الوردية كبريق الثلج، وســـكون الـــبوادي الذي لا تتخلّله سوى أنّات النساء ووقع الخطى العجلانة في الرواق، على بلاط الغرانيت.

حلمـــت بأنّ الشمس ستشرق من الجهة الأخرى من العالم، على الـــشاطئ الفسيح الذي نـــزلنا فيه أنا وإليزابيث التي كانت بجانبـــي لمـــساعدتي وملامـــسة شـــعري، وكنت أسمع مدّ الموج المنـــزلق على الـــضفة، صـــياح النوارس وطيور البجع التي ترافق سفن الصيد فجرا. أغمض عيناي لأكون هناك. أشمّ رائحة البحر، أحسّ الملح على شفتيّ. أرى ضـــوء الفجر الصافي من خلال أهدابـــي، الضوء الذي يأتي من البحر أوّلا، ثم ينـــزلق بهدوء إلى الشاطئ.

كـــان جـــاك بصحبتي، أحس يده في يدي، أرى وجهه المضيء، النور الذهبـــي على شعره وعلى لحيته، لهذا كان ولدي ابن الشمس، بسبب لون شعره. أسمع صوته يترجم لي كلمات سفر التكوين، "**فأوقع الله سباتا على آدم فنام، فأخذ واحدة من أضلاعه وملأ مكانها لحما. وبنى الله الضلع التي أخذها من آدم امرأة، وأحضرها إلى آدم. فقال آدم: "هذه الآن عظم من عظامي ولحم من لحمي. هذه امرأة تدعى امرأة لأنّها من امرئ خلقت.**"

كانـــت تلك أطول ليلة في حياتي. كنت من التعب بحيث أنام في قاعـــة العمل مابين التشنجات. سألت القابلة: «متى يبدأ هذا؟» كنت محـــبطة، قبّلتني وقالت: «يا عزيزتي، لقد ابتدأ هذا.» كنت أعرف أنّ ابني سيولد مع شروق الشمس، كان ابنه، ستكون له قوّته وقوة أرضي، قـــوة البحـــر الـــذي أحبه وجماله. لازلنا نعبر ميناء ألون باتجاه أرض إسرائيل، وإذ أغمض عيناي أحسّ بالاهتزاز العذب للأمواج، أرى مدّ البحر المصقول فجرا لمّا يقترب جؤجؤ السفينة من الضفة، مع الصوت الأبـــحّ الذي يردد أغنية البلوز. ثم ابتدأ المولود يبرز، وأخذتني الأمواج إلى الـــشاطئ حـــيث نمت، بينما إليزابيث تحرس بالقرب من الأمتعة، وكان ذلك رائعا. جميلا جدا. تألّمت، لكنيّ سمعت هدير الأمواج على الـــرمل، تأخذني، انـــزلق على البحر الذي ينفتح، كان الشاطئ مضاء بالـــشمس لحظة الشروق، «تنفسي، ادفعي ادفعي ادفعي ادفعي.» كان صـــوت القابلـــة يصدي في سكون الشاطئ بشكل غريب، أتنفس، لا أصرخ. كانت الدموع في عينيّ، وبدا لي أنّ الموجات تعبر بطني. وولد ميشال. أعماني الضوء. لا أعرف من اصطحبني، لا أعرف ماذا جرى. نمـــت مطوّلا، راقدة على الشاطئ الواسع الأملس أين وصلت في آخر المطاف.

إليزابيث

نيس، صيف 1982، فندق الوحدة

ماتت البارحة إليزابيث، تلك التي كانت أمّي، وقد مضى على ذلك حين من الدهر، وسأنثر رمادها، وفق مشيئتها، في البحر الذي أحبّته، هذا المساء في الغسق، حين لن يكون هناك أحد على الشاطئ، ماعدا بعض الصيادين الجامدين في السد، المخدّرين في خمول المساء الحار. سأفعل ذلك بلا دموع، وأنا لا أكاد أحسّ بشيء. ثم سأمشي في الشوارع التي تحاذي البحر، تلك التي لها أسماء تنتهي بـ «إ» مثل ريبوتي، ماكاراني، فردي، ألكسندر ماري. سأشعر بالريح تأتي في مفترق الطرق في شكل نفحات، الرائحة التي أحبّتها دائما.

كانت الشمس لاهبة كلّ هذه الأسابيع، كلّ هذه الشهور، أتلفت الحرائق الروابي، وكانت السماء عجيبة، نصفها أزرق ونصفها معتم بالدخان كلّ مساء، وكان هناك مطر من الرماد على البحر.

في أرصفة المقاهي سياح ألمان، إيطاليون، أمريكيون، أرجنتينيون أو عرب. الناس يتحدثون بأصوات عالية، عالية جدا، وكانت النسوة معطّرات كثيرا، وثمة أزواج من الجنوسيين المصرادين، حاضنون، بحّارة يونانيون، قبرصيون، تونسيون، سوفييت. وكان هناك متسكعون **جرمانو-براتيون، ميشلو. جادتيون، بيتزائيون، فخذيون**، قوّادون. وكان هناك سمسارو الأوراق المالية، متقاعدو الشركة الوطنية للسكك الحديدية، فتيات ساهيات ذوات شعر مكلوَر، مراهقون مخدّرون حدّ

المـــوت. وكان هناك مستحمّون هولنديون ذوو لون أحمر فاقع، عمال قبائلـــيون، قدماء محاربين، حلاقون، سفراء، أصحاب مآرب، وزراء، ومن أيضا؟

أرى هذا العالم ولا أعرفه. لا أتحقق منه. كل هؤلاء الناس الذين في غـــدوّ ورواح، يـــتجاوزون، يتوقفون، يتخاطبون، يتلامسون، هذا الحـــشد الـــذي يتسرب عبر أخدود مثل بقية ثخينة. هناك خاصة وقع الخطـــى هـــذا، الأصـــوات الصاخبة رغم دويّ المحركات. للناس في هياكلهم نظرة قاسية، بعيدة، مثل صدى.

رحلـــت إليزابيث عام 1973 أثناء حرب صحراء سيناء، في تلك الـــسنة بالذات تزوجتُ فيليب وفتحت عيادة لطب الأطفال في شارع صـــاحب بـــتل أبـــيب، على مقربة من مسرح حابيما. كيف تركتها تـــرحل؟ كـــان عليّ أن أفهم أنّها مريضة من قبل، أنّها تعاني بصمت. كـــان السرطان يقرض بطنها، وكنت أحبّ أن أعيش بسرعة وبقوة، دون أن أحرز، ودون أن أتردد.

ذهبت إليزابيث وهي ترتدي الأسود، بحقيبتها الصغيرة، الحقيبة ذاتها الـــتي كانـــت معها حين وصلت في السفينة. حاولت استبقاءها، بيد أنّي كـــنت أعرف أنّ ذلك عديم الجدوى. حدّثتها عن مهنتي، عن فيليب، عن ميـــشال الذي سيحتاج إليها، كانت لها ابتسامة، حركة يد تقول لا داعي للمغـــالاة. وقالـــت: «لست أنا من يفتقدها. أنا التي سأفتقده.» وأردفت بغـــبطة متـــصنعة: «سيسافر لزيارتي متى شاء. سيبغي ذلك.» قالت وقت ركـــوبها في المطار، بهدوء مرعب جعل قلبـــي يخفق: «فهمت أنّي ذاهبة كي لا أرجع، سأرحل إلى الأبد.» أعرف الآن لماذا قالت ذلك.

أتقدم في شوارع هذه المدينة التي لا أعرفها. هنا عاش أبـــي وأمي شـــبابهما كلـــيّا. رأيت الثانوية التي درّس فيها التاريخ والجغرافيا، هذا

الـــسجن الرائع المبني بحجارة رمادية، بأبراجه الصغيرة وكوى حصونه ومصبّعاته المزيّنة بالرّماح الصغيرة. رأيت الزيتون الضامر الذي غرس في المرج الأخضر، رمزا للحرية. رأيت المزولة برموزها اللاتينية التي جعلتني أفكر في معادلات **بيكويك كلوب**. بحثت عن العمارة التي قطنها أبـــي وأمـــي، بـــشرفتها المطلـــة على النهر، لكنّ النهر امتلأ اليوم بمواقف السيارات والبنايات المتكلفة المشيّدة بالاسمنت المسلح. وليس بعيدا من هـــنا، ثمة فندق له اسم أحبّه، فندق الوحدة. حجزت غرفة صغيرة في اتجـــاه الـــساحة بسبب ضجيج حركة المرور. سمعت، وأنا ممددة على السرير الضيق، هديل الحمام وجلبة غامضة للمذياع وصراخ الأطفال. يبدو لي أنّي في أيّ مكان، في كلّ مكان، في اللامكان.

مرّت كلّ الأيام في هذه المدينة المجهولة في حرارة الحرائق. كل يوم يـــأتي بأخبار الحرب في لبنان وأخبار النيران التي تندلع في شمال أفريقيا، في إســـتريل وفي روابـــي الفار. كلّ يوم في غرفة المشفى الضيقة، أمام جسد أمي المنـــزوف النّاحل. أرى يوميا اقتراب زوالها، اختفائها. أسمع صـــوتها الهشّ، البعيد، أحس يدها في يدي. تتحدث عن الماضي، عن ميـــشال، نـــيس، أنتيب، تتحدث عن الأيام السعيدة، الجولات على شـــاطئ البحر، العطل في إيطاليا، في سيينا، في فلورنسا وروما. تحدّثني عـــن هـــذا، كأنّي كنت هناك في جهة ما، كأنّي كنت كبيرة آنذاك، صـــديقة أو أخـــتا يلتقي بها زوج مصادفة في فندق، على حافة بحيرة، تقاسمه لحظة السعادة، كنوع من التضييق، مطعم الإمارة، البحر الشديد الـــزرقة، الرعان التي تتقدم في الغسق. كنت هناك، معها، مع أبـــي، أكلت البطيخ، شربت النبيذ، سمعت موسيقى الأمواج وصياح النوارس. ينمحـــي الباقـــي لمّا تحدثني عن الإمارة وعن أيام الصيف التي أعقبت زفافهمـــا، كأنّي كنت هناك، أنا أيضا، وكأنّي رأيت وجهيهما اللذين

يضيئهما الشباب، كأنّي سمعت أصواهما، ضحكاهما المتواطئة. كانت تـــتكلم ويـــدها تضغط على يدي، كما ضغطت، بلا شك، على يد أبـــي عندما ركبا ذلك الزورق المنـــزلق على البحر المشعّ وهما محاطان بصياح النوارس المسكر.

غدا صوت إليزابيث أكثر فأكثر ضعفا بمرور الأيام، تقصّ الحكاية ذاهـــا، بـــلا نهاية، تذكر الأسماء نفسها، المدن نفسها، روما، نابولي، ودائما اسم الإمارة، كأنّه المكان الوحيد الذي لم تقع فيه الحرب. كان صوها من الضعف في الأيام الأخيرة، ما جعلني أنحني إلى حدود شفتيها وأشتمّ النفس الذي ينقل كلماها ومقاطع حياها.

أخـــرج يوميا من المشفى غسقا وأمشي في الشوارع عشوائيا وقد ألمّ برأسي الدوار، أسمع ذلك الاسم الذي يتردد بلا نهاية، إلى أن يصبح ملازما، الإمارة، الإمارة... أقرأ في الجريدة أخبار الحرائق التي تشتعل في كـــلّ الجبال وتلتهم غابات البلوط والصنوبر، في تولون، في فاينس، في دراجوينيا وفي مرتفعات تانورون، الحرائق التي تضيء بيروت المحتضرة.

كـــنت حينها أمشي ليلا في الشوارع الملتهبة، باحثة عن الظلال والذكـــريات، وكانـــت يد إليزابيث تضغط على يدي وصوهًا يغمغم كلمـــات غامضة، كلمات الحب التي كانت تردّدها على الشاطئ في الإمارة وهي ملتصقة بجسد أبـــي، الكلمات التي كانت تقولها له كسرّ من الأسرار، وكان البحر يبدو أجمل فأجمل، مليئا بألق الضوء، وكانت كل جملة تتقدم سرمديا نحو الشاطئ.

لم تعـــد قـــادرة على الكلام في الأيام الأخيرة، بيد أنّ الكلمات كانـــت في أعماقهـــا، تـــصل إلى الشفتين وتجعلني أنحني لالتقاطها مع الـــنفس، لأسمعهـــا مرّة أخرى، كلمات الحياة. أحدّثها حاليا لأنّها لا تستطيع القيام بذلك، أصبحت أحدّثها عن كل هذا، عن سيينا وروما

ونابولي والإمارة، كما لو أنّي كنت هناك، كما لو أنّي أنا التي أمسكت بيد أبي على الشاطئ ونظرت إلى الطيران المشتت للنوارس في السماء، خلف الأفق. كنت أضغط على يدها وأحدّثها محدّقة في وجهها، في صدرها الذي يهزّ غطاء السرير قليلا، ممسكة بيدها الممدودة لأعطيّها شيئا من قوّتي.

لم يعد هناك ماء وخبز في المدينة المحاصرة، ماعدا أضواء الحرائق المتموّجة، دويّ المدافع وأطياف الأطفال الهائمين في الخرائب، كان ذلك في أواخر أيام أغسطس لمّا كانت الجبال تحترق كليا في سان مكسيم.

كنت أرى ليلا، لحظة خروجي من المشفى، ألقا في السماء شبيها بغسق. احترقت سبعة هكتارات في الفار، وكان هناك طعم الرماد في الهواء والماء، وفي البحر أيضا. كانت سفن الشحن تبتعد عن المدينة الخربة شاحنة حمولة الناس. أسماؤهم الآن بداخلي، صول جيورجيوس، ألكيون، صول فرين، نيروس. كانوا متوجهين إلى قبرص، إلى عدن، إلى تونس وميناء السودان. يتقدمون في البحر المصقول، تكبر أمواج مخورهم وتموت على الضفاف والشطآن. ترافقهم النوارس الصغيرة البيضاء. تسألني الوجوه في متاهة الشوارع وتتأمّلني العيون. أرى النساء والأطفال يتحركون كالظلال في الأزقة الخربة، في صدوع مخيّمات اللاجئين، في صبرا وشاتيلا. تبتعد السفن، تتجه نحو طرف العالم الآخر، نحو الحدّ الآخر للبحر. تنزلق **الأطلنتس** ببطء بمحاذاة مصدّ الأمواج، تتقدم في البحر الأملس، في ريح العتمة الحارّة، شامخة وبيضاء مثل عمارة.

كانت تبحر نحو الشمال، نحو اليونان، وربّما باتجاه إيطاليا. وكنت أسبر البحر، بحر الرماد هذا، كأنّي سأراها في الضوء الخافت، الأضواء مشتعلة وهي تنسحب في مخرها وسط دوّامة النوارس.

كانـــت إليـــزابيث من الوهن بحيث لم تعد عيناها قادرتين على رؤيـــتي. أحـــدّثها مطـــوّلا، قريبة جدا من أذنها، أحس بخصلة شعرها الأشيب تلامس شفتيّ، أحاول ترديد الكلمات التي تحبّها، هذه الأسماء، نابولي، فلورنسا، الإمارة، لأنّ هذه الكلمات هي القادرة على الدخول إلى أعماقهـــا لتمتزج بدمها ونفسها. تحاول الممرّضات إبعادي، لكنّني أظـــلّ متشبثة بقضبان السرير ورأسي مسند إلى الوسادة نفسها، أنتظر، أتـــنفس وأعيش. كان الماء يجري في عروقها من خلال الأنبوب، قطرة فقطـــرة، وكانت كلماتي كتلك القطرات، تأتي الواحدة تلو الأخرى، غـــير محـــسوسة، خفيضة جدا، بطيئة جدا، الشمس، البحر، الصخور الـــسوداء، طيران العصافير، الإمارة، الإمارة... الأدوية، الحقن، العلاج القاســـي، المـــرعب، ويد إليزابيث التي تشبثت فجأة بيدي مع اشتداد الألم. الكلمـــات مـــرّة أخرى، مجدّدا، لربح الوقت، للبقاء قليلا أيضا، لعـــدم الرحيل، الشمس، الفواكه، النبيذ المتلألئ في الكؤوس، أطياف المراكب الصغيرة المنسلّة، مدينة الإمارة النائمة في صهد الظهيرة، نداوة أغطـــية الـــسرير تحت الجسد العاري، الظلّ الأزرق للنوافذ الموصدة. عـــرفت هـــذا بدوري، كنت هناك، مع أبـــي، مع أمّي، كنّا في ذلك الظلّ، في تلك النداوة، وفي لباب الفواكه. لم تكن هناك حرب أبدا، لم يحدث أن عكّر شيء شساعة البحر المصقول.

ماتـــت إليزابيث ليلا. أبصرت، إذ دخلت الغرفة، جسدها ممددا علـــى النقالة، ملفوفا في غطاء، ووجهها الأبيض جدا، الشاحب جدا، وتلك الابتسامة الهادئة التي لا تبدو واقعية. زال الألم مع زوال الحياة في أحـــشائها. نظرت إليها لحظة ثم ذهبت. لم أكن أشعر بشيء. ملأت الوثائـــق اللازمة وأخذتني سيارة أجرة إلى مركز حرق الجثث من أجل شعيرة الوفاة. حوّل الفرن، المسخن إلى ثمانمائة درجة، تلك التي كانت

أمـــي إلى ركام من الرّماد. ثم منحوني، مقابل دراهم، مرداسا حديديا بغطـــاء مُلـــولب وضعته في حمّالتي. مرّت سنوات وأنا في هذه المدينة، وخيّل إلي أنّني لن أستطيع مغادرتها أبدا.

تهـــت في الأيـــام التالية بحمّالتي في الحرارة الفولاذية للحرائق التي تحـــيط بالمديـــنة، لم أعرف ما كنت أريده. ربّما الظلال التي يلاحقها عمـــلاء الغيـــستابو في هـــذه المدينة، كل أولئك الذين حكموا عليهم بالإعـــدام وهم يختبئون في الأقبية وفي تخشيبة السقوف، أولئك الذين أسرهم الألمان في ربوة ستورا وسجنوهم في محتشد بورجو سان دالمازو، قريبا من المحطة، أولئك الذين رحلوا في قاطرات مصفحة وعبروا محطة نـــيس ليلا، وأكملوا رحلتهم باتجاه الشمال، نحو دراسيّ، وأبعد، نحو داخـــاو وأشويتز؟ مشيت في شوارع هذه المدينة والوجوه تطفو أمامي وقـــد أضاءها بريق المرايا العاكسة، ينحني عليّ ناس، يهمسون جملا في أذني، يـــضحك الشباب، يتقدمون عشوائيا، أولئك الذين حكم عليهم الـــوالي بالإعـــدام، معلنا عن نفي اليهود. كان أطفال ونساء مخيّمات اللاجـــئين ينظرون إلى السفن التي تبتعد في البحر الأملس، هناك على الـــشاطئ، في الجهة الأخرى من البحر، في حين تبدو المدينة جامدة في دمارها.

هـــنا، في هـــذه المدينة، الناس في غدوّ ورواح في الشوارع، أمام الـــواجهات المـــزدانة بالأضواء، غير آبهين، غائبون. يمرّون على الزوايا حـــيث علّق الأطفال الضحايا من الأعناق في أعمدة المصابيح، كما في عقافة القصّاب.

في اليوم الذي أعقب تواري إليزابيث في المحرقة، مشيت عبر ربوة ســيمياز، في شـــوارع هادئـــة تشعّ تحت الشمس، مع رائحة السّرو والعـــلاك. كانت ثمة قطط تجري بين السيارات وشحارير متغطرسة،

وكانــــت طـــيور الترغلّة ترقص فوق سقوف الدارات. اختفت حاليا رائحـــة الحدائـــق، وما عادت في السماء غيوم. لم أعرف عمّا كنت أبحـــث، مـــا كنت أحب رؤيته. كان هناك ما يشبه جرحا في القلب، أحببت رؤية الألم، فهم ما فاتني، ما قذفني إلى عالم آخر. خيّل إلي أنّي لـــو عثرت على أثر هذا الألم لاستطعت أخيرا أن أرحل، أن أنسى، أن أعـــيد حياتي مع ميشال، مع فيليب، الرجلين اللذين أحببتهما. أستطيع أخيرا السفر من جديد، الحديث، اكتشاف المناظر الطبيعية والوجوه، أن أكـــون في الـــزمن الحاضـــر، لديّ وقت قصير، إن لم أعثر على الألم سأكون قد ضيّعت الحقيقة، وسأستمر في الهيام.

مـــشيت خـــلال هذه الأيام عبر الحدائق، أمام العمارات الفاخرة المشرفة على البحر وحمّالتي على كتفي، إلى أن وصلت إلى بناية بيضاء شـــامخة، جميلة جدا وهادئة، تضيئها أشعة الشمس الأخيرة. تلك التي كـــنت أبغـــي رؤيتها، جميلة ومخيفة كقصر ملكيّ، محاطة بحديقة على الطـــراز الفرنـــسي، بحـــوض ماء هادئ تأتي طيور الحمام والشحارير لتـــشرب مـــنه. كيف لم أرها من قبل؟ كان هذا البيت مرئيا من كلّ نقـــاط المدينة، في طرف الطريق، بمنأى عن ضوضاء السيارات والعباد، كـــان هـــناك بيت أبيض، مهيب وخالد، ينظر باستمرار إلى الشمس ويتابع حركتها من طرف البحر إلى طرفه.

دنوت ببطء، بحذر، كأنّ الوقت لم يمض، كأنّ الموت والألم مازالا هنا، في الشقق الباذخة، في الحديقة المنسجمة، تحت الخمائل، خلف كل تمثال من تماثيل الجصّ، أمشي في الحدائق ببطء، أسمع الحصباء تصرّ تحت نعـــال الخفّين، أسمع في الملك الواسع صوتا يصدي بقسوة وجفاف، شبه مهـــدّد. فكرت في فندق **إكسلسيور** الذي أبصرته البارحة بالقرب من المحطـــة، بـــساتينه، واجهته الباروكية البيضاء، مدخله الكبير المزخرف بملائكـــة صغيرة من الجبس، كان اليهود يمرّون أمامه قبل التحقيق، لكنّ صـــوت الموت هو الذي يخيّم هنا، في سكون الملك الكبير وترفه، تحت نوافذ البيت الأبيض، رغم أصوات الترغلّة وصياح الشحارير.

أمـــشي، أسمـــع صوت والدي في مطبخ بيتنا بسان مارتان وهو يـــتحدث عـــن هذه الأقبية التي يعذب فيها الناس ويقتلون يوميا، هذه

الأقبـــية المخفـــية تحت البناية الفاخرة، وفي المساء، صراخ النساء تحت السياط، صراخ المعذبين الذين يختنقون في أجمة الحظيرة وفي الأحواض، ذلك الصياح الحاد الذي يتعذر عدم التمييز بينه وبين صياح الشحارير، وربّمـــا كان يجب سد الأذنين لمجانبة الفهم. أتقدم تحت نوافذ القصر، تلك النوافذ التي كان الضباط النازيون يطلون منها لمراقبة شوارع المدينة بالمـــنظار. أسمع أبـــي يذكر اسم البيت، المحبسة، هذا الاسم الذي لا معـــنى له لدى الآخرين، لا يعني سوى بذخ المنازل الفاخرة المطلّة عل البحـــر، الجـــنان الهادئة حيث يتزاحم. أمشي قدّام البيت وأنا أنظر إلى الواجهة، نافذة إثر نافذة، ومداخل المنافذ المعتمة هذه التي كانت تخرج مـــنها أصوات المحكومين بالإعدام، لا أثر لأحد، ورغم ضوء الشمس والبحر الذي يشعّ بعيدا ما بين أشجار النخيل، فقد أحسست بداخلي بما يشبه البرد.

أخذت الحافلة إلى قرية سان مارتان يوم الأحد الذي أعقب وفاة إليزابيث. فتشت في طريق الينبوع عن باب دارنا، في الأسفل، بأدراجها الحجرية الثلاثة أو الأربعة النازلة. لكل كل شيء أضحى غريبا، وربّما أنــا الــتي أضحيت غريبة. لم يعد الجدول الذي كان يعدو في وسط الزقاق، ذاك الذي كان خطيرا مثل نهر، سوى خيط صغير يجرف بعض الأوراق. غــدت الأقبــية والمــرابط القديمــة مطاعم ومحلات للبيزة، للمثلجات والهدايا التذكارية. هناك في الساحة بناية مجهولة. بحثت حتّى عــن الفندق العجيب، المحيّر، حيث وقفنا في الطابور أنا وأمي وأبــي كــل صــباح لتسجيل أسمائنا في دفتر الدركيين. هناك حيث رقصت راشــيل مع الضابط الإيطالي، حيث وضع الدركيون بيانو السيّد فيرن المــسكين. فهمــت في نهاية الأمر أنّه هذا الفندق المتواضع، بنجمتيه ومظلّاتــه الكبيرة القديمة وستائر نوافذه البالية. أصبحت الدارة نفسها، دارة الــسيّد فيرن، دارة شجرة القسطل، الغريبة، المهجورة حيث كان يعــزف علــى البــيانو، جناحا للعطل، لكنّي عرفت شجرة القسطل القديمــة. استطعت، وأنا أرتقي على أصابع رجلاي، أن أقطف ورقة عريضة، محزّزة بدقة، ذات لون أخضر باهت.

سرت في أسفل القرية إلى المنعرج الذي يمكن أن نبصر منه السيل والمــضيق المعــتّم الــذي كنا نسبح فيه، كما في عمق وادي خفيّ، أحســست كــذلك بالماء البارد يوقف شعر بشرتي، وبحرقة الشمس. سمعت طنين الزنابر، وشعرت بالخد الأملس لترستان على صدري وهو

يستمع إلى نبضات قلبي، ربّما سمعت ضحكات الأطفال، الصراخ الحاد للفتيات اللائي يرشهنّ الأطفال، الأصوات المنادية كما في السابق: «ماريز! صونيا!» انقبض قلبي وصعدت إلى القرية بسرعة.

لم أجرؤ على الحديث مع أحد. والحال أنّ الشيوخ ماتوا، ورحل الشباب. أهمل كلّ شيء، ما في ذلك شك. كان السياح يتجوّلون في الشوارع مع أطفالهم وكلابهم. ثمة مرآب في البيت القديم أين كانت النساء يشعلن أضواء السبت. رأيت في الساحة، حيث تجمع اليهود قبل رحيلهم عبر الجبل، وجنود الجيش الإيطالي الرابع يصعدون الربوة تاركين القرية للألمان، لاعبي الكرة الحديدية، السيارات المتوقفة، السيّاح الذين يأخذون صوّرا، ومجلدة سمراء فاتحة. بقيّ الينبوع وحده يسيل في الحوض، كما في السابق، قاذفا الماء من مصبّاته الأربعة للأطفال الذين يأتون للشرب واقفين على المثابة.

وإذ لم تكن هناك وسيلة أخرى، لجأت إلى الاستيقاف على طريق نوتر-دام دي-فينيستر. توقفت سيارة تقودها فتاة شقراء، كان بداخلها رجل أسمر ذو هيئة إيطالية وفتاة أخرى سمراء داكنة ذات عينين سوداوين جميلتين. صعدت السيارة الطريق، عبر غاية الأرزية، في دقائق معدودة، إلى غاية المعبد.

نظرت بلا تأثر إلى الطريق الذي مررنا به، أنا وإليزابيث. حاولت عبثا رؤية الفسحة التي نمنا فيها، قريبا من السيل. حاول الشباب مخاطبتي في السيارة، قال لي الفتى شيئا من نوع: «هل تأتين إلى هنا لأوّل مرّة؟» نفيت، لم تكن المرّة الأولى، جئت إلى هنا قبل مدّة طويلة. غطّت السحب القمم في طرف الطريق، في أعلى منخفضات الجبال. العمارات التي نمنا فيها، معسكرات الجنود الإيطاليين، المعبد، مازال كلّ شيء في مكانه، لكنّه تمّ نزع شيء ما، كأنّها لا تحمل المعنى ذاته.

هناك الآن ناد للتسلق في البناية التي نمنا فيها، قبالة معسكرات الجنود، ومع ذلك وضع الشباب الحقائب هناك لقضاء الليلة. رغبت في لحظة ما في مرافقتهم، في النوم هناك، لكنّ ذلك كان مستحيلا، «حتى في هذا الفصل يجب حجز المكان قبل أسبوع.» حارس المأوى هو الذي قال لي ذلك بصوت غير مبال. كان الأمر أقل صعوبة في ما مضى.

ولمّا كان الوقت متأخرا، لم تكن لي شجاعة المشي في الدرب الحجري حيث يتردد السياح. جلست حينها في المنحدر، غير بعيد عن المعسكرات، محتمية من الريح بجدار صغير من الحجارة، ونظرت إلى الجبل، أو بالأحرى إلى حيث نظرت إلى أن التهبت عيناي وارتعدت من الدوار، حين كنت أنتظر أبي الذي سيلتحق بنا. لكنّني أعرف اليوم أنّه لا يستطيع المجيء.

في يوم رحيلنا بالذات، أنا وأمي في طريق إيطاليا، كان أبي يرافق جماعة من الفارين عبر طريق الحدود، في أعلى بورتمون، حوالي منتصف النهار، عندما فاجأهم الألمان، صاح عميل الغستابو «اجروا! اهربوا!» ولكنّهم، عندما حاولوا الهرب عبر الأعشاب الطويلة، حصدتهم رشقة رشيّشة وسقطوا تباعا، الرجال، النساء، الشيوخ والأطفال. روت ذلك شابة اختبأت في الأدغال، ثم في زريبة مهجورة. لهذا رجعت إليزابيث إلى فرنسا، حتّى تكون في الأرض التي توفّيّ فيها زوجها، كتبت ذلك في رسالة طويلة، على صفحات كرّاس مدرسي، بخطّها الدقيق الأنيق. كتبت اسم أبي ميشال جريف وأسماء كل الذين سقطوا معه في العشب، في أعلى بورتمون، ماتت هي اليوم في الأرض نفسها، وجسدها الآن مدفون في مرداس حديدي أحمله معي.

مشيت قليلا في طريق سان مارتان، سمعت خرير الشلال الهادئ وزمجرة العاصفة من خلفي، في مدرّج السحب. أخذني سياح إنجليز في

ســـيارقم إلى القرية، ورغم الفصل فقد عثرت على غرفة في فندق، في أسفل الشارع المركزي، في بيت قديم لا أعرفه.

استطعت مع ذلك رؤية الناحية التي مات فيها أبـــي في بورتمون. أخذت الحافلة باكرا في اليوم التالي إلى مفترق الطرق ومشيت إلى أسفل الوادي، إلى غاية الفندق المهجور، هناك حيث كانت الحمامات سابقا. تابعـــت السلّم في أعلى السيل الكبريتي، ثم الدرب الضيق الذي يصعد باتجـــاه الجبل. كانت السماء رائعة. تصوّرت أنّ فيليب وميشال كانا سيحبان رؤية هذا، ضوء الصباح الذي يسطع على المنحدرات العشبية وعلـــى الـــصخور. تـــبدو الجبال العالية الزرقاء في الجهة الأخرى من فيزيبـــي خفيفة كالسحب.

منذ وقت طويل لم أسمع هذا السكون، لم أذق هذا الهناء، فكرت في البحـــر، كما رأيته ذات صباح وقد أخرجت رأسي من قعر سفينة **الإخوة السبعة**، كان ذلك من البعد بحيث يبدو خرافة. تصورت أبـــي في تلـــك السفينة، في لحظة ملامسة الشمس حافة العالم وإضاءة ذرى الأمـــواج. كذلك كان يتحدث عن أورشليم، المدينة الضوئية، كما لو أنّهـــا سحابة أو سراب فوق الأرض الجديدة. أين هي هذه المدينة؟ هل هي موجودة حقا؟.

تـــوقفت علـــى حافـــة الجبل، في الموضع الذي تبدأ فيه حقول النـــباتات، حيث كان ماريو يبحث عن الأفاعي، حيث حلمت برؤية أبـــــي. كانت الشمس تضرب بقوّة، تسطع في كبد السماء وتلتقط الظلال بأعداد كبيرة. كان الوادي لا يزال في ظلّ الصباح الضبابـــي، لم يكـــن هـــناك أي طـــيف بـــشري، ولا بيت، ولا صوت. منحدر الأعـــشاب يـــصعد إلى السماء، كما لو أنّه يصعد إلى اللانهاية، وكان الطريق هو الأثر الوحيد.

أدركت أنّهم مرّوا من هنا، أبي في المقدمة، وخلفه الفارون، على خط واحد، نساء ملفوفات في خماراتهن، أطفال نائحون أو غير مبالين، والرجال في الخلف يحملون الحقائب، أكياس المؤونة والأغطية القطنية. تابعت الصعود عبر الأعشاب الطويلة بقلب خافق، كان ذلك في نهاية الصيف، كما لو أنّنا نبصر عمق الفضاء، رائحة الأعشاب المحترقة وأصوات الجراد الحادة. وهناك في أعالي الوديان المعتمة طيور الحدّاءة التي تحوّم مرسلة أنّاتها. قلبي ينبض لأنّي ذاهبة نحو الحقيقة.

مازال كلّ شيء هاهنا، لم أنس، كان ذلك البارحة عندما كنا نسير، أنا وأمي، في طريق الحجارة الحادة، باتجاه أسفل الوادي نحو إيطاليا، عبر سحب العاصفة. كانت النساء جالسات على قارعة الطريق، صررهن مطروحة بجانبهن ونظراتهن جافة وجامدة. العشب مسكر هنا، كما العطر المثير، ربّما حشّه مزارعو القرية وبدأ يتخمّر. العرق يسيل على جبيني، على ظهري وأنا أمشي على طول الدرب نحو أعالي المنحدر العشبي. أنا الآن في مرج شاسع يصل إلى صخور القمم، من العلوّ بحيث لم أعد أرى أسفل الوادي. نزلت الشمس من جديد نحو الجبال الزرقاء، في الجهة الأخرى من المنحدر، السحب منتفخة، رائعة. أسمع هزيز الرّعد في جهة ما.

أمامي أكواخ الرعاة، إنّها أكواخ من الحجر الجاف، لا عمر لها. ربّما كانت هنا قبل أن يشيّد البشر مدنهم، معابدهم وحصونهم. أحس بداخلي ما يشبه قشعريرة كلمّا اقتربت من الأكواخ، تكبر رغم الشمس والرائحة المسكرة للأعشاب الطويلة التي تتخمّر، وفجأة، أعرف هذا، أنا متأكدة، هاهنا. كانوا مختبئين هنا، في الأكواخ الحجرية. لمّا وصل الفارون إلى السهل خرج القتلة ورشيشاتهم على الورك، صرخ أحدهم بالفرنسية: «اهربوا، بسرعة، بسرعة، اهربوا!

اذهبوا، لن نؤذيكم!» رجل من الغستابو هو الذي صرخ هكذا، كان يرتدي كنـــزة رمادية أنيقة، وعلى رأسه لبدة. شرع الأطفال والنساء والعجائـــز والـــرجال في الجـــري عبر الأعشاب الطويلة مثل بهائم مذعـــورة. ضـــغط حيـــنها البوليس العسكري على الزناد وكنّست الرشيـــشات حقل العشب جاعلة الأجساد ترقد فوق بعضها البعض، وغـــرق صراخ الخوف في الدم. لازال آخرون أحياء، رجال يريدون الهـــرب نحـــو أســـفل المـــنحدر، عبر الممرّ الذي صعدوا منه، لكنّ الرصاصـــات أصابتهم في الظهر. سقطت في العشب الرزم والحقائب والأكياس، وتناثرت الملابس والأحذية، كما في اللعب. ترك العساكر المتاع، سحبوا الأجساد من الأرجل إلى أكواخ الرّعاة وتركوها هناك تحت أشعة الشمس.

بـــدأ المطـــر يسقط مساء على المنحدر العشبـــي، على أكواخ الحجـــارة. ينـــــزل الممرّ عبر الأعشاب الطويلة باتجاه الوادي المليء بـــالظلال، كمـــا في مـــا مضى، لمّا كانت الشفرات القاطعة تصل إلى الشفتين، لمّا لم أكن أعرف أين أنا. لم يعد أيّ أحد يأتي إلى هنا. ربّما تـــأتي في نهاية الصيف قطعان من الخرفان يقودها عجوز أصمّ يتحدث مع كلبه ويصفّر، ويجلس على حجر لرؤية السحب المنـــزلقة.

نـــزلت الجبل شبه راكضة عبر الأعشاب الطويلة، سالكة الدرب الـــزلق. أمـــا زالت هنا الأفاعي المتشابكة في مواجهة عاطفية؟ أما زال هـــناك من يعرف كيف يناديها مثل ماريو، بهدوء، مصفّرا بين أسنانه؟ كل شيء يدور من حولي، كأنّني الكائن الحيّ الوحيد، آخر امرأة تنجو مـــن الحرب. يبدو لي الآن أنّ مدينة الأضواء، أورشليم، تلك التي كان أبـــي يريد رؤيتها، كانت في الأعلى، على منحدر العشب هذا، بكل قببها ومآذنها التي تربط العالم الأرضي بالسحب.

كـــان الظـــلّ دافئا في الوادي، وكان المطر ينـــزلق على الطريق بـــصوت نـــاعم. أخذتني شاحنة إيطالية إلى نيس. عرفت الشيء الذي جـــئت أبحـــث عنه، سيكون فيليب وميشال هنا بعد يومين. أحبّهما. ســـأذهب معهما إلى الجهة الأخرى من البحر، إلى بلدي حيث الضوء بهيّ، إنّه يسطع خاصة في عيون الأطفال، العيون التي أريد أن أطرد منها الألم. أعـــرف أنّ كلّ شيء سيبدأ. وأفكر في نجمة، أختي التي ضاعت منذ أمد في سحابة غبار الطريق، التي يجب علي العثور عليها.

البحر جميل في الغسق. يختلط الماء بالأرض والسماء، هناك ضبابة تتسكع، مغطية الأفق بشكل خفيّ، وثمة سكون رغم حركة السيارات، ورغم ضجيج السكان. كل شيء هادئ في الحاجز المائي حيث تجلس إستير. إنّها تنظر إلى الأمام ولا تكاد تطرف. منذ عدّة أيام وهي تأتي إلى هذا المكان مع أفول الشمس لتنظر إلى البحر، ستكون آخر مرّة هذا المساء. سيأتي غدا فيليب وميشال وسيأخذون القطار إلى باريس، إلى لندن، يجب الرحيل من أجل النسيان.

يأتي الصيادون كلّ مساء وفي التوقيت نفسه ليجلسوا. يحضّرون طعمهم بعناية، قصب الصيد، البكّارات، حركاتهم دقيقة وواثقة. إستير تحب النظر إليهم. إنّهم منشغلون جدا ومهتمون، كأنّ الباقي مجرّد أحلام، خرف، خيال مجنون يهذي وحيدا في رواق مشفاه. تتصوّر إستير وقتئذ أنّ الحقيقة هي هذه، هؤلاء الصيادين في ضوء الغسق، خيوط الصنارات التي يلقونها الآن في البحر، الرصاص الذي يصفّر ويهاجم الأمواج الرّخوة، وبرق الضوء وقت اختفاء الشمس المنبسطة خلف الضباب. يضيع نظر إستير في المساحة الشاسعة السنجابية التي أمامها، ثم يستقرّ على سفينة صغيرة واحدة، على قارب واحد، دقيق ومثلث يعبر الضباب ببطء.

إنّها نهاية الصيف أيضا. النهارات أقصر والليل يأتي فجأة. تقشعّر إستير رغم الهواء المعتدل. أشعل الصيادون مذياعا على الصخور البارزة على الشطّ، تأتي الموسيقى في نفخات مع الريح، صوت امرأة تغني

عالـــيا، كأنّـــه نشاز، وهناك خشخشة الطفيليات بسبب العواصف في الجبال.

يستدير الحوّاتون من حين إلى آخر وينظرون إليها بشكل هازئ. يقولـــون أشياء بلغة نيس، تظن أنّهم يتحدثون عنها لأنّهم يضحكون قلـــيلا. بعضهم شباب في سنّ ابنها، بشرتهم سمراء داكنة، هيئة إيطالية وقمـــصان ورديـــة ذات أكمام قصيرة. ماذا يمكنهم أن يقولوا عنها؟ وجـــدت صعوبة في حدس هذا وهي بذلك اللباس، كشحاذة بشعرها القـــصير الـــذي بدأ يشيب ووجهها الذي لا يزال طفوليا وقد لفحته الـــنهارات المشمسة في الجبل، ولكنّها سعيدة نوعا ما بسماع أصواتهم، موسيقاهم الفظة وضحكاتهم، وهذا دليل على أنهم حقيقيون، على أنّ كـــل هذا قائم، هذا البحر البطيء، كتل الاسمنت هذه، وهذا الشراع الـــذي يتقدم في الضباب. لن يختفوا. تحسّ أنّ الهواء الخفيف والضباب المـــضيء يجتاحانها. التأم البحر بتكراره وألق الضوء المنكسر. إنّه وقت انقـــلاب كل شيء، تحوّل كل شيء. منذ وقت طويل لم تعرف سلاما كهذا، جنوحا كهذا. تتذكر جسر السفينة ليلا، عندما لم يكن هناك لا بـــرّ ولا زمان. كان ذلك بعد ليفورنو، وربّما أقرب من الجنوب عند عبور مضيق مسّينا. رغم منع النقيب، تسلّقت إستير السلّم وحبت على الجسر في الريح الباردة إلى المركز الأمامي، باحتياطات لصّ. سيلفيو هو الذي كان في نوبة الحراسة وتركها تفعل ذلك، دون أن يقول لها شيئا، كأنّه لم يشاهدها. تتذكر اليوم إستير كيف كانت السفينة تنـــزلق في البحـــر الأملس، غير مرئية في الليل، تتذكر صوت الجؤجؤ واهتزازات المحرّك تحت الجسر.

كـــان المذياع مشعلا والبحّارة يسمعون موسيقى خنّاء مطقطقة كالتي يسمعها الآن الحواتون. كانت الإذاعة الأمريكية، في صقلية وفي

طنجة، موسيقى الجاز تخرق الليل في نفحات، كما اليوم، لم نكن نعرف أين، نحن الضائعين في الفضاء. يبتعد، يعود الصوت القويّ الأبحّ، بيلي هوليداي الذي يغنّي **الوحدة والسيّدة المتكلفة**، أدا براون، جاك ديبري، أصابع ليتل جوني على البيانو. جاك هو من علّمه الأسماء لاحقا، لمّا كانا يسمعان أسطوانات على الحاكي القديم في غرفة نورة، برامات يوحانان. **غيرة القلب**.

تتذكر إستير النغمة، تغنّيها بصوت خفيض عندما كانت تسير في الشارع، ذاك ما وجدته في كندا، الموسيقى في شقة جادة نوتر- دام التي ساعدتها على العيش في الوحدة والبرد، في المنفى. تنزلق اليوم على الموسيقى القادمة من مذياع الصيادين أمام كاسر الأمواج، قدام البحر الذي أصبح أسود. تتذكر إذا، ما كان يعنيه السفر نحو المجهول، نحو الضفة الأخرى من البحر، لكنّ قلبها ينقبض لأنّها تتصور أنّ هذا ليس موجودا بالنسبة إلى إليزابيث، ولن يكون هناك سفر.

توقفت السفينة عن الانزلاق في البحر المصقول وقد حملتها موسيقى بيلي هوليداي وقت توقّف إليزابيث عن التنفس، ماتت ليلا، وحدها على سرير الأحزمة، دون أن يمسك بيدها أحد. دخلت إستير الغرفة ورأت الوجه الشديد البياض، المقلوب على الوسادة والبقعة المعتمة على الجفنين، انحنت على الجسد البارد اليابس وقالت: «ليس الآن، أرجوك. ابق قليلا! أريد أن أحدثك عن إيطاليا، عن الإمارة.» قالت ذلك بصوت مرتفع وهي تضغط على اليد الباردة لتدخل قليلا من الحرارة في الأصابع الميتة. دخلت الممرضة وبقيت واقفة أمام الباب، دون أن تنبس ببنت شفة.

كلّ هذا يبتعد الآن. كما في عالم آخر، عالم تختلف فيه الأضواء، حيث لكل شيء لون آخر، ذوق آخر، وحيث الأصوات تقول شيئا

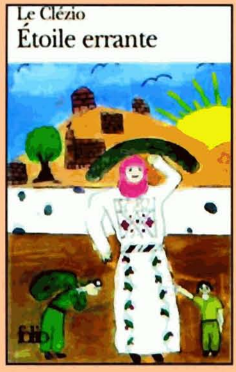
آخـــر والعـــيون لها نظر آخر. صوت أبيها الذي يذكر اسمها هكذا، إســـتيرليتا، النجمة الصغيرة، صوت السيّد فيرن، صوت الأطفال الذين يـــصخبون في الـــساحة بسان مارتان، صوت ترستان، صوت راشيل، صوت جاك بيرجي عندما كان يترجم كلمات الحاخام جويل في سجن تولون. صوت نورة، صوت لولا. مرعبة هذه الأصوات التي تنأى. الآن وقد جنّ الليل، تشعر إستير بالدموع الوشيكة، لأوّل مرّة منذ سنوات، منذ فارقت طفولتها، انهمرت الدموع من عينيها وسالت على خدّيها. لم تعرف لماذا كانت تبكي. عندما مات جاك في روابـــي طبرية، جاء ثلاثـــة جـــنود إلى الكيبوتـــز لإعلان النبأ، رجلان وامرأة. قالوا إنّهم يعتذرون، لقد توفي جاك يوم 10 يناير ودفن. ورجعوا في الحال. كانت لهم وجوه وديعة جدا.

لم تـــبك إســـتير وقتذاك. ربّما لم تكن آنذاك دموع في جسدها بسبب الحرب، ربّما بسبب ضوء الشمس في الحقول، في المزارع، ضوء يلتصق بشعر يوحانان الأسود بسبب السكون وألق السماء. تحسّ الآن بالدمـــوع تـــأتي إلى عينيها، كأنّ البحر هو الذي يصعد إلى مقلتيها. كانت إستير تحمل في الحقيبة التي تلازمها يوميا، عبر شوارع المدينة إلى أعالي الجبال، وفي منحدر العشب حيث مات والدها، المرداس الحديدي الـــذي يخبّئ الرماد. الريح التي تهبّ على الكتل الإسمنتية دافئة، تأتي في شكل رشقات حاملة معها النغمة الموسيقية الخناء، كأنّ بيلي هوليداي هو الذي يغني **وحدة** في ناحية مضيق مسّينا، والحال أنّه شيء آخر.

تأخذ ريح الليل الرماد الذي يخرج من العلبة الحديدية وتوزعه في اتجاه البحر، تعيده أحيانا زوبعة إلى إستير، تعميها، تذروه على شعرها. ألقـــت إســـتير بالعلـــبة بعيدا لمّا فرغت، ما جعل الحواتين يستديرون لـــصوتها، ثم أغلقت الحقيبة وقفزت من كتلة إلى كتلة على طول مصدّ

الأمـــواج. مـــشت عبر الأرصفة، أحست بتعب شديد وبراحة كبيرة.
هناك خفافيش ترقص حول المرايا العاكسة.

خلال صيف 1943، في قرية صغيرة تقع في منطقة نيس الفرنسية والتي حوّلها المحتلون الإيطاليون إلى غيتو، تكتشف «إستر» المراهقة الهادئة معنى أن يكون المرء يهودياً في زمن الحرب، وتعرف معنى الشعور بالخوف والمهانة والهروب بين الجبال ثم موت والدها. عند نهاية الحرب تقرر «إستر» ووالدتها الالتحاق بـ«دولة إسرائيل». وخلال رحلتهما على متن سفينة مكتظة تتقاذفها العواصف، اكتشفت «إستر» قوة الصلاة والدين. ولكن الأرض الموعودة لم تمنحها السلام.



فعند وصولها تصادف وبشكل خاطف كالحلم «نجمة» التي تغادر بلدها ضمن قوافل الفلسطينيين الفارّين باتجاه مخيمات اللجوء.

«إستر» اليهودية، و«نجمة» الفلسطينية، لم تلتقيا أبداً بعدها، تبادلتا نظرة واسميهما فقط، غير أنهما في منفاهما لم تتوقف الواحدة منهما عن التفكير في الأخرى، فصلت بينهما الحرب وظلتا تصرخان في وجه تلك الحرب.

تُعتبر رواية «نجمة تائهة» بمثابة رحلة نحو وعي الذات، فما دام الشر موجوداً وما دامت فكرة اللجوء إلى العنف غير مرفوضة تبقى «إستر» و«نجمة» نجمتين تائهتين.

تصميم الغلاف: سامح خلف

ISBN 978-614-01-0171-5
9 786140 101715

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
editions.elikhtilef@gmail.com

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com